
حسب الشيخ جعفر
ربما هي رقصة لا غير
أبو عبدو البغل



المؤلف: حسب الشيخ جعفر
عنوان الكتاب: ربما هي رقصة لا غير
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٢
تصميم الغلاف: ريم الجندي

دار المدى للثقافة والنشر

سورية: دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٨٣٦٦ ـ تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ ـ ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box.: 8272 or 7366 - Tel: 2322275 - 232226, Fax: 2322289
www.almadahouse.com Email: al-madahouse@net.sy

بيروت ـ الحمراء ـ شارع ليون ـ بناية منصور ـ الطابق الأول ـ تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ ـ ٧٥٢٦١٧
www.daralmada.com Email: info@daralmada.com

بغداد ـ أبو نواس ـ محلة ١٠٢ ـ زقاق ١٣ ـ بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

ISBN: 975-2-84306-117-2

حسب الشيخ جعفر

ربما هي رقصة لا غير

روايـــة



توطئة

هي أوراق طريفة كتبها ذهن من الأذهان المتصفة بالذكاء الحاد والقلق القدري.. لا أريد ان أكتب عنه أكثر مما كتب هو.. ولا أريد أن أقول أكثر مما تقول أوراقه عن أقدار ومصائر الشخصيات التي تتحرك بضمن هذه الحكاية أو هذه الحكايات الست إذا اعتبرنا كل فصلين منها فصلاً واحداً كما ستوصلنا شخصية من شخصياتها المركزية.. هو فتى أجنبي.. أكمل تعليمه في الأقاصي الشمالية من الكرة الأرضية. و استقرت به النوى هناك بعد أن وجد عملاً مجزياً وشقة مريحة! أنا لم أعرفه ولم ألتق به ولم أسمع عنه إلا ما قالته بعدئذٍ امرأة كانت جالسة إلى المائدة القريبة من المائدة التي كنت أجلس اليها، ذات ليلة، مع أصحاب لي في مطعم من المطاعم الساهرة. وصلت إلينا، ونحن في المنتصف من السهرة، زجاجة شمبانيا من المائدة القريبة، على عادة القوم.. فرددت التحية بمثلها.

وكنت الشخص الوحيد الذي يتكلم لغتهم من بين أصحابي.. وقد فطنت المرأة إلي وأنا أتحدث بلغتها مع النادلة فدعتني إلى مائدتهم، وأخذنا نتحدث ساعة، تلك الليلة عرفت منها هذه الحكاية.. لم يكن من الصعب علي أن أعرف أنك وجاري من موطن واحد.. إن لكما ملامح لا تخطئها عين طفل.. ويسرني كثيراً أن نلتقي في غير هذا المكان، وأحدثك عن جاري حديثاً

لا بد من أن يسرك سماعه واتفقنا على اللقاء في إحدى الحدائق العامة مساء اليوم التالي.

هكذا تم اللقاء القدري وبدأت قصتي أنا مع هذه الحكاية.. حملت إلي المرأة هذه الأوراق قائلة إنها تلقتها بالبريد من جارها بعد انتقاله من شقته. لم يكتب الفتى عنواناً ولم يقل أي شيء في رسالته التوضيحية غير التحية وهذه الكلمات اسمحي لي يا جارتي الطيبة أن أبعث بأوراقي هذه إليك. لقد أتممت كتابتها وانتهيت منها، وأكملت يد أُخرى مراجعتها وتشذيبها قبل انتقالي من الشقة وأنا لا أريد أن أعود اليها بعد تنقيحها هي فأغير وأبدل ما كتب قد كتب كما تقول الأمثال أو الكتب القديمة! لم أعد أتذكر أين قرأت هذه العبارة! وصدقيني يا سيدتي إن بقاء هذه الأوراق قريبة مني يسبب لي، إضافة إلى رغبتي بتجميل أسلوبها مزيداً من الأسى والحزن الشخصيين، ما لا أحتمله فقد أنهض من النوم أو عن المكتب فجأة وأمزق هذه الأوراق.. لا لشيء إلا لأنها السبب في إثارة أساي وحزني.. وأنا لا أود أن أمزق أوراقي هذه وأرميها، إنها جزء من حياتي كما يُقال في الكتب. وأنا لست كاتباً أديباً، فما أنا غير مترجم! وصدقيني أيضاً إن هذه الأوراق لا تنطوي على شيء، مهما صغر، قد يسبب إحراجاً لك أو يمكن أن تخجلي منه، هي أوراق شخصية لا تعني أحداً سواي احتفظي بها يا سيدتي عندك، ودعيها نائمة في سلام، فإذا ضقت بها ذرعاً في يوم من الأيام أودعيها يداً أمينة.. وستأخذ طريقها المقدر ساعة يُراد لها أن تأخذه! وتذكري جاراً لن ينسى دفء يدك الصديقة!.

احتفظت الجارة بأوراقه من دون أن تعرضها على أحد مدة

من الزمن مدة طويلة كما قالت لي، كانت فطنة وذكية أنا شخصياً لم أتعرف بأجنبي غيركما.. أو بشخص يقرأ أو يتكلم لغتكما، وقد عرفت الآن أنك رجل أديب، وأنك لا تعرف عن جاري حتى اسمه، فخذ هذه الأوراق واقرأها، فلا بد أن يقرأها أحد؟ ألست محقة في ما أقول؟ خذها يا صاحبي واقرأها.. وفي اللقاء التالي قد نتفق أنا وأنت على قرار أنا شخصياً لا أميل لإبقائها، بعد هذه المدة من الزمن، مخبأة مغمورة. لعل فيها قصة تصلح للقراءة.. أو أي شيء مما يقرأه الناس.

التقينا مرة ثالثة.. فأبديت رغبتي بنشرها مثلما هي، دونما إضافة مني أو نقصان منها، وبلا تدخل في أسلوبها أو شكلها. وقلت معززاً فكرتها: ما دامت تصلح للقراءة ولا تضر أحداً بشيء.. فلماذا لا ننشرها بعد احتفاظك بها هذه المدة الطويلة وحرصك عليها؟ وأضفت محاكياً تساؤلها: ألست محقاً في ما أقول؟ فضحكت سعيدة بإهداء القراء قصة جديدة! وقد زرت المرأة بدعوة منها.. وزرنا معاً شقة الأجنبي فلم نلبث إلا قليلاً وخرجنا استحياء من قاطنيها. لم يبق من آثاره غير الرفوف الخالية من كتبه، وغير منظر إفريقي.. الكتب القليلة الموضوعة على رف واحد هي كتب السكان الجدد! وبدعوة أخرى من الجارة تجولنا معاً في الطرقات القريبة من المنزل، ودخلنا المخزن والمطعم المجاورين، وبينما كنا نلقي نظرة على المشروبات أبصرت بائعة حسناء، فقلت للجارة: أيمكن أن تكون هذه هي البائعة التي صاحبها الفتى قبل الحكاية.. ولم يتطرق إليها إلا مرة واحدة في أوراقه؟ فابتسمت لي متذكرة: أظنها هي.. إنها تعرفه وحين سألتها: وأنت؟! ألا تعرفين الآن

شيئاً آخر عنه أجابتني بصراحة تامة: لا علم لي بأنبائه الأخيرة لا أُنكر أنني سألت عنه.. إلا أنني لم أهتدِ إلى معرفة أي شيء واضح.. الذي أعرفه هو أنه انتقل فجأة إلى مكان آخر.. أما إلى أين؟ فلا أدري ولم يجبني أحد جواباً مقنعاً.. وانتظرت خبراً منه فلم يأتِ! وما دام صامتاً فلماذا أُقلق صمته الطويل؟.

لم تكن المرأة إلا جارة له. وهو لم يذكرها في أوراقه إلا ذكراً عابراً. وإذا كانا قد ألتقيا مرة فقد ألتقيا لقاء عابراً أيضاً.

فلا دور لها في الحكاية غير احتفاظها بها والكشف عنها لي.. وهكذا اتفقنا، أنا وهي على نشرها وليكن ما يكون.

حسب الشيخ جعفر

7/ 12/ 1996

1

انقطع الخيط بيني وبينها لحظة رأيت الغليون في غرفتها، وكان ينبغي أن ينقطع منذ شهور فوداعاً إلى الأبد، كما يقول عطيل، لأغنياتها الليلية الملتاعة، ورقصاتها العارية، وداعاً لأغنية الزوبعة الثلجية النائحة المترددة كل ليلة، وأما صورتها المعلقة على الحائط في إطارها الأصفر الباهت فسأرمي بها إلى إرشيفي طيلة عامين وأنا منجذب إليها انجذاب السمكة إلى الصنارة.. وقد انقطع الخيط، وها أنا حر حرية الطائر في الفضاء. انقطع فجأة لحظة رأيت غليوناً، خلته غليون رئيسها الأعجف الطويل، فوق طاولتها الحمراء الصغيرة، طاولة الطفل كما تدعوها! أي شأن لي، وأنا مترجم أعمل في بيتي مع السكرتيرة المتقلبة، المتحولة من حال إلى حال؟ كان ربيعاً فردوسياً قصيراً، فصلاً تم تمثيله فانتهى وانطوى انطواء صفحة مترجمة. تركت لي قصاصة قبل أيام عند المناوبة طالبة مني أن أزورها في غرفتها المستأجرة في إحدى شقق حي الأبراج فلم أزرها بالطبع، ودق تلفوني مراراً فلم أرفع السماعة. إنني أتذكر أول مرة رأيتها فيها، كانت الأشجار تخضر اخضرارها الربيعي المختلط بخضرة الصيف، وكانت عائدة مع زوجها الشاعر الأستوني الكهل إلى المنزل الجماعي حيث كنت أقيم قبل انتقالي إلى هذه الشقة.. واختفيا عني وعن المنزل. ورأيتها ثانية

بعد عام مع اخضرار الشجر وكانت خارجة من المنزل، وكنت عائداً إليه. وقبل أن أصل إلى الباب التفت فرأيتها واقفة ضاحكة الوجه تنظر إلي.. وسريعاً ما عزمت أمرها فانقلبت عائدة إلى المنزل وصعدنا معاً في المصعد إلى الطابق الخامس حيث أُقيم أنا في غرفة منه وحيث يُقيم زوجها كما عرفت بعدئذٍ أياماً معدودة.. فهو يمكث هنا أياماً ويعود إلى تالن، وأخذت أسألها في المصعد: أهي طالبة جديدة أم زائرة فلم تجبني إلا بمواء القطط متدللة مازحة، فلم أحصل منها على طائل غير أنها مرّرت مفتاحها على باب غرفتي قائلة: هذه، إذن، هي غرفتك! وتابعت سيرها إلى آخر الممر وانعطفت إلى الشقة الجانبية الصغيرة وهي شقة لا يقيم فيها إلا الزوار وكنت متردداً فلم اتبعها.. وربما كان صاحبها هناك فأحرج وكانت الساعة الثالثة أو الرابعة عصراً.. وفي السابعة كنت في المطبخ أعد وجبة خفيفة لي، وكان المطبخ إلى جوار الشقة فجأة رأيتها تقف عند المطبخ ناظرة إلي مبتسمة، وترجع أدراجها إلى الشقة، فتبعتها بالطبع ودعوتها إلى غرفتي، تلك كانت أول ليلة لي معها وكانت ترتدي ثوباً أصفر؛ أتذكر أنها كانت ثملة عندما ذهبنا إلى الفراش، وكانت ناعمة تماماً، فتركتها تغفو غير مقترب منها، إلا أنها صحت بعد ساعة أدهشني هذا منها بعد قنينة جنّ. شربت نصفها الآخر ولم تنصرف إلا صباحاً، غير أنها سريعاً ما عادت إلي، طالبة، بإلحاح أن أوصلها بنفسي إلى غرفتها.. نكاية بزوج أغفى ليلته قرير العين من دون أن يسأل عنها، واعتذرت عن نزوتها غير راغب بلقاء الرجل خجلاً وتحرجاً، فألحت إلحاحاً، بل أرغمتني آخذة بيدي إلى هناك، حييت الرجل

وعدت سريعاً مغمغماً مع نفسي: أي مجنونة هي غير أنني أحببتها حباً عاصفاً، مريراً، أحببت عينيها الذهبيتين المشتعلتين لهباً وشراراً، وشفتها السفلى الممطوطة، أحببت وجهها الطفولي وشعرها الأحمر الداكن، وأما جسدها الأهيف الرائع فلم أعبأ به كثيراً كنت أحب عينيها وضحكتها وجلوسها إلي عارية وكانها غير عارية وكنت أحب شيئاً فيها لا أدري كنهه تماماً.. ربما مثلما نحب الأطفال، وكنت ألتقيها مرة وتختفي مرة غير مكترثة بالموعد إلا أنها تعود ملحة على اللقاء.. أذكر تخشب أقدامي على السلم كلما وجدت بابها مقفلاً ولا أحد يرد أو وجدت المرأة الطيبة صاحبة الشقة وهي لا تدري شيئاً عن اختفائها الغامض اختفاء خاتم أبي الطيب، أحياناً كنت أدخل الشقة لأستريح جالساً إلى الطاولة الصغيرة الحمراء.. طاولة الطفل أدخن لفافة وأخرج خروج آدم من الجنة.. في تلك الغرفة الزرقاء كنت أقضي ليلتي كلما ألتقيتها هناك، وقد انقطع الخيط فوداعاً، إذن لتخشب الساقين على السلم، وداعاً للمرارة العالقة في الحلق طيلة النهار، ولعيني الغائمتين لا تريان وجهاً غير وجهها في الشارع!

هبط الليل مبكراً وأنا لم أخرج من شقتي منذ ثلاثة أيام، لم أخرج إلا إلى المطعم والمخزن المجاورين.. هبط الليل وأُضيئت المصابيح منذ حين، لقد أنجزت في هذه الأيام الثلاثة عمل أسبوع بأكمله، فأنا حر طيلة الأيام الأربعة التالية، أتجول حيث يحلو لي وأخرج متى أرغب، أنا لا أعمل إلا في شقتي، أمر على دار النشر صباح كل سبت، أعطيهم عمل أسبوعي المنجز وآخذ منهم عمل الأسبوع القادم، هي أعمال نثرية أو

شعرية أترجمها من أسبوع إلى أسبوع. هبط الليل كما يقول الشعراء، وأنا لم أهبط إلى المدينة منذ ثلاثة أيام، فإلى أين تقودني قدماي؟

كانت المناوبتان جالستين إلى مكتبهما الدافئ منذ الآن أعطيت إحداهما لفافة تبغ مثلما اعتدت بين الحين والآخر.. أحياناً أهديهما كلما عدت من المخزن شيئاً من الفاكهة تتسليان به هما كهلتان طيبتان أشاركهما شايهما الخفيف بين العشية والأُخرى أو أتحدث معهما أي حديث عابر.. عن الطقس عن المدائن الأُخرى!

كان المترو قبالة الحائط الجانبي من المنزل، فانحدرت إليه عابراً النفق المزدحم بالعابرين في تلك الساعة الغروبية الغائمة، وأنا وحيد في زحمة أول الليل، أين هي الآن؟ ولمن تضحك عيناها الذهبيتان المتقدتان لهباً وشرراً؟ المترو مزدحم ازدحامه الاعتيادي في مثل هذه الساعة.. سأمر أولاً على المقهى الجانبي الصغير المنفتح على السلم المرمري الأشهب الصاعد إلى مطعم الفندق الرمادي الغائم؟ وسأحتسي البونش أو القهوة.. بعدئذٍ سأقضي السهرة في الركن من المطعم أو في أي مطعم آخر من المطاعم المنتشرة في الجوار.. في البحيرة أو الغابة وفي المقهى وجدتها جالسة إلى صاحبة من صاحباتها تدخنان وتمتصان البونش من خلال القشة المعهودة، اخترت أبعد مقعد خالٍ عنها، وأتيت بالقهوة والبونش وانصرفت بعيني إلى الحركة الغادية الرائحة بين المقهى الآخر والمدخل.. ثم غادرت غير ملتفت إليهما، فإذا بها تتبعني إلى المشجب حيث تعلق المعاطف، وتأخذ بذراعي قائلة إنها تريد أن تتحدث قليلاً معي،

قلت إنني خارج إلى الشارع لأتنشق الهواء، فقالت إنهما خارجتان أيضاً وستتجولان معي في اتجاه فندق الغابة، أسرعت بارتداء معطفي الخريفي صامتاً.. وخرجت إلى الشارع.. فإذا بهما تلحقان بي ضاحكتين وكانت تقول، آخذة بذراعي بين أنظار الرجال المتلفتة إلى وجهها الفائق الفتنة المشتعل الناظرين.. وإلى قوامها البديع:

- إنك مخطئ يا صاحبي.. فما أنا إلا لك.. لك وحدك وأما الغليون الذي اتخذته حجة لفرارك مني.. فهو غيلوني أنا.. إنني أدخن الغليون الآن بين الآونة والأُخرى.. إنما أخبرني إلى أين أنت ذاهب الآن منفرداً غير عابئ برفقة فتاتين تكنان لك أعمق الود؟

فلم أُجبها بشيء. وكانت صاحبتها تضحك ضحكاً وكأنما هي تتفرج على مشهد كوميدي عاطفي يتكرر كل ساعة.. أو هي تقول لي آخذة بذراعي الأُخرى، مقتربة بوجهها مني:

- ماذا جرى لك؟ زينغا تحبك حباً لا حدود له!

وأخذت زينغا تقول:

- والآن.. لا يمكنك أن تدعنا وحيدتين.. وها هو مطعم الغابة عن قرب قريب.. فانعطف بنا إليه من فضلك؟

وكنت صامتاً أو كالصامت طيلة مكوثنا في المطعم، وكنت أراقصهما وكأنني أراقص فتاتين غريبتين تسألانني الرقص معهما في المطعم غير أنه الكونياك! وهما مرحتان لطيفتان! وقد سرهما طلبي من النادلة المزيد من الخمرة الرائقة البراقة! وأصرت زينغا بعد المطعم أن تلبثا معي في الشقة ساعة أو

نصف ساعة، وكنت مرهقاً فلم أشأ مجادلتهما، فدخلنا الشقة وتركتهما تعدان المائدة مثلما تريدان وقد اختارتا هما الكونياك.. أما أنا فلم أشاركهما الحفل إلا بعلبة من البيرة الألمانية الباردة ولم يكن يقلقني مبيتهما لدي بشيء، تكفيهما الأريكتان المريحتان والأغطية والشراشف الزائدة، وكنت مرهقاً حقاً فاردت أن أنام ووجدت زينغا آخذة طريقها إلى غرفة النوم قبلي، ها هي تتجرد من أثوابها وتنطرح تحت أغطيتي وأنا لا أقول شيئاً. كانت مخمورة نوعاً ما وأخذت تقبلني وأنا لا أرد بشيء أيضاً وسريعا ما غفوت، وحين أفقت قبيل الساعة السابعة سمعتهما تتحركان في الشقة، غير أنني غفوت ثانية غير عابئ بهما، وصحوت بعد ساعة وكانت الشقة خالية منهما، لقد أسرعتا مبكرتين إلى عملهما ولم تريدا إزعاجي بشيء، وقد تركت زينغا قصاصتها المعهودة: ساتلفن لك قبل الخامسة.. فهل تظن أنني باقٍ في الشقة حتى الخامسة أترجم أو أكتب؟ وكنت حراً ذلك النهار؟!.. في الحادية عشرة أخذت طريقي إلى المطعم الصغير المجاور.. والريح في وجهي غضة كقبلة طفل كما يقول ليرمنتوف! ومن هناك عدت أدراجي متمهل الخطى إلى المترو. سأمكث نهاري كله في المكتبة الأجنبية ومع هبوط الأمسية الخريفية المبكرة ستقودني خطاي إلى أي مقهى أو مطعم اعتدت التسلل إليه وكنت أود أن تصحبني الليلة إلى الشقة امرأة من صواحبي القديمات أو عابرة سبيل ما.. إلا أنني خرجت من المكتبة متعباً بعد قراءة طويلة متعبة وقد أحرجني أيضاً أن أتصل بصاحبة بعد انقطاع طويل عنها.. وكنت أقول لنفسي: سأنحدر حتى السينما الكبرى فقد يعجبني الفيلم أو أجد

تذكرة زائدة عند مدخل المسرح وقبيل أن أجتاز رصيف الفندق الرمادي الغائم وجدتني عائداً إلى مدخله تاركاً معطفي بين يدي شيخ المشجب، منعطفاً إلى المقهى الجانبي الصغير المنفتح على السلالم المرمرية الشهباء، فرأيت زينغا هناك، كانت وحيدة هذه المرة، وهي تبدو كالمغمومة بل هي مغمومة محزونة حقاً، اقتربت منها مستلطفاً فابتدرتني قائلة:

- حسناً فعلت بقدومك.

- فإلى أي مطعم تريدين؟

- بل نمكث ساعة هنا.. وبعدها إلى غرفتي.. هيا أجلس أو هات شيئاً نشربه.. ما انتظارك واقفاً؟ جئني من فضلك بقدح قهوة آخر.. فلم يبرح رأسي دائراً بعد أقداح البارحة!

قلت وقد أتيت بالقهوة والبونش:

- اسمعي.. أرى أنك مكتئبة حقاً.. وأنا لا يهمني بالطبع فيم هو اكتئابك.. ولن أسأل، كل ما أريد هو أن أرفه قليلاً عنك.. فلطالما رفهت عني في ساعات ضيقي ووحشتي.. فاقترحي أي مطعم تريدين.. وهناك بين ازدحام الطاعمين.. ومع الموسيقى والخمرة الجنوبية الصافية ستنقشع شيئاً بعد شيء عن وجهك الجميل هذه الغمامة الطارئة:

ابتسمت لي ابتسامة متعبة، ابتسامة طفل محزون:

- البارحة ماتت صديقة لي بالسرطان.

هذا نبأ مؤلم لي أيضاً. إنما اختاري مطعماً نسهر فيه.

- اختر أنت وبعدها إلى غرفتي.

- ولماذا إلى غرفتك؟

- إنها أقرب إلى حيث أعمل.

- أوصلك إلى غرفتك وأعود.

- ألم تزل غاضباً عليَّ؟

- لا أريد أن أجادلك الآن.

- ألم أقسم لك أن الغليون هو غليوني أنا؟

- أنا لا أريد إلا أن أبعث السرور في نفسك الليلة وأودعك عند رصيف المنزل، لا ينبغي أن أتركك وحيدة مهمومة في هذا المقهى.. مع أنني أدري أنهم يتهافتون من حول فتاة مثلك تهافت أوراق الخريف كما يقال.. فبإمكانك أن تقودي أي رجل من أنفه إلى أي مطعم تريدين!

- أنا لم أجلس هنا إلا في انتظارك أنت.. وأنت تعلم هذا جيداً.. لقد تلفنت لك اليوم مرتين ولم يرد أحد.. وكأنك تركت الشقة متقصداً.

قلت وقد فرغنا من القهوة والبونش:

- أي مطعم تفضلين؟

- إنما بشرط!

- وأي شرط؟

- لن تتركني عند البيت.. بل تدخل معي غرفتي؟

كنت أعرف أن أمها طبيبة بارعة ومديرة مستشفى.. وأن أباها علامة في الرياضيات.. أما هي فلم تكن إلا لقيطة كما أخبرتني، وجدتها أمها طفلة نائمة في سيارتها المقفلة عند سياج

المستشفى، طفلة في الخامسة لا غير.. وقد فقدت ذاكرتها آنذاك، فلم تكن تعرف شيئاً عن أهلها أو بيتها.. ولم يكن معها أي ورقة أو وثيقة تدل على شيء، وكان اسمها، أو ما ظنت الطبيبة أنه اسمها، مكتوباً على زجاج السيارة الداخلي الخلفي بأحرف غريبة خضراء.. وكانت الثلوج تلك الليلة تنهمر انهماراً، والزوبعة الثلجية تعصف بأشجار الحديقة والشارع. وقد عادت بها الطبيبة حالما وجدتها إلى المستشفى.. ولم يكن ثمة ما يدعو إلى القلق على صحتها، فهي طفلة موفورة العافية.. واتخذت الإجراءات وتشعبت الأسئلة والاتصالات عن أهلها وبيتها دونما نتيجة، وقد حملتها الطبيبة بالطبع معها إلى بيتها، ولم تبرح تتصل وتسأل عن أهلها طيلة أشهر طوال.. ولم يكن ثمة من يعرف شيئاً عنها. فاتخذتها الطبيبة والعلامة ابنة لهما.. مع أن أياً منهما لم يكن عاجزاً عن إنجاب طفل.. أما كيف فتحت السيارة المقفلة فأدخلت الطفلة فيها وأعيد إغلاقها بالمفتاح فقد ظل هذا لغزاً محيراً، باعثاً على الشك والظنون! ثم كيف اختيرت سيارة الطبيبة ولم تكن السيارة الوحيدة القابعة عند سياج المستشفى؟

أهي المصادفة المحض أم عن معرفة بالسيارة وصاحبتها؟ تلك أسئلة قيلت ساعتها وسُجلت في الأضابير الرسمية، ولم تزل دونما جواب! وكان الزمن كفيلاً، كما يُقال، بالتوقف عنها تدريجياً، وبإزاحتها بعيداً عن الأذهان المشغولة المكدودة، ولم تستعد الطفلة ذاكرتها الأولى المفقودة فالذاكرة تبدأ عندها منذ الساعة التي وجدت نفسها فيها صاحية بين يدي الطبيبة في الممر إلى المستشفى كما تقول الطفلة وتؤكد بعد العثور عليها في السيارة المقفلة. غير أنها تهذي أحياناً في نومها كلما هبت

الزوبعة الثلجية الليلية واحتدمت احتداما وأي امرئ لا يهذي في نومه أحياناً؟ إلا أنها تهذي بكلمات غير مفهومة أو بما يشبه الكلمات فهي غمغمات مبهمة، غامضة لا يفقه أحد منها شيئاً، واعتبر الأمر منذ ذلك الحين خطاباً مضطرباً متوارثاً هو أشبه بالتمتمة والصفير تتحرك بهما المخارج واللسان حركة متعثرة هي اختلاجة حلم أو كابوس خفيف يلم بها بين الآونة والأُخرى من دون أن تتذكر منه شيئاً ولعلها الذاكرة الطفولية تعاودها في نومها بتأثير من العاصفة الثلجية الليلية والتطامها بين الأشجار والحوائط فهي تحاكي العاصفة أو تقلدها تقليداً قاصراً، عاجزاً عن الإجادة أو الإبانة بشيء واضح. في الليالي الشتوية كنت أسمع منها، أحياناً، مثل الغمغمة الغريبة وهي نائمة إلى جانبي فإذا حركتها إيقاظاً لها أو تنبيهاً لم تكن تجيبني ساعتها إلا بانقلابها إلى الجانب الآخر. وكنت أقول لنفسي: أمها طبيبة وهي أدرى مني. غير أنها ذكرت لي مرة أنهم سجلوا أصواتها الليلية وفحصوها فحصاً علمياً متبحراً فلم يخرجوا بطائل وقد أشار أحدهم مازحاً آنذاك إلى أنها أشبه بالإشارات الصوتية أو الإرسال الصوتي المسموع ترد به على اتصالات الزوبعة الثلجية أو على أصواتها السرية الليلية الغامضة وأما في صحوها أو يقظتها فلم تكن الزوبعة الثلجية تعني شيئاً آخر غير هذه الرياح المتلوية وهذه الثلوج المتطايرة المنهمرة.

غير أن وجهها يسهم أحياناً وعينيها تشردان ويحلو لها أن تتغنى بأغنية الزوبعة الثلجية ملتاعة الصوت كالهائمة بين الغابات.. وهو أمر قد يحدث لأي امرئ آخر له مثل طبعها

العاصف المتقلب قلت مرة ممازحاً ونحن نصغي إلى الرياح الغضبى:

- كيف تُهجر طفلة في عربة مقفلة؟

- فابتسمت عيناها ابتسامة طفل.

- ولعل هذا هو ما يجعلني أخشى أن أترك وحيدة عند المدخل وقد فاجأني النوم ثملة وحيدة هناك!

- وهل وجدوك نائمة مرة أُخرى عند أحد الأبواب؟

- لا أدري.

وقلت ممعناً في الممازحة، متذكراً شجاراً عابراً جرى بيننا في الصيف، وقد تركت الشقة طيلة النهار والليل تهرباً منها:

- ألم أجدك مرة نائمة على المصطبة في الليل تحت أشجار الحديقة.

- أي حديقة؟

- هنا.. قبالة المنزل.

- كنت أنتظرك فتعبت وغفوت.

اخترت أنا المطعم العائم، وكان عبر الجسر الطويل الرحيب، فوقفنا في آخر الواقفين على رصيف الفندق الرمادي الغائم في انتظار التكسي.

وسريعاً، ما جاءنا الدور.. فانعطفت بنا السيارة انعطافة كبيرة ناحية الجسر. وقد أخذ الرذاذ ينتشر ناعماً على زجاج السيارة. وكانت السماء مظلمة متلبدة بالسحب الحالكة الثقيلة كما يُقال.. والمباني العالية تتلامع بنوافذها، والواجهات المضاءة تبدو مبتلة

منذ الآن. ولم يكن المطعم مزدحماً بعد.. فاتخذنا الركن فيه إلى طاولة لا يشغلها غير مقعدين. وكانت الفرقة الغجرية تتهيأ منذ حين قابضة بأيديها على الكمنجات والآلات الموسيقية الأُخرى. وبين الحين والآخر تعبر الفسحة الصغيرة مغنية أو راقصة عجلى. ابتدأنا سهرتنا بالفودكا والكافيار الأحمر وكانت الأغنيات الغجرية قديمة متكررة قد سمعناها مراراً فلم نأبه لها إلا قليلاً. ولم تبدِ زينغا رغبة بالرقص، فهي لم تزل تتذكر موت صاحبتها المتوقع منذ شهور، وخرجنا من المطعم كالثملين، وعند المدخل إلى بيتها أردت أن أعود فأصرت هي أن أدخل قابضة على ذراعي بقوة.. فدخلنا البيت معاً، أخرجت هي من ثلاجتها الصغيرة قنينة نبيذ أحمر، وجاءت بقدحين ثم أوقدت غليونها المفضض وأخذت تدخن وسألتها معابثاً: متى حصلت على هذا الغليون الغريب بنقوشه وتفضضه؟ فأجابتني هازة كتفيها:

- اشتريته.
- ومن أين اشتريته؟
- كنت مرة أشم الروائح الطيبة وغير الطيبة تفوح بها الأعشاب وقد امتلأت بها سلال النسوة البائعات.. فاقتربت مني فجأة امرأة شيخة عارضة عليَّ هذا الغليون بثمن بخس فاشتريته.
- ويريحك أن تدخني به؟
- أحياناً.

وكنا نرتشف النبيذ.. وهي تنفث الدخان من بين شفتيها غيوماً صغيرة متصاعدة إلى سقف الغرفة الزرقاء.. غير أن الدخان يتشكل ملء عيني المخمورتين أشكالاً لا يتشكلها دخان

المدخنين عادة. كنت أرى خطوطاً تتفرق وتتجمع دوائر تتداخل فتبدو كالوجوه الغامضة المبهمة آخذة الواناً صفراً وخضراً.. وهي تدور من فوقنا متمايلة بأكتافها كالراقصة النشوى.. قلت مستغرباً :

- أنظري إلى الدخان آخذاً أشكال راقصين!

فأجابتني غير مكترثة تماماً :

- ما هو إلا دخان اعتيادي.

- ألن تري هذه الأوجه والأذرع؟

- لا أرى إلا نفثات دخان.

- فكيف تبدو لي دون أن تبدو لك؟

- إنك أكثر ثملاً مني يا صاحبي.

- ألا يبدو لك أي وجه من هذه الوجوه الراقصة؟

- لا شيء إلا الدخان المتصاعد كأي دخان :

فجأة طرأ لي خاطر ما فقلت :

- أعطني غليونك لحظة من فضلك.

و طفقت كما يقول المترجمون أدخن ناظراً إلى السقف فلم أبصر إلا دخاناً اعتيادياً دونما هيأة أو لون غير هيأته ولونه الاعتياديين، وأعدت الغليون إليها فلم يتشكل الدخان صوراً أو لم يتلون، فركت عيني خفيفاً : إنني ثمل بالطبع فاتخيل وأتصور، هكذا قلت لنفسي. ولم أفق صباحاً إلا في العاشرة، كنت مرهقاً تماماً، وسمعت التلفون يدق والباب يقرع، تلك

صاحبة الشقة تدعوني لأرد على زينغا، فجاءني صوتها الصباحي الطازج قادما عبر الجهاز الأسود الجاثم كارنبة:

- هل أيقظتك؟

- أنا مستيقظ منذ حين.

- فأسمعني، إذن، من فضلك.

- كلي آذان.. كما يقول الكتبة.

- هل يمكنك أن تمكث في غرفتي حتى الخامسة أو بعدها بقليل؟

- ولماذا؟

- أنت مرهق كما أعرف.. فلا تزد نفسك إرهاقا بخروجك.. أسمع.. ستجد فطارك في المطبخ.. ويمكنك أن تستحم أو تعاود الرقاد... فإذا رغبت بالقراءة فلديك من الكتب ما يكفي.. وأنا عائدة بعد الخامسة دونما تأخر وسنفكر عندها إلى أين يمكننا أن نذهب.

- طيب سابقى منتظراً أوبتك.

- اتفقنا إذن. فإلى اللقاء.

وكنت منهمكا تماما.. فلم أشأ أن أزعج نفسي بتسخين ماء للقهوة أو إفطار لي.. فعدت إلى الغرفة لأعاود الرقاد كما نصحتني ولم أصح إلا بعد ساعتين، وكانت الشقة خالية فقد انطلقت صاحبتها إلى شأن من شؤونها العديدة في أطراف المدينة الأُخرى، وخرجت المستاجرة الأُخرى أيضاً، وهي

امرأة عجوز مرحة طالما أخذت تناكدني ممازحة.. آخذة على تعلقي بزينغا وتولهي بها:

- تملكه هوى الصبية تملكاً لا فكاك منه.

ولم يزل الغليون المفضض بنقوشه الغريبة منطرحاً على الطاولة الحمراء الصغيرة.. طاولة الطفل. فأمسكت به رافعاً إياه: لم يكن إلا غليوناً كأي غليون، وكنت مخموراً بالطبع.. مخموراً أو متعباً فلم أر إلا تخيلاتي نفسها.. تخيلات المخمورين! أفطرت وتجرعت القهوة السوداء المرة كما اعتدت تجرعها وأخذت أتصفح المجلات المصورة.

ها هي الأغنيات التي لحنتها زينغا منشورة على صفحتين بكلماتها ونوتتها الموسيقية، هي تجيد التلحين كما تجيد الرقص، وقد حدثتني طويلاً عن دروسها وتمارينها في مدرسة الرقص. أما معرفتها بالموسيقى والتلحين فلم تتلقها في أي معهد أو مدرسة كما أكدت لي مراراً. إنها موسيقية بالفطرة كما تقول.. فقد علمت نفسها بنفسها. وهي تقسم لي مؤكدة امتلاكها هذه الموهبة فطرياً دونما استعانة إلا بأصابعها وأذنيها الموسيقيتين! وهي تحسن العزف على البيانو كما يحسنه أي فنان بارع، وها هو البيانو الأسود قابع في الركن من غرفتها الزرقاء الصغيرة طالما عزفت عليه لي سوناتا بتهوفن الرابعة عشرة!

أخبرتني مرة أنها تلتذ التذاذاً فائقاً، بالغة الذروة من اللذة في أثناء عزفها هذه السوناتا بالذات، وسمعت الباب يفتح فأطلت من الغرفة: تلك هي صاحبة الشقة عائدة من المخزن الآن حاملة حقيبة التسوق الملأى، حيتني باسمة لي وقد وجدتني بالفانلة

والبنطلون، كان النهار غائماً ممطراً فالبلل بادٍ على معطفها وأخذت أنظر من النافذة إلى الشارع الخلفي.. إلى المنازل العالية والأشجار. بعدئذٍ التففت بالأغطية ورحت أقرأ. وعبر النافذة لم يزل المطر يتساقط بين آن وآن، وفي الخامسة كانت السماء مظلمة حالكة وقد انقطع المطر إلا رذاذاً ناعماً يتراءى تحت أضواء الشارع المتلاحقة. ارتديت ثيابي منتظراً عودة زينغا، انتظرتها حتى السادسة فلم تأتِ فأخذت معطفي المعلق على المشجب وأسرعت إلى الباب.. والمستاجرة العجوز تصيح بي ممازحة حاملة مكنستها بيدها:

- ألم تأتِ أيضاً؟

في تلك الساعة من المساء تزدحم الحافلات والمترو ازدحاماً بالعائدين من المصانع الهائلة إلى بيوتهم، وكنت منزعجاً مضطرب البال. أوقفت أول تكسي فأسرع بي في اتجاه شقتي، هناك سأغير ثيابي وأرمي بصورتها المعلقة على الحائط إلى أرشيفي وأنطلق إلى حيث تلقي رحلها.. كما يقول الشعراء. أضأت الشقة المظلمة وأسرعت إلى البهو، كان الإطار الأصفر الباهت خالياً من صورتها من دون أن تعبث به يد لا أحد غيري تهمه هذه الصورة.. فأي يد امتدت إليها وانتزعتها من بين إطارها من دون أن تزحزح أو تحرك انغلاقته المحكمة؟ لا بد من أن يداً ماهرة قد أخرجتها من الإطار ثم إعادته مغلقة إياه إغلاقاً محكماً حول لوحه الزجاجي! لا أحد يدخل شقتي في غيبتي غير المرأة المنظفة إلا أنني أعرفها منذ عامين. لا شيء يهمها غير أرضية الشقة والمطبخ والشراشف، لا شيء إلا التنظيف والترتيب، وأي شأن لها مع صورة امرأة معلقة خلف الزجاج

الراسخ المكين؟ هل هي زينغا بنفسها؟ أنا لم أترك معها مفتاح شقتي.. فهل دخلتها في أثناء حضور المنظفة؟

وكيف أمكنها إخراج الصورة وإعادة الإطار إلى وضعه المحكم من دون أن يتغير شيء أو يتحرك؟ ورفعت الإطار وقلبته: لم يبرح الشريط اللاصق العتيق ملتصقاً تماماً بالخشب والكرتونة الخلفية القديمة لا بد من شريط لاصق جديد لإعادة الإطار والكرتونة إلى وضعهما الثابت. فأين هو الجديد في الأمر؟ هل هي مزحة من مزحاتها؟ هل هو إطار آخر غير إطاري القديم؟ هو إطاري نفسه. فإلى أين يجري بي تفكيري المبلبل؟ وطلبت المرأة المنظفة في التلفون:

- قولي لي من فضلك، هل طلبني أحدهم اليوم في التلفون في أثناء حضورك أو هل سأل عني أحد طارقاً الباب؟

- كلا.. لم يطلبك أو يسأل عنك أحد.

- ألم تطرق صاحبتي اليوم الباب عليك؟

- ربما قبل حضوري أو بعده.. أما في أثناء وجودي في الشقة فلم يحضر أحد.. كنت سأدخلها بالطبع وأعد لها القهوة وأترك لها الثلاجة تفتحها وتنتقي أي مشروب منها كما طلبت أنت مني.. غير أنها لم تحضر اليوم ولم تتلفن.. وأنا في الشقة.

- شكراً.. أعذريني عن إزعاجي إياك.

فإذا كانت زينغا هي الفاعلة.. فكيف دخلت الشقة المغلقة من دون مفتاح؟ هب أن معها مفتاحاً مشابهاً آخر.. فلماذا أخفته عني؟ أي شيء يحدث معها إلا هذا. هي غريبة الأطوار بالطبع..

أما أن تحصل على مفتاح آخر من دون أن تعلمني.. فأمر لا يمكن أن تقدم عليه وفتحت الثلاجة فأخذت علبة من البيرة الألمانية الباردة. ورحت أدخن فتذكرت الغليون فجأة طرأت لي هذه الفكرة المعابثة: هل لغليونها علاقة باختفاء الصورة؟ اختفت الصورة بفعل فاعل، فهل هو الغليون المفضض؟ وتفقدت الشقة كل شيء مثلما تركته في موضعه إلا الصورة فقد اختفت أو تبخرت وهو التفسير الصحيح، هل هي أذرع أدخنة الغليون المفضض المتوهمة، المتخيلة.. امتدت إلى الصورة وانتزعتها انتزاعاً خفياً من إطارها المغلق؟ وضحكت من هذه الفكرة الطارئة الغريبة غير راضٍ عن نفسي ولا عنها كما يقول المتنبي فيم بقائي في الشقة متأملاً إطاراً فارغاً وقد تجاوزت الساعة السابعة والنصف؟ ارتديت معطفي الخفيف وهبطت هبوط أورفيوس إلى العالم السفلي.. وسألت المناوبتين:

- ألم يسأل عني أحد اليوم؟

- أنت تعني صاحبتك الحسناء بالطبع!

- هي.. أو غيرها.

- لم يحضر أحد اليوم غير المنظفة.

الليل في أوله فإلى أين؟ الرذاذ يهمي ناعماً وأنا دونما قبعة.. ولا شيء في ذهني إلا الإطار الفارغ! انحدرت مع رصيف الشارع غير منتبه إلى المارة تحت أشجار الخريف.. ووجدتني بدون أن أدري واقفاً عند كشك تلفون منتظراً خروج امرأة ثرثارة متضاحكة منه. ولم تخرج إلا بعد انتظار طويل، أدرت رقم تلفونها فأخبروني أنها لم تعد بعد ولم تتلفن، فأين هي الآن؟

وانحدرت مع رصيف الشارع تحت أشجار الخريف وكنت جائعاً فأنا لم أتناول طيلة النهار غير فنجان قهوة وبيضة، وعن جانبي تتضاحك الفتيات المرحات ويسرعن الخطى إلى المواعيد عند موقف التكسي كان يقف بضعة شخوص فوقفت في آخرهم منتظراً دوري سأعطي السائق اسم أول مطعم يخطر لي الرذاذ يهمي ناعماً والريح تحرك الشجر تحريكاً هيناً.. ثمة مدينة ما، ثمة شارع وبيت لماذا يدور هذا البيت الشعري من أبيات ناظم حكمت في ذهني؟. أجلستني النادلة إلى مائدة يحتل نصفها الآخر رجل وامرأته.. ثم حطت على المائدة صبية من صبايا المطاعم. لعل النادلة أرشدتها إلى المقعد الرابع الخالي تقرباً مني أو عطفاً على امرئ أجنبي منفرد، وقد رأتني وابتسمت لي قبل أن تقبل دعوني إياها إلى العشاء، فإن لم تكن راغبة في الكونياك فلها أن تطلب أي شراب آخر فأبدت إعجابها باختياري هذا الصنف الرائع من الكونياك وأخذنا نتحدث أحاديث شتى، لم أكن تواقاً تماماً إلى مصاحبتها.. إنما هو جلوسها منفردة إلى جانبي وأنا منفرد مثلها، ثم أخذنا نرقص، وقد راقها مني لطفي معها وترفقي بها. كان قوامها لدناً، وكان وجهها جذاباً، مشبوباً بدفء الخمرة والرقص، وكانت تهيىء لي بيدها الحلوة شطائر الكافيار الأحمر وتقدمها لي قائلة:

- ينبغي أن تطعم جيداً مع هذه الخمرة القوية!

ثم سألتني، بعد حين، وقد رأتني شارد البال:

- أين أنت بأفكارك؟ ألست معي؟

- بل معكِ.

- ففيم شرودك؟

- هو شرود طارئ مبعثه الطقس الرديء.

- إن زجاجاً مانعاً راسخاً يفصلنا عن الطقس.. وهذه الموسيقى المرحة وجلوسك إلى فتاة شابة.. ألم يرفها عنك؟

- قلت هو شرود طارئ.. وها أنا أدعوك إلى هذه الرقصة المجرية المبهجة.. فهل لك بالرقص معي؟

وسألتني ونحن عائدان إلى المائدة:

- أين تسكن؟

وفي صوتها تلك النبرة الواعدة الدافئة، أعلمتها أين أسكن من دون أن تخطر ببالي دعوتها إلى البيت إنما من يدري؟ ربما اتجهنا معاً بتاثير الكونياك القوي في تكسي واحد غير أن أموراً أُخرى بدأت تحدث؟

فالصبية تشعر بدوار مباغت، وبالرغبة في الهواء الطلق.. وها هما عيناها البديعتان تدمعان، فأسرعت طالباً من النادلة إسعافها، ولم ترد الصبية إزعاجهم بشيء.. فاقترحت علي أن أكمل عشائي ونخرج إلى الشارع فينعشها الهواء الليلي بعيداً عن أدخنة التبغ.

لم يفدها الهواء الليلي بعيداً عن أدخنة التبغ.

أول الأمر.. ثم ساء حالها بالصداع الفظيع فقالت آسفة لي:

- لن أصلح رفيقة سهرة ممتعة لك.

- سيحملنا التكسي إلى أي مستوصف قريب.

- ولماذا أزعجك؟

سيتحسن وضعي في البيت تدريجياً.. لا أريد أن أبقيك معي وهذه الدموع تنسكب مدراراً من عيني المسكينتين.. لا أدري ما جرى هذه الليلة لي.

أعطتني رقم تلفونها عسى أن أتصل بها غداً.. في السادسة أو قبلها بقليل، وقد اختلطت زينتها الليلية المنتهكة.. أوصلتها في التكسي إلى بيتها عائداً في التكسي نفسه إلى بيتي، وقد اشتدت الرياح هبوباً عاصفة بأشجار الشارع.. ذاهبة بأوراقها اليابسة، ناثرة إياها إلى الجهات الأربع. دخلت الشقة والتلفون يرن، فسمعت زينغا تقول:

- أين كنت؟ منذ العاشرة وأنا أتلفن!

وكنا في الثانية عشرة من الليل.

- وأين كنت أنت؟

- أين كنت؟ بعد اتصالي بك اليوم شعرت بصداع لم تنفع معه أقراصي الخائبة أو أقراص غيري.. فأخذت إجازة وقصدت المستشفى فلم أجد أمي.. أسعفوني هناك بالطبع ونصحوني بالاستراحة في إحدى غرفهم الخالية.. ولم أفق إلا في العاشرة من الليل وأنا في غرفتي هذه.. لم أعد أتذكر جيداً كيف وصلت. أظن أن أحداً منهم لم يتذكرني وأنا نائمة هناك.. فخرجت وأنا كالنائمة.. أو لعل أحدهم أوصلني إلى هنا، لم يعد الأمر مهماً كما يقال. أين كنت؟

- في المطعم.. كيف أنت الآن؟

- أنا الآن بخير.. وأنت؟

- ما رأيك في أن أزورك الآن فأطمئن؟

- فاجلب معك أي شيء للسهرة.

- للسهرة؟

- وهل تريد منا الجلوس إلى طاولة فارغة؟

- سيعاودك الصداع بعد قدح أو قدحين.

- لا تقلق. ذهب صداعي بعد نومي الطويل ذهاباً لا رجعة منه، وأنا الآن هادئة الرأس صافية تماماً.

- كعين الديك.. كما يقول أبو نواس.

- من؟ من؟

- سأكون عندك بعد نصف ساعة.

أسرعت إلى الإطار الباهت أتفقده تلك هي صورتها بادية لي، فأضأت البهو واقتربت منها، أجل لم يتغير شيء منها، وكأنها لم تنتزع أو تخرج، لم تزل ملء إطراها الأصفر الباهت خلف الزجاج الصقيل المتلامع بالضوء.

لعلي كنت متوهماً أنني لم أتجرع غير القهوة والماء قبل دخولي الشقة واكتشافي اختفاء الصورة.. فمن أين أتتني الأخيلة والتصورات الواهمة؟ ألم أقف طويلاً متأملاً الإطار الخالي متمعناً فيه؟ ألم أتصل بالمنظفة وأسأل المناوبتين؟ وتهاويل الغليون المفضض.. ألم ترها هي رؤيتي إياها وأنكرتها؟ علام أتعب نفسي وأرهقها بأسئلة لا يجدي معها شيء. . من تفكيري واستقصائي؟ ربما كنت متوهماً في كل شيء ألم أكن أسمع، أحياناً، أحدهم يهتف باسمي في الطرقات وألتفت فلا أرى أحداً؟ لن أحمل معي من الخمرة إلا أخفها آخذاً معي ما تتعشى

به.. فهي لم تأكل شيئاً بعد، وسأفرحها بعدد من علب البيرة الألمانية الباردة وخرجت إلى الليل والشارع.

وجدتها في بيجامة اخترتها لها بنفسي.. وقد كنا معاً في المخزن العائم قبل شهرين، وكانت الطاولة الحمراء الصغيرة.. طاولة الطفل صقيلة متلامعة بالمنفضة والأقداح. ولم يبرح الغليون المفضض بنقوشه الغريبة منطرحاً، وديعاً غير عابئ بشيء. أخرجت علبة سجائر تفضلها على غيرها.. سائلاً إياها ألا تقرب الغليون فيثير صداعها بتبوغه القوية.

من يدري أي أخيلة يخبئ ملء فوهته الفاحمة وعنقه الناحل الطويل، لن أسألها شيئاً عن اختفاء الصورة أو ما توهمته أنا اختفاء.. لن أزعجها بأفكاري الغريبة وشطحاتي، هي متعبة بعد الصداع والغيبوبة، ألم تصل بيتها وهي لا تعلم كيف وصلت في وضوح؟ ألم تتحرك وهي نائمة أو كالنائمة كما تقول؟.

- لن تذهبي إلى عملك غداً؟

- أنا مجازة حتى الاثنين.

قلت وهي تدق على الطاولة بأناملها المقصوصة الأظافر عازفة نغماً ما، ناظرة إلى الغليون نظرة المدخنين اللهفى:

- لن أدعك تدخنين إلا أنفاساً من لفافتي.

- كما تريد.. مع أني لم أعد أشعر بذرة صداع!

- مع هذا.. تكفيك أنفاس من لفافتي.

- فأشعلها، إذن، الآن.

ثم سألتني وقد امتصتها امتصاصاً:

- كيف كانت سهرتك في المطعم؟

وأسرعت مضيفة رامقة إياي بعينيها المتقدتين شرراً:

- إنما قل لي.. في أي مطعم كنتما؟

- كنتما؟ أنا لم أكن إلا مع أغراب.

- وأين؟

- في البحيرة.

- أنا لم أكن معك هناك إلا مرتين.

- أنت تفضلين الغرفة أو الشقة.

- حقاً.. لقد بغضني المطاعم ضجيجها.

- إلا أحياناً.. فلا شيء يفضل، عندك، ضجتها أو صخبها.

- أحياناً.

- أتذكرين سهرتنا الأخيرة في المطعم الرمادي.

- أنا لم أصفع الرجل الأحمق إلا بعد تحرشه بي.

- ألم توحي له بتقربك منه؟

- كان هذا نكاية بصاحبته، وتعلقها الفاضح بك.

طفق الغليون يتحرك منعطفاً برأسه ناحيتي، منذراً إياي كما يبدو، فأمسكت به، فكان وادعاً، بارداً كأي خشبة.

- أتريد أن تدخن به؟

- كلا.. إنما أخذته هكذا.. تبركاً به!

- أهو تعويذة؟

- لا أظن.. هو غليون طريف لا غير!

- إنما قل لي.. ألم تكن، الليلة، مع إحداهن؟

- قلت إنني لم أكن جالسا إلا مع أغراب.

وأبعدت الغليون طارحاً إياه على التلفريون.

- فيم أبعدته؟

- كيلا تدخني به.

- جيء به إلى الطاولة من فضلك.

- ولماذا؟

- أنا أقوى من إغراء غليون.

الرياح الخريفية تهب قوية، عاصفة بأشجار الشارع، عبر النافذة المغلقة، والمطر ينقر الزجاج العاري مثلما كان ينقر نافذة بايرون ساعة احتضاره. لم نكن، نحن الاثنين، نحب إسدال الستائر على النافذة.. فلا شيء خلفها إلا الشارع المقفر في هذه الساعة من الليل، والأضواء تبدو كالنعسى بصفرتها المكدودة كما يقول الرومانتيكيون. ولم أزل أتأملها من آن إلى آن، والمنازل العالية مظلمة، نائمة.

- أنت لم تجبني بعد!

- قلت لك.. لم أكن إلا مع أغراب.

- بل كنت مع إحداهن.. فلا تنكر.

قلت ناظراً إلى الغليون القابع، المتوعد.

- لن يتركوك في المطعم منفردة بمائدة.

- ولعلها لم تعجبك.. فلم تصحبها إلى الشقة.

- أنا لم أكن أفكر إلا بك.

- ولم تتعب نفسك فتطمئن علي.

- عدت متأخراً كما تعلمين.

- ولعل طارئاً حال بينك وبين اصطحابها.

- ألن تدعي هذه التكهنات جانباً؟

- ولعلها، هي الأُخرى، أصيبت آخر السهرة بصداع فظيع!

فوجدتني أقول:

- ما أدراك؟ أجل.. فجأة أحست إحدى الفتيات الجالسات إلى المائدة بدوار وصداع.. فلم تكمل سهرتها.

- ألم أقل لك؟

- وكيف عرفت أنت؟

- أنا لم أعرف شيئاً.. إنما أحسست به تكهناً كما تقول.

- ومتى جاء إحساسك هذا؟

- لحظة زال عني الصداع.

هي تقول هذا ضاحكة.. فلم أعد أعرف أهي جادة أم هازلة ألم تخبرني مرة أنهم قد أجروا فحوصاً لرأسها، ورسموا تخطيطاً لدماغها، فتيقنوا من أنها فتاة عبقرية؟ ولم يجر الفحص إلا بطلب منها في هذه المرة. لم يكن فحصاً من الفحوص المتنوعة، التي أجريت بحثاً عن السرّ في تجاوبها الليلي مع الزوبعة الثلجية، وهي غارقة في نومها، هاذية لا تدري ولم تزل الرياح تتلوى بالأشجار المصفرة، العالية. فجأة سمعتها تقول:

- خيل لي أنني رأيت صاحبتي اليوم.

- أي صاحبة؟

- تلك التي ماتت بالسرطان.

- وأين رأيتها؟

- عبر النافذة، وأنا أتلفن لك.

قلت مجارياً، مازحاً:

- أكانت من جيرانك؟

- كلا.. هي من سكنة الجانب الآخر من المدينة.

- فما جاء بطيفها إلى هنا؟

- لم تجيء إلا لإلقاء نظرة علي.

- أكانت تودك مثل هذا الود العميق، فتخترق الحجب، منبعثة من أعماق العالم السفلي الخفية.. لا لشيء إلا لتلقي نظرة عابرة على السكرتيرة الحسناء، النابهة؟

- ربما أقلقها مرضي اليوم.

- ما أنت جادة بالطبع.

- طيب. ما دمت لا تصدق، فما الأمر إلا مزاح مني.

- ولعلها الآن تحت أشجار الشارع الخريفية! في مثل هذا الطقس الليلي، العاصف يحلو للموتى الخروج إلى الطرقات، وتفقد النائمين من أصحابهم الأقربين. من يدري؟ فقد تقرع النافذة عما قليل!

- أرجوك.. أنسِ الأمر. لا يجدر بنا، نحن الاثنين، أن نسخر من الموتى أي حاجز بيننا وبينهم كما تظن؟ لا شيء إلا الستار الواهي الخفيف. لم تكن رؤيتي إياها واضحة. ولعلي لم أبصر إلا طيفاً كما تقول.

- وهل للموتى هيئة أُخرى غير هيئة الشبح أو الطيف؟
- من يدري؟ فقد يتجسدون تجسداً.
- ولم يلتقِ الناس بأحدهم متجسداً إلى اليوم؟
- ومن أين لهم أن يعرفوا؟
- وفيم تجوالهم بين الأحياء؟
- وما أدراني أنا؟
- ألم تسعفك تكهناتك بشيء؟

فجأة أخذت تضحك متوعدة إياي بسبابتها :

- أنا لا أتكهن إلا بلهوك العابث مع الأُخريات.
- أأنت على يقين من أنني كنت، في المطعم، مع صاحبة جديدة؟
- ألم أقل لك؟
- وأنزلت بها صداعك فزال عنك؟
- أنا لم أزعم فعلاً كهذا الفعل. ما أنا بالمرأة المؤذية. صحيح أنني امرأة متعنتة، صارمة.. أما أن أنقل أوجاع رأسي إلى صبية من صبايا المطعم اللاهيات فأمر لا يليق بي.. كلا.. ما أنا بلا قلب!

قلت مازحاً :

- ألن تخففي عنك يوماً بإصابتي بصداع؟
- ما بك؟ ألن تكف عن تساؤلاتك هذه؟
- طيب.. ما هو إلا مزاح.
- أأنت حر غداً؟

- حر حرية الرياح!

- فما رأيك برحلة إلى الريف؟

- فإذا أصبح الطقس ممطراً، مكفهراً؟

- لن يزعجنا بشيء سنرحل بسيارة أمي. وأنا سائقة بارعة كما تعلم. سنطوف طويلاً في الطرقات الريفية. ونعرج بعدها على كوخ أمي الصيفي، ونقضي النهار بأكمله هناك. أليست فكرة عبقرية؟

- ومن يبخس أفكارك حقها؟

- ألم تبخسها مراراً؟

- لم أكن انشد إلا مناكدتك.

- اتفقنا إذن؟

- وسنمر على شقتي قبل أن نتوجه إلى الريف.

- ولماذا؟ يمكننا أن نبتاع، في طريقنا، أي شيء يعجبك!

- بل نمر على الشقة أولاً.. لأغير ثيابي هذه.. فما هي بأثواب رحلة إلى الريف. أليس كذلك؟ ونتزود بما يعجبك أنت من الثلاجة!

- كما تريد.

- ألن يزعجك المطر إذا اشتد؟

- قلت أنا سائقة جيدة! ألم تعد تتذكر رحلتنا الريفية أول الصيف.. قبل أن أرحل إلى الجنوب؟ ألم تهطل الأمطار، طوال اليوم، ونحن بجوار الغابات، أو في الطرق الزراعية؟ كانت رحلة ممتعة! والفلاحة العجوز التي أوصلناها إلى

قريتها.. وقد انقطع بها الطريق؟ وأقداح الكفاس الطيب الذي سقتنا إياه في كوخها؟ أنا لم أزل أتذكر طعمه إلى اليوم. صحيح أنك لم تزل تلتقي ببائعات الكفاس عند هذه الناحية من الشارع أو تلك.. إنما هو ليس مثل ذلك الكفاس. إن له طعماً قروياً لا يُنسى. ومن يدري؟ فقد نتذكر الطريق إلى قريتها، وننحدر إلى هناك. أنا لم أزل أتذكر أين يقع كوخها من القرية. هو أقرب كوخ إلى المصلى ذي الأجراس.. المصلى ذي البرج الناحل، الطويل، في الطرف من القرية.. الطرف الغربي منها. تلك بقعة ريفية تصلح لإقامة حفل لا يُنسى!

2

السماء الشمالية الغائمة مريحة للنفس القلقة كأفكار سكير.. يخطو إلى حانته، والرياح الصباحية الطيبة تداعب، عبر النافذة، أشجار الحديقة العالية العتيقة.. لاهية بأوراقها المتزايدة تساقطاً وصفرة، وأنا قاعد إلى مكتبي في البهو من الشقة أترجم الصفحة تلو الصفحة، الساعة الحادية عشرة إلا قليلاً وأنا لم أتجرع إلا قدح قهوة وعلبة بيرة سأنحدر إلى المطعم الصغير المجاور وأتغدى عما قريب. عينا الصورة المعلقة على الحائط غير ناظرتين إلي، هي في صورتها كالمتكئة على وسادة.. لا يبدو غير وجهها ونحرها العاري. كل شيء يوحي أنها متمددة عارية أو كالعارية، وشعرها الكثيف ينسرح على كتفيها.. مسرحاً تسريحة غير تسريحتها الأخيرة وبلون فاتح آخر، هو مرة أحمر داكن الشقرة أو هو داكن قاتم الدكنة. هي الآن بلا عمل. انصرفت فجأة عن عملها دونما سبب ظاهر أو حجة مقنعة. سيعثر لها زوجها الشاعر المعروف على عمل سكرتيرة في مكتب آخر. الرياح الصباحية تداعب أطراف الشجر، وهي الآن في رحلة إلى تالن، إلى زوجها الشاعر الأستوني. لن ترجع من هناك إلا بعد أسبوعين أو أكثر. أحياناً تتلفن لي وتتكهن وتضحك.. مخبرة إياي بتحركاتي مثلما جرت تماماً. وعينا

الصورة غير ناظرتين ناحيتي، وشفتها السفلى الممطوطة تلوح لي كالساخرة، وأنا أتذكر قبلاتها الطويلة.

أخذ الزجاج يبتل، فالغيوم تهمل منذ حين، فاقتربت من النافذة ناظراً إلى الحديقة المنفتحة بين المنازل الصفر الباهتة أو الحمر الداكنة المحيطة بها إحاطة السوار بالمعصم كما يقال. المصاطب تبدو لي مهجورة كأطلال قفا نبك تحت الصبيحة الممطرة. ارتديت معطفي وحملت قبعتي وخرجت. إنها الساعة الحادية عشرة. لم يكن عليَّ غير اجتياز الطريق المنبسط بين الحديقة والمنزل والانعطاف يميناً. أبصرت سرباً من النسوة العاملات المسرعات إلى المطعم بأرواب العمل الزرق القاتمة.

يبدو أنهن من المصنع المجاور، كن خمساً كما أتذكر.. بينهن امرأة شابة ناصعة الوجه.. عن بعد وهي تلوح فائقة الجمال. وكن يسرعن الخطى متندرات في ما بينهن. أزداد ضحكهن باقترابي منهن متفرساً بفتنة المرأة وهن يحركن أيديهن حركة إعجال:

- أسرع.. إنه مطر غزير!

تبعتهن إلى المطعم، لم تكن الموائد مزدحمة بعد، فاتخذت لي مائدة قريبة منهن متأملاً وجه المرأة الناصع، مفتوناً بعنقها البديع ويديها النقيتين الرائعتين! أما هي فقد أخذت ترامقني بالنظرة الباسمة الأخاذة بين الحين والآخر، وكنت مزمعاً أمري على التعرف إليها، خرجن قبلي فتبعتهن، ووجدتها تتوقف عند لوحة على الحائط تعرض إعلانات المسارح.. فوقفت إلى جانبها قائلاً دونما إبطاء:

- هل لي بسؤال؟

- تفضل.

كنت أدري أنها مسرعة إلى المصنع فلا وقت للتمهل والتمهيد:

- هل من الممكن رؤيتك اليوم؟

- ممكن.

قالتها مبتسمة لي، صريحة الوجه مائلة برأسها قليلاً.

- في أي ساعة من فضلك؟

- في السابعة.

- وأين؟

- هنا قرب المطعم؟ وأعذرني.. ينبغي علي أن أركض ركضاً، فقد تأخرت، هو العمل وأنت تعرف.. إلى اللقاء.

وأسرعت لاحقة بالنسوة المتعجلات، انعطفت مسرعاً أنا أيضاً تحت الرذاذ الناعم، وجدت حزمة من الكتب والمجلات جاء بها الساعي منذ حين. فرحت أتصفحها. ثم إنني تركتها جانباً وانصرفت إلى عملي أترجم الصفحة تلو الأُخرى سأعمل حتى الخامسة كما اعتدت فأين سأمضي الساعتين التاليتين؟ عادة ما كنت أخرج إلى الطرقات أتجول بين أشجارها أو أدخل المترو قاصداً مركز المدينة.. إنما لدي اليوم من المجلات الجديدة ما يشغلني في انتظار السابعة.

في الساعة الثالثة كففت عن الترجمة إلى حين.. فذهبت إلى المطبخ أهيئ لي فنجان قهوة، وأخذت أتطلع عبر النافذة إلى

الأشجار الصفر المبتلة وإلى النسوة المسرعات تحت المطر، إلى المخزن الكبير القائم في الجانب الآخر من المنزل، وكنت أسمع المطر قارعاً زجاج النافذة بإلحاح.. ولا أحد في الحديقة.

- في السابعة كنت واقفاً هناك عند لوحة إعلانات المسارح، فرأيت المرأة الشابة متهادية إلي في معطفها الخريفي الأزرق.. وبقبعة في مثل لونه تعلو شعرها الأشقر المشدود من الخلف. جاءتني هازة لي رأسها بانحناءة لطيفة.

- مساء الخير!

كان صوتها رخيماً دافئاً كما يقول الكتبة. وكان المطر قد كف عن السقوط منذ حين.. غير أن البلل في كل شيء. اتفقنا أن نقضي السهرة في المطعم الساهر قرب محطة المترو المقابلة.. فانحدرنا عابرين النفق إليه. اخترنا مائدة عند الركن إلى جوار الواجهة الزجاجية العريضة المبتلة. وأقبلت النادلة إلينا بقائمتها ونحن نتحدث، عرفت أنها امرأة مطلقة منذ عام.. وأنها تقطن المنزل القائم قبالة المخزن الكبير.. عبر البولفار، كنت مأخوذاً بوجهها الناصع ويديها النقيتين. وقد سرها إعجابي بها سروراً واضحاً وأنا أتصور بشرتها الفائقة!.

- هل تتغدى عادة في المطعم المجاور!

- كل يوم. وأنت؟

- كل يوم تقريباً.

- فكيف لم أرك من قبل؟

- كنا نأتي المطعم في الثانية عشرة.

- هو ذا السبب إذن!

- أتاتيه عادة قبل هذا الوقت؟

- في الحادية عشرة.. كما اعتدت.

- سنراك إذن، كل يوم هناك.. ففرصة غدائنا منذ اليوم هي الحادية عشرة، تجديد في جدول العمل كما يقولون.

- يبهجني أن أرى وجهاً كوجهك كل يوم!

- من يدري؟ فقد تسأم منه بعد أيام.

- ومن يمل رؤية وجه صبوح كوجهك؟

- هذا ما يقال عادة عند أول لقاء!

ثم أضافت وهي تعد لي شطيرة كافيار:

- أتدري؟ أنا رأيتك من قبل مرتين.

- أين؟

- في سينما الحي.

- فكيف غابت عني طلعتك البهية؟ وهي طلعة تتوقف عندها أنظار الرجال عن بعد بعيد! حقاً.. كيف فاتتني رؤية وجهك؟

- كنت تتصفح المجلات عند الكشك.

ورنت لي رنواً خاصاً:

- وكنت مع عاملة حسناء من عاملات المخزن الكبير.

- لم تكن.. إلا من الجيران.

- وهل قلت أنا شيئاً آخر؟

- إنما هي نظرتك التي تتهمني.

- وأين هي التهمة في صحبة فتاة؟

واقتربت منا نادلة بعربة الشوكولا.

- خذي أي صنف يعجبك.. وخذي لطفلتك.

- كم أنت لطيف! واحدة تكفي، سأحتفظ بها.

- بل خذي مزيداً.. أرجوك.

- شكرا لك. سأخبرها أنها منك.

فجأة تذكرت.. فهتفت معتذراً:

- أنا آسف! فاتني أن أسألك عن اسمك؟

فضحكت متسائلة:

- ألم تتذكر إلا اللحظة!

- كلما أردت أن أسألك عن اسمك.. شغلني سؤال آخر.. وأنت أيضاً لم تسأليني.. ما اسمك من فضلك؟

- اسمي دنيا.

وأضافت ضاحكة العينين:

- فما اسمك أنت؟

- فأعدت اسمي مرتين حتى أتضح لها الحرف الأخير منه.. وبينما هي تتلفظه صحيحاً ظهرت زينغا عبر الواجهة الزجاجية، وهي في غلالة قصيرة خفيفة في مثل لون الليلك الندي، عارية الذراعين، عارية النحر، ناظرة إليّ نظرة لائمة معاتبة، وكان المارة يمرون بها من دون أن يلاحظها أحد منهم، ولم يكن شعرها المحلول على كتفيها أشقر أو أحمر داكناً.. كان في مثل لون غلالتها بنفسجياً فاتحاً.. وبدت لي

خفيفة كالهواء.. عارية في الضوء الليلي الأصفر الباهت. ولم تزل ناظرة إليّ غير ملتفتة إلى دنيا أو عابئة بها.. وكان وجهها عارياً من الزينة، طفولياً، مكتئباً قليلاً ويداها ممدودتان إلى جانبيها في جمود. انتزعت عيني انتزاعاً عن وجهها ملتفتاً إلى دنيا وهي تقول:

- أي دوار!

كانت قلقة، مضطربة آخذة رأسها الجميل بين يديها.. وقد أنتبه الجالسون قريباً منا إلى قلقها واضطرابها. اقتربت النادلة قلقة هي الأُخرى، فهي تسألها عما ألم بها، وكنت منزعجاً، ناظراً إلى زينغا بين اللحظة والأُخرى نظرة متوسلة، مستعطفة، وسمعت النادلة:

- إن لديك خاتماً رائعاً.

فنظرت إليّ حيث تتجه نظرتها فرأيت قرب قدحي خاتماً ذهبياً بديعاً، يلتم أعلاه على فص أزرق براق لا أدري أي حجر كريم هو! التفت ناحية الواجهة الزجاجية فلم أجد غير المطر والمارة. رفعت الخاتم معجباً به ناظراً إلى دنيا وقد ذهب عنها دوارها واضطرابها، فهي تبتسم لي معتذرة عن إزعاجها إياي كما تقول فمددت إليها يدي بالخاتم الرائع فرحاً، قائلاً:

- هو هدية مني إليك. لم أزل محتفظاً به منذ زمن بعيد، منذ طفولتي تقريباً.. هو هدية من جدتي وأنا أهديك إياه.. خذيه من فضلك وضعيه حول أصبعك الآن. بدا لي أنه ملائم تماماً لك.. فجربيه.

- لا أدري كيف أشكرك.

غير أنها تبدو كالمتحيرة:

- إنه غالٍ جداً كما يبدو.. ثم إنه هدية من جدتك فلماذا لا تحتفظ به أنت؟

إنه تذكار ثمين لا يهدى!

- أنا أهديك إياه.. جربيه من فضلك.

وكان ملائماً تماماً لإصبعها.

- أترين؟ هذا الخاتم لهذا الأصبع كما تقول الأمثال!

- مع هذا.. فهو هدية من جدتك.

- وأي فرق؟

ثم أخذت أتلو إيضاحي:

- كنت قد أخرجته من جيبي قبل لحظات.. وضعته على المائدة منتظراً لحظة مواتية فأدفعه في هدوء إلى حيث يقوم قدحك.. من دون أن تلاحظي فتقع عليه نظرة منك بعدئذٍ.. فتسرك المفاجاة:

ولم تبرح هي تتأمله بين آن وآخر ناظرة إليّ نظرة امتنان، وكنت أقول لنفسي: من أين جاء هذا الخاتم؟ ومن أتى به؟ كان شرشف المائدة غير مستعمل قبل حضورنا.. فقد جيء به نظيفاً، مكوياً مع أول الليل، ولم يجلس أحد قبلنا الليلة إلى المائدة فيتركه بدون أن ينتبه إليه. فمن أين جاء؟ وكنت أرفع قدحي بين الحين والآخر فلم ألاحظه.

وقد اختفت زينغا حالما وجدناه. هل هي التي وضعته بين يدي؟ ولماذا؟ ألم ترد إبعاد دنيا عني مثلما أبعدت صبية

المطعم؟ ألم تصبها حالما ظهرت لي عبر الواجهة بالقلق والبلبلة؟ ألم تزعجها بدوار مباغت؟ فلماذا تدفع إلى المائدة بالخاتم الشافي؟ هل هي امرأتان في امرأة؟ أم أن ثمة قوة خفية أُخرى تريد إبعادي أنا عنها مثلما تريد زينغا إبعاد دنيا عني؟ وما هي هذه القوة وأين تكمن؟ في زينغا نفسها أم في كائن آخر؟ ألم تمنحني الخاتم أو التعويذة فأبعدتها عن جليستي مقربة بيني وبينها؟ وأي قوة خفية لدى زينغا فتحس، وهي في تالن، بجلوسي إلى صاحبة جديدة فتصطنع لها إزعاجاً يقصيها.

- ماذا عني؟ ألم ينتزع أحدهم صورتها وأعادها بعد إفاقتها من غيبوبتها إلى الإطار المغلق المحكم؟ وتلك الأخيلة المتشكلة خضراً وصفراً من أدخنة الغليون.. ما هي؟ ألم يعثروا على زينغا نفسها في سيارة مقفلة لم يعبث بأبوابها أحد.. مع تلك الكتابة الغريبة الخضراء على زجاج السيارة من الداخل؟ وتكهناتها؟ ألم تخبرني منذ أيام ضاحكة في التلفون أنني أعيد قراءة الأبله؟ ألم تقل لي أيضاً، وهي في تالن، إنني ذاهب عمّا قليل إلى المخزن العائم لاتزود بالبيرة الألمانية؟ ألم تقل هذا تكهناً منها كما تقول.. أو كأنما هي لم تعلم بتصرفاتي إلا مصادفة أو تخاطراً كما يحلو لها أن تقول أحياناً!

- أين أنت؟

- أنا معك.

- هل يعجبك منظر المطر المنهمر؟

- كنت أنظر إلى هذه الحركة المتزايدة في الشارع.

- منذ قليل ونحن في العاشرة.. وقد خرجوا من السينما منذ لحظات فهم يسرعون إلى المترو أو إلى المعبر.

وقلت ونحن عند المشجب وقد أخذنا معطفينا:

- ما رأيك في أن نشرب قدح نبيذ آخر؟

- أين؟

- يسرني جداً أن أدعوك إلى قدح أخير.. عندي.

- أهو قدح واحد.. لا أكثر؟

- إن ما يهمني هو أن أجالسك.. فقد خرجنا مبكرين من المطعم، ولا ضرر من أن نشرب كأساً خفيفة أُخرى، ثم إن الطقس ممطر وكئيب... فأين نتجول تحت هذا المطر المتهاطل؟

- كما تريد.. ريثما تخف حدة المطر.

ابتدرتني المناوبة قائلة:

- ما زلت تنسى مظلتك كعادتك في البيت.

- فلماذا لم تذكريني بها؟

فأسرعت المناوبة الثانية تقول:

- طالما ذكرناك فلم تحفل بنصحنا!

وفي المصعد كنت قلقاً بشأن الصورة: ألم يكن من الأفضل أن أخفيها قبل أن أخرج إلى الموعد مع امرأة من الممكن أن تأتي معي إلى الشقة؟ ومن يدري أي أمر عجيب قد يحدث للصورة تحت أنظار امرأة ضيفة؟ وسمعت دنيا تقول لي ناظرة إلي نظرة ابتهاج وتودد:

- إنهما لطيفتان معك!

- أنا لم أزعجهما يوما بشيء.

- هذا واضح.. مع فتى طيب مثلك؟

كان الممر إلى البهو مضاء كما تركته، فرحت أضيء المصابيح الأُخرى في المطبخ. وعدت أعلق معطفينا داعياً دنيا إلى البهو. وأخذت أُهيئ المائدة والأقداح وهي تقول ناظرة إلى الرفوف المحملة بالكتب وإلى الإطار:

- أنت تعلق إطاراً خالياً.

- هي لوحة صغيرة.. أخذها صاحبها الفنان إلى معرضه.

- تاركاً إطارها هنا؟

- هي رغبته.. لا يعرض صوراً بإطارات.. أي صنف من الخمر يعجبك أكثر من غيره؟ إنني أشعر وكأنني لم أذق قطرة في المطعم؟

- وهل لديك أصناف من الخمرة؟

- أنا لا أقربها إلا أحياناً.. فلم تزل موفورة لدي.

- ليكن نبيذاً إن أمكن.. فقد ابتدأنا به هناك.

- كما تريدين.

وكنت أنظر إلى الإطار الفارغ قائلاً لنفسي: هي معها تعويذتها.. فأي تعويذة معي أنا؟ من يمنع الصورة من الظهور ثانية، في هذه اللحظة في إطارها مثلما ظهرت بعد اختفائها الأول؟ ومن يقول إنها لم تختفِ من قبل وأنا غائب عن الشقة؟ فإذا شاء لها المزاج أن تلهو وتعبث بي.. فتظهر وتغيب تحت

أنظار دنيا.. أو تفتعل أي لعبة أخرى معي فأي إحراج؟ بل أي فضيحة في الأصح؟ وأي تفسير عندي؟ هل أقول إنها الخمرة وتأثيرها؟ أأقنع دنيا أنها ثملة وهي نشوى لا غير؟ كان النبيذ وردياً رائقاً وغير شائع.. وقد سرت به دنيا فهي تتذوقه لأول مرة معجبة به، مادحة إياه..

ولم تزل مبتهجة بالخاتم البديع غير دارية أي خاتم مسحور هو! هو هدية جدة طيبة كما تظن.. أما أنا فلم يكن ظني إلا أنه هدية أهدتنا إياها قوة مجهولة ما. وكنت أمني نفسي متفكراً متذكراً أصابع جدتي الرحيمة: ولربما لم يكن إلا هدية جني من جان سليمان الحكيم؟ ألم تملك جدتي قديماً خاتماً مثله؟ ألم تكن في حوزتها فصوص كريمة هي في ظنها أحجار مسحورة تعود بالقربى المتوارثة السحيقة إلى كنوز سليمان؟ ما برحوا يطلقون على بعضها اسم الحكيم نفسه! أهو فص من خبايا صندوق جدتي جيء به الليلة إليّ؟ أم هو خاتمها المختار نفسه؟.

ورحت أتذكر الزرقة الشذرية القديمة المتلامعة لدى جدتي.. أتذكر المسبحة الطويلة البيضاء والزمرد والعقيق.. والقلائد العتيقة المخبأة في مكامنها فلا تخرج إلا في الأعياد والأعراس! ألم يكن بعضها تعويذة تطرد الأفعى المتسللة في الليالي الحالكة.. وجدتي نفسها ألم أرها منذ طفولتي محاطة بالهالة السحرية؟ بطلاسمها وقدرتها السحرية المؤثرة؟ وكنا نرتشف النبيذ الرائق ترشفاً.. والمطر يقرع النافذة قرعاً منتظماً كما يقال في القصص؟ ولم نكن آبهين للتلفزيون يعرض ما يعرض دونما صوت تقريباً، غير أننا كنا نفرج عن صوته الحبيس كلما راقنا أن نصغي إلى أغنية ممتعة. وكنت آخذ، بين الحين والآخر، وجهها

الناصع بين يدي مقبلاً إياه برفق. وقد ننهض إلى النافذة فنرقب المطر والأشجار تحت الأضواء الباهتة، ونصيغ أسماعنا إلى أصوات الليل الممطر، ولم يعد الإطار الفارغ، إلا إطاراً باهتاً اعتيادياً، عالقاً بخيطه إلى الحائط وكنت آمناً مطمئناً إلى الفص السحري وأنا منه في حرز حريز كما يُقال! وهي تدنو من مكتبي ناظرة إلى أوراقي المتراكمة:

- أهو عمل مرهق؟

- ليس كثيراً.

- وتعمل ها هنا يومياً؟

- يومياً.. أو أياماً في الأسبوع.

وقلت هامساً متوسلاً، ضاماً قوامها الأفروديتي الفائق الطرواة شاماً شذى شعرها الأصفر الناعم الكثيف:

- أيمكنك تمضية الليل هنا؟

- أنا أصحو مبكرة كطيور الغابات.

- وأنا أيضاً.

- وفيم استعجالك وأنت تعمل في البيت؟

- أصحو.. وأعاود النوم.

- ألن يزعجك استيقاظي ساعة الفجر.

- ستحلو لي رؤية وجهك الصباحي! كما قال اليوت للانسة فاليري.. مفسراً لها رغبته في خطبتها!

- بل سأنهض حذرة فلا أوقظك.

غير أنني صحوت وهي في المطبخ.

- سأمر على بيتي أولاً.. لأغير ثيابي وآخذ الروب.

- سأرافقك

- ولماذا؟ كلْ شيئاً معي وعد إلى الفراش.

السماء صاحية ذلك الصباح. وكنت منتظراً قرب المطعم الصغير المجاور.. فأبصرت بها قادمة بين النسوة المسرعات إلى المطعم في أرواب العمل الزرق القاتمة. وكان وجهها الناصع مشرقاً مبتهجاً عن بعد وكن يلوحن بأيديهن تحية لي.. تحت العقد الثقيل المتقوس بين المنزلين الهائلين عند أول الدرب الضيق المنفتح على البولفار. دخلنا إلى المطعم معاً فوجدناه ساعة انفتاحه طازجاً، فائحاً برائحة الأطعمة الشهية الطيبة. أخذ كل منا آنيته يمر بها بين العارضة والمطبخ.. مختاراً بغيته من الصحون المصفوفة في أماكنها.. دافعاً ثمنها إلى أمينة الصندوق النشطة العاملة خلف شباكها الصغير ضاربة كرات عدادها الخشبي.. اخترنا أنا ودنيا الوجبة ذاتها.. وأعدت أنا الآنيتين إلى الطاولة المثقلة بأعداد منها. تلك وجبة سريعة تتناولها العاملة العجلى وتعود إلى المصنع. وكنت أريد أن أمر على المخزن الكبير فأوصلت دنيا إلى أول الدرب المنفتح على البولفار، وانعطفت إلى المخزن القريب آخذاً طريقي تحت أشجار البولفار العالية. وكنا قد اتفقنا على الساعة الثامنة من الليل موعداً عند المدخل إلى بيتها.

وكنت مزمعاً أمري على شيء.. كنت أود إبهاجها بهدية أخرى تزهو بها بين الأخريات. اشتريت من المخزن حاجتي من الفاكهة والبيض وتركتها في الشقة. وعبرت إلى المترو المريح

تلك الساعة من النهار قاصداً المخزن العائم، ومن هناك ابتعت قنينة عطر وشالاً.. شالاً مخملياً بدا لي زينة للناظرين!

لم يزل إطار الصورة خالياً كما تركته أين هي الآن؟ أين هي زينغا؟ أفي غيبوبة ثانية.. أم هي القوة الخفية الأخرى شغلتها عني رحمة بي؟ وكنت أترجم الصفحة تلو الصفحة متجرعاً قهوتي السوداء المرة.. قائماً إلى النافذة بين الآونة والأُخرى جائلاً بنظرتي بين المنازل والأشجار.. متفرجاً على أطفال الروضة القريبة اللاعبين، تحت أنظار مرشدتهم، في الحديقة المشمسة! وسمعت التلفون يرن فالتفت إلى الحائط هي ذي صورتها وكأنها لم تغب لحظة عن إطارها الأصفر الباهت. وأسرعت إلى التلفون، هي زينغا تحييني من تالن! وتقول إنها لم تفق من نومها إلا الساعة منذ أول الليلة الفائتة وهي نائمة.. لم تصحُ من نومها إلا الآن! وهي باقية في تالن شهراً آخر وربما شهوراً عقاباً لي أنا الفتى العاق اللاهي لم أسأل عنها مرة ولم أتذكرها حتى ببرقية قصيرة!

- كنت البارحة لاهياً بالطبع على هواك.

- وأين هو الوقت وأنا مثقل بالعمل.

- ما دمت غائبة.. فأوقاتك لهو وفراغ.

- وما أدراك أنت؟

- أنت تدري أنني أدري؟

- عبر المدن والأبعاد؟

- وعبر الصحارى السبع والمحيطات الأربعة!

إنما قل لي ألم يزرك أحد غير تلك المرأة.. المرحة؟ لا أنكر

أن لها قواماً رائعاً، أنا لم أرها معك في حلمي إلا لحظات.. إلا أنني قادرة على التكهن ببقية السهرة في الشقة بعد المطعم.. ألم يزرك أحد غيرها؟

- من تقصدين؟

- أقصد شيخا متعكزاً أبيض حاجباه.. أو شيخة محدودبة. لم تعد الأمور واضحة لي.. كنت أحلم.. ألم يترك أحدهما عند المرأة هدية ما؟ خرزة أو خاتماً؟ خاتماً أزرق كالبحر؟

- وهل كنت أنا معك في حلمك فأعرف؟

- بل أنت معي في أي لحظة؟

- أي برنامج لديك الآن؟

- هي السهرة المملة نفسها في نادي الكتاب.

- ومتى أنتِ عائدة

- قلت إنني ماكثة هنا شهوراً.

- من يدري؟ قد تديرين الدفة في اتجاهنا.

- ربما.. فقد يغير شيخ البحارة الأعرج رأيه.. فلا يحول بيني وبين العودة إلى أحضانك وتزجية الليل مرحاً ومتعة!

- أهو أستوني صديق لي؟

- أنا أعني الضباب.. فلا يعيق المركب.

- أتعودين مبحرة؟

- أو على أكتاف طائرة ما من يعلم؟ طيب. لن أصرفك طويلاً عن عملك. أسمع.. أبعث لي على عنواني في تالن حزمة من

سجائرك. لم أزل افتقدها منذ أيام. لم يبق من رزمتك الأخيرة إلا علبة فارغة.

- ألن يستولوا عليها.. في الطريق؟

- لن يعبث بها أحد. لا تقلق.

وقلت ضاحكاً:

- أليس في مقدورك أن تمدي يدك فتأخذيها؟

- ولماذا وأنت ستبعث بها إلي؟

- ألم تعبري الأبحر والقفار إلى المطعم؟

- وهل هي إلا خطوة أو نصف؟

يبدو لي أنهما قوتان متعادلتان تقريباً.. قوة إبعادها عني وقوة إلحاحها علي.. قوتها الخفية وقوة الشيخ. أم هما قوتا الغليون والخاتم؟ وأين هو الغليون الآن؟ أهو معها: لن تتركه ما دام يحلو لها التدخين به من وقت إلى آخر. ولربما لم يكن إلا لعبة تتلهى بأخيلتها المجنحة السابحة في الهواء، لكن من يدري أي قوة كامنة فيه؟ وعدت إلى البهو بفنجان قهوة آخر ناظراً إلى الصورة المعلقة على الحائط في إطارها الأصفر الباهت هل تختفي الصورة المعلقة على الحائط في إطارها الأصفر الباهت باختفاء زينغا في غيبوبتها أو حلمها كما تزعم؟ فإذا دخلت دنيا الشقة.. أتظل الصورة في إطارها؟ على أي حال، لن أعبث معها فأثيرها طالما هي غير مؤذية لي. ستعاود اختفاءها بظهور دنيا في ما يبدو لي، فقد امتلكت قوتها الخفية هي الأُخرى بامتلاكها الخاتم السحري.. خاتم الشيخ أو خاتم جدتي. ألم أره شبيهاً بخاتمها المختار؟ إنني ظامئ منذ حين، وقد أرهقني تفكيري

بزينغا وغرائبها سأفتح لي علبة من علب البيرة الألمانية الباردة وأدخن لفافة. سأرسل لها اليوم رزمتها من السجائر المنشودة، سأمر على البريد في طريقي وأنا أتنزه بين أشجار البولفار في الخامسة أو بعدها بقليل. ومن هناك يقلني التاكسي إلى المركز. لن أمكث طيلة الوقت في الشقة حتى تحين الثامنة! سأبقى ساعة في المقهى الجانبي تحت الفندق الرمادي الغائم المشرف على الساحة الرحبة.. أو في أي مقهى آخر يحلو لي.. وأعود قبل الثامنة!.

لم تكن عاملة البريد إلا زينغا نفسها.. أو هذا ما خيّل لي. بل هي زينغا بعينها غير أنها كالمتنكرة، سأعابثها معابثتها إياي. هي زينغا بوجهها الطفولي وعينيها الذهبيتين وشفتها السفلى الممطوطة!

- لن تؤخروا رزمتي في ما آمل؟
- كن مطمئناً تماماً. لن يتأخر عندنا البريد.
- هي إلى تالن.
- هذا واضح من أول نظرة.
- وأنت؟ متى عدت من تالن؟
- أنا فعلاً عائدة من تالن.. إنما ما أدراك؟
- أدراني ما أدراني.. يا زينغا.
- وتعرف اسمي أيضاً؟
- وأعرف أي سجائر تفضلين.
- من أين تعرف هذا كله؟
- فراسة.. أو تكهناً.

- حقاً؟ أي فتى حاذق أنت!
- ما رأيك في أن نتجول غداً معاً؟
- ولماذا ليس اليوم؟
- كنت سأسر سروراً عظيماً.. إلا أنني على موعد مع صديق..
- بل قل صديقة.
- أنت مخطئة.. هو صاحب لم أزره منذ أمد طويل.
- وهديتك المخملية.. إلى زوجته؟
- وهل جئت حاملاً شيئاً ما عدا الرزمة؟
- واضح أنها ليست معك الآن، أي شال باذخ!
- وكيف عرفت؟
- كنت أزور صديقة لي في المخزن العائم.. ورأيتك هناك في معطف غير هذا المعطف.. وبلا قبعة.
- أيمكنني رؤيتك غداً؟
- بل اليوم.. وفي الثامنة تماماً.. بعد انتهاء عملي. . إنني على موعد مع صديقة غداً.
- في تالن؟
- في تالن أو غير تالن.. أي فرق؟
- بل ثمة فرق هائل! غداً في تالن وبهذه السرعة!
- ولأي شيء أقيمت المطارات في رأيك؟
- سأمر غداً عليك.
- أنصحك ألا تجهد نفسك، لن تجدني غداً هنا.
- ثم إنني سمعت أحدهم يهتف باسمي فالتفت فلم أر أحداً.

وعدت بعيني إليها فلم أجد إلا فتاة أُخرى تتفرس في وجهي وتسالني:

- بم يمكنني أن أساعدك؟

- كنت حاملاً رزمة إلى هنا.

- أين هي؟

- أخذتها عاملة أُخرى.

- فأطمئن إذن، لن يضيع شيء هنا.

شكرتها وخرجت إلى الليل، الطرقات في أوج زحمتها تحت السماء الحالكة المدلهمة، وفي الريح الواهنة نداوة ولذعة برد لن أرمي بنفسي في المترو.. بين أمواجه المتعاظمة ساعة ازدحامه، بل أوقف سيارة ما بعيداً عن موقف التاكسي المزدحم هو الآخر في هذه الساعة الأولى من الليل كانت الأضواء تتوهج ملء عيني على الجانبين من الشارع، والسيارة تنحدر بي انحداراً.. الزجاج مغلق اتقاء الريح الباردة فلم أشأ إزعاج الرجل بالتدخين. أوقفته عند الفندق الرمادي الغائم وهبطت والريح والرذاذ في وجهي. اتجهت إلى المقهى الجانبي تاركاً معطفي الخريفي بين يدي شيخ المشجب، ودخلت المقهى. هو مكتظ بالفتيات والفتية منذ الآن.. فانعطفت إلى المقهى الآخر المنفتح على الفسحة الصغيرة. هو أوسع وإن لم يكن أقل هدوءاً في أي وقت، وتزهدني به أيضاً الكثرة من الوجوه الأجنبية والبطء والتمهل الزائدان في حركة الندل الثقلاء. عدت إلى المقهى الجانبي قانعاً بأي مقعد خالٍ. فلن أمكث هنا طويلاً على أي حال. أخذت البونش والقهوة إلى آخر مائدة. فسهلوا لي

طريقاً إلى الكرسي الفارغ الوحيد وأنا أشكرهم واعتذر. لم أكن أعرف أي أحد منهم أو منهن فسرني أن أنفرد مع تأملاتي.. غير أن ثمة عينين.. عينين ذهبيتين تحدقان بي عبر المائدة الثانية أهي زينغا أيضاً؟ اقتربت الفتاة مني محيية، آخذة لفافة من علبتي، طالبة مني إيقادها وكأنما هي تعرفني أو هي صاحبة قديمة لي! شكرتني وابتعدت إلى مائدتها، ولم تزل تحدق إلي. هي زينغا بوجهها الطفولي وشفتها السفلى الممطوطة! ولمحت شيخ المشجب ماراً إلى المغاسل عن قرب. أنا أعرفه منذ زمن بعيد، منذ كنت طالباً في المراحلة الأولى.. غير أن له الآن حاجبين أبيضين كثيفين. ولم تزل العينان الذهبيتان تحدقان بي. وها هي تلتفت فجأة لحظة عودة الشيخ. وكنت أقول لنفسي: إنهما قوتان متكافئتان تقريباً، وأنا بينهما غير عابئ كما ينبغي لي أن أعبأ.. فأي حذر التزمته؟ وأي حيطة اتخذتها؟.

ولم تعد هي إلا فتاة أُخرى.. بعينين زرقاوين وبشعر قاتم قصير وأخذت أفكر في ما يدور من حولي، وأي إجراء علي أن أتخذ فلم أهتد إلى شيء سأرتدي معطفي وأخرج إلى الشارع.. إلى الليل! أتجول ساعة وأعود إلى الشقة قبل الثامنة. فأحمل هديتي وأنطلق إلى الموعد، اقتربت من المشجب باحثاً عن الشيخ بعيني: فلم أر له إلا حاجبيه الخفيفين، حاجبين لن يجتذبا نظرة من أحد، وخرجت إلى الشارع.. إلى الليل، الريح والرذاذ في وجهي والمارة يتسارعون.

لم أتاخر عن الموعد إلا بضع دقائق، فوجدت دنيا قرب المدخل تتحدث إلى جارة لها، اعتذرت منها وأسرعت إلي تحييني وتقول:

- إلى أين تريد أن نمضي الآن؟

- إلى أي مكان يعجبك.

وأضفت ماداً هديتي إليها:

- هي هدية صغيرة.. أرجو أن تقبليها مني.

- ألم تهدني البارحة خاتماً.. لم تكف النسوة عن تأمله إعجاباً؟

- تلك هدية من جدتي.

- من جدتك أو منك.. أي فرق؟

- أحملي اللفافة إلى البيت.. وسأنتظر هنا.

- طيب. لن أتأخر عليك.

اجتزنا الممشى بين أشجار البولفار إلى شقتي وأنا أفكر بالصورة. بيد أني فوجئت بشيء آخر فقد سمعت دنيا تقول حالما دخلت البهو مقتربة من الصورة المعلقة في إطارها الأصفر الباهت:

- يا لها من طفلة رائعة!

ولم أر أنا إلا الصورة المعهودة فقلت:

- أهي طفلة؟

- كيف؟ إنها طفلة. ألم تعرها نظرة اهتمام؟ هي طفلة في الرابعة أو الخامسة من العمر. وهي فائقة الجمال حقاً! غير إنها كالحزينة في ما يبدو، أنظر.. إنها متألمة قليلاً كمن أضاع لعبته - هي هدية منه.

وأنا لا أرى إلا الصورة المعهودة، صورة زينغا، أما دنيا فلم تزل معجبة بالرسم كما يبدو لي.. لم تر إلا زينغا في الرابعة

أو الخامسة من عمرها! ثم إننا اتجهنا معاً إلى المطبخ وهي تقول:

- سأضع الشال الفاخر على كتفي الآن.

- هل جئت به معك؟

- بالطبع.. في حقيبتي مع ثوبي المنزلي.

كانت النافذة في المطبخ مفتوحة فأغلقناها. كانت الريح باردة وكأننا في الشتاء! وهي تلف كتفيها بالشال لفاً مزهوة به وتقول:

- وأي عطر أهديتني اليوم!

- أنا لم أهدك شيئاً تقريباً.

- بل أهديتني أجمل ما تحلم به امرأة!

أعددنا المائدة معاً، ولم تختر هي إلا النبيذ الرائق عازفة عن الفودكا والكونياك، ولم تكن تدخن إلا قليلاً، مكتفية، أحياناً، بأنفاس من لفافتي ولم أفتأ أتأمل السنا والروعة تشع بهما يداها النقيتان وعنقها البديع.. مطيلاً النظرة المعجبة مني إلى وجهها الناصع.. أو إلى قوامها الأفروديتي كلما رأيتها قائمة إلى التلفزيون باحثة عن عرض أمتع.. أو إلى النافذة تفرج عن إغلاقها قليلاً.. أو إلى الكتب أو هي عائدة من المطبخ بقدح كونياك لي لم أزل أطلبه.. مشترطة إبقاء القنينة في المطبخ بعيداً عن يدي المتسللة. والريح تشتد هبوباً وتلاعباً بأشجار الحديقة العالية العتيقة.

التقينا عند المطعم الصغير المجاور ساعة الغداء.. واتفقنا على الذهاب في السابعة إلى سينما أُخرى غير سينما الحي..

حيث يعرض فيلم ما أنفك الناس يمتدحونه.. ولم يكن الليل ممطراً، فانحدرنا بعد الفيلم إلى مطعم عند ناصية السينما.

وكنت منفرداً بنفسي في اليوم التالي.. كنت منفرداً بنفسي مع الصورة والترجمة.. مع البيرة الألمانية الباردة. ومع الساعة الأولى من الليل كنت في مطعم من مطاعم المركز المتناثرة. ولم تكن النادلة إلا زينغا نفسها. أين هو الشيخ؟ من فوقي، تحت القبة الذهبية الداكنة، تتدلى الثريات الهائلة. وإلى جانبي، عند المائدة، تتقرب مني امرأة بوجه بوهة البومة العظمى كما يقول امرؤ القيس، مثقلة علي بتغزلها وتوددها. ولم تبرح زينغا حائمة من حولي وهي تكاد تضحك ضحكاً.. شامتة مني مسرورة بتورطي وابتلائي بالهولة المتحببة السكرى، ولعل غولة المطعم هذه لم تكن إلا هدية من زينغا.. تذكيراً لي بإهدائي الشال الباذخ إلى دنيا. ولم يزل المطعم ضاجاً بزعيق الموسيقى وبالسكارى اللاغطين كلما هدأت الموسيقى لحظة من الزمن لتختلط ثانية بأعوالهم وهذرهم.. صاخبة، مهموزة بالرقص المتزايد سرعة وهياجاً. طلبتني المرأة إلى الرقص فلم أشأ إحراجها باعتذار موهوم. وتصبرت راقصاً معها، محتملاً تغنجها وإعجابها برقصي كما تزعم!

وعدنا إلى المائدة وهي أكثر تقرباً مني. وقبل أن نجلس جاءتنا زينغا بزجاجة شمبانيا زاعمة أنها من مائدة أُخرى.. تلطفاً وتقديراً كما يحدث أحياناً في مثل هذه المطاعم بين مائدتين غريبتين، وسألتها عن المائدة فلم أتبين أحداً، وطلبت منها أن تفتح لهم زجاجة أُخرى.. تحية مني ورد معروف بمعروف! ودعتني الغولة ثانية إلى الرقص فاعتذرت منها طالباً إرجاء الرقصة

إلى الموسيقى التالية.. علها تقصر عن إلحاحها أو ترأف بي! ولحظة ابتدأت الموسيقى زعيقها ثانية أخذت بذراعي دونما رجاء إلى فسحة الرقص المتلاطمة كأمواج المتنبي! وكانت عينا زينغا الذهبيتان المشتعلتان لهباً وشرراً تضحكان شماتة. كنا في الثانية عشرة من الليل، وقد ثقل رأسي بالفودكا والشمبانيا.. وكان مثقلاً من قبل بالبيرة الألمانية الباردة. وبدأ لي المطعم الضاج متمايلاً بي، وأنا أكاد أترنح عائداً إلى المائدة من المغاسل. فوجدت زجاجة شمبانيا أُخرى على المائدة ونحن لم ننتهِ بعد من الأولى، هي زينغا تتحرش بي أتريد توريطي بالجارة الثملة؟ وكنت أنظر إلى القبة الذهبية الداكنة فأحسبها مائلة عليَّ بالثريات، مؤرجحة إياها بين أركانها المتباعدة. وكلما أردت المغادرة أبصرت عيني زينغا الذهبيتين ووجهها الطفولي المتوسل فعاودت الجلوس إلى حين أين هو الشيخ الضبابي؟ هل أغضبه مني دخولي المطعم الليلي دونما دنيا!.

ولم تزل الموسيقى نائحة متلاطمة بالراقصين، والمرأة المتضاحكة الثملة تجرني إلى الرقص.. ونحن نتجرع الشمبانيا تجرعاً، اقتربت النادلة مني قائلة لي كالهامسة:

- ستوصلها حتماً إلى بيتها.

ولم تفتأ الغولة تهذر متضاحكة مع امرأة أُخرى من المائدة القريبة قارعة كأسها بقدح الجارة المتفايض. قلت كالهامس أيضاً:

- ولماذا حتماً؟

- إنها ثملة.

- أنا أكثر سكراً منها.

- وتتركها في الشارع وهي لا تدري من أمرها شيئاً؟

- اقذفي بها من هنا إلى بيتها فتصل كما تريدين.

- هل هي في رأيك كرة من الكرات؟

وكانت تقهقه عالياً ناظرة إلى المائدة المثقلة بالقناني من كل نوع:

- عندنا ما يكفي قبيلة غجرية بأكملها!

فابتدرتها زينغا متفحصة السقف قائلة:

- أنا عندي لكما المزيد منها.. اعتمدي على صاحبك؟

فجأة امتلأت عيناي بالضوء اللؤلؤي الباهر.. كان جوف القبة مترعاً بالضوء الأبيض. لم تعد ذهبية داكنة، بل هي في مثل لون الكوكب الصباحي الأزهر! أسرعت ماداً يدي إلى جيبي وأخرجت نقودي منه قائلاً دونما اهتمام تقريباً:

- دعي البقية لك.

غير أني كنت أخاطب فتاة لم أرها من قبل. هي حقاً أخاذة الجمال مثل زينغا إنما هي قاتمة الشعر كغجرية ملتفة بازار الندل الأبيض.. وهي تبتسم لي متهللة الوجه وقد أفرحتها منحتي السخية! ولم أعد أنا مثقل الرأس كما كنت قبل لحظة: كنت صافي الذهن صفاء المياه المعدنية كما يقول مايكوفسكي! صببت الشمبانيا الرائقة في قدح نظيف وطفقت أترشف غير مكترث بالضجيج أو بجوف القبة وقد عاد ذهبياً داكناً مثقلاً بالثريات. وكانت المرأة السكرى منصرفة إلى الرقص. فرغت من

قدحي وخرجت إلى الشارع.. إلى الهواء الليلي الطازج وكان الطريق خالياً تقريبا والريح الناعمة تحرك أشجار الأرصفة بلطف، وأنا أخطو متمهلاً في اتجاه الفندق الرمادي الغائم من هناك ساركب آخر مترو!

وجدت الشقة مشتعلة بالأضواء! أنا لم أترك إلا مصباحاً واحداً مضاء هو مصباح الممر فمن أشعل الأضواء الأُخرى كلها؟ وأنا لم أوقدها كلها مرة من قبل مذ حللت في الشقة لأول مرة! وفوجئت أيضاً بباقة هائلة من الليلك الفواح الندي يطل الليل والأشجار العالق به! كانت الباقة مرتفعة تكاد تصل السقف. وكانت الصورة في إطارها الأصفر الباهت غير ناظرة إلي.. غير أن لها لوناً آخر.. لون الليالك الليلية الفائحة ملء البهو، وكنت أبحث بعيني بين الزوايا متفقداً أركان الشقة! وجعلت أطفئ الأضواء المتوهجة مبقياً على مصباح أو اثنين! دخلت المطبخ. وكنت صاحياً تماماً وكأنني لم أذق، الليلة، إلا القدح الأخير من الشمبانيا العذبة الفوارة! أخرجت من الثلاجة قنينة نبيذ أحمر قانٍ.. من صنف طالما استهوى زينغا أول تعرفي بها، وعدت إلى البهو الخافت ورحت أتجرع خمرتي منفرداً، رافعاً أنخابي في اتجاه الصورة الليلكية، شاملا جوانب البهو بعيني، وبين آن وآن يخيل لي أنني أرى الستائر تتحرك مائجة في هدوء.. والمصباح الخافت يتوهج أكثر فأكثر، ويعود خافتاً هادئاً من جديد. وكأن الرياح آخذة بالهبوب تدريجياً. وسمعت التلفون يرن رنيناً مختنقاً لا يكاد يُسمع تلاؤماً مع السكون الشامل. فرفعت السماعة قائلاً في ارتياح:

- إنني أسمعك.

- ألم أوقظك من نومك.

- كلا، لم أزل يقظاً.

- ألم تكفك أقداح المطعم؟

- كنت كريمة حقاً معي. إنما هي أقداح شراب!

- أنا لم أقل إنني كنت معك هناك.

- بل كنت تسقينني دونما انقطاع.

- أنا لم أعرف أنك كنت في المطعم إلا من خلال التلفون.

- أهي الغولة الثملة التي أخبرتك؟

ضحكت ضحكة ابتهاج وأسرعت تقول:

- طلبت رقمك الليلة أربع مرات فلم أجدك. ومن هنا عرفت أنك في المطعم. لم يكن الأمر صعباً كما ترى إنما قل لي من فضلك هل آنستك تلك السيدة المرحة كما أرجو وآمل؟

- يبدو أنكِ تعرفينها جيداً.

- ألم تقل منذ لحظة إنك كنت تتساقى الشمبانيا مع سيدة؟

- وهل ذكرت أنا الشمبانيا؟

- وأي شيء يُشرب هناك عدا الشمبانيا وغيرها؟

- دعينا من الشمبانيا وإخبريني.. أين تعلمت حرفة النادلات؟

- أنا أصلح عاملة في أي مكان يروق لي.

- أترين؟

- لم تزل تتساءل ولم تشكرني بعد!

- أهي منك أنت.. هذه الباقة المتطاولة حتى السقف؟

- ألم تعجبك؟

- يبدو إنهم لم يقطفوها إلا منذ برهة!

- وهنا تكمن قيمتها العالية.

- أنا أحبها ذاوية قليلاً.

- في المرة القادمة لن تتلقى إلا الذابل اليابس من الورد.

- اللهم زدني!

وأضفت متسائلاً:

- مع من أرسلتها إلي من تالن؟ إخبريني من فضلك؟

- وأي أهمية لهذا؟

- ما يهمني هو أن أعرف بأي مفتاح دخلوا شقتي؟

- لم يفتحها ولن يفتحها أحد. كن مطمئناً تماماً.

- أنا لم أقصدك أنت بل أفكر بالأيدي الأُخرى.

- ما بك؟ أتظنني أرضى بدخول أغراب إلى شقتك؟

- فمن فتح الشقة وترك الباقة؟

فأخذت تضحك ضحكتها المبتهجة غير مهتمة بإجابتي، فقلت:

- أنت لم تجيبي بعد.

- وعم أجيبك.

- من جاء بالباقة إلي؟

- أنا.

- ومن أين؟

- من أي حديقة أو متجر.. ما يهمك؟

- فلماذا غادرت.. ولم تنتظريني؟

- قلت لك لم يفتح شقتك أحد.

- وهذه الباقة الهائلة؟

- أي باقة؟ ما بك؟ ما ظننتك إلا مازحاً.

- أهو مزاح في رأيك؟

- ألم نكن نمزح؟

- طيب.. ألن تغيري رأيك؟

- في أي شيء؟

- ألن تفكري بالعودة قريباً؟

- لا أدري!

- ألم تعودي تريدين رؤيتي؟

- أنت تعلم أنني أريد.

- ففيم مكوثك في تالن؟

- أنت فتى متقلب الفؤاد.

- وأنت؟ ألم تتحولي من حال إلى حال؟

- أنا لم أحب أحد غيرك.

وأضافت ضاحكة:

- مذ وجدوني في السيارة المقفلة.

- ألم تتزوجي عن حب؟

- قلت لك أنا لم أحب أحداً غيرك. ألم أقلها مراراً من قبل؟

- طيب، وهل وصلتك رزمتي؟

- هي ذي علبة منها في يدي.. أرفعها شكرا لك!

- أتريدين مزيداً منها؟

- شكرا.. في وقت آخر.

ثم لم أعد أسمع إلا أصواتاً مبهمة مختلطة.. وانقطع الخط ولم تزل الشقة ملأى بالشذى الليلكي. غير أن الباقة المتطاولة المفتحة منذ لحظة لم تعد إلا حزمة صغيرة ذاوية تقريباً، وقد بارح الصورة اللون الليلكي. وكنت قاعداً إلى المائدة آخذاً رأسي بين يدي، ومن حولي تتماوج الأخيلة على الحوائط الأربعة.. أخيلة لم تكن واضحة لي، هي على الجدران تارة أو هي في داخلها كالظلال المترجرجة في المياه الصافية تارة أُخرى، وكنت أرتشف الخمرة القانية متفرجاً عليها كما يتفرج الجالس إلى شاشة السينما المنزلية. هي وجوه وأذرع صفر وخضر تذكرني بأخيلة الغليون المفضض.. إلا أنها تأخذ أحياناً اللون الليلكي الخابي، لون الباقة الليلية نفسها وقد تطاولت هائلة من جديد.. رطبة بأنداء الليل، غامرة الصورة باللون ذاته! انطوى الذبول عنها والتفت كثيفة متفتحة! وكأن الأخيلة تبتسم لي آخذة ملامح زينغا المتحولة المتجددة كما يقول أبو نواس. وكانت الريح تئن أنيناً ناحلاً في الحديقة النائمة المترائية بأشجارها وممراتها عبر الستائر المسدلة! وكان زينغا تلمسني بأصابعها المقصوصة الأظافر مترفقة، مهدهدة. والريح تئن والباقة تفوح متحركة حركة الأشجار المتمايلة عبر الستائر المسدلة الشافة عنها كالزجاج أو الماء البلوري! وكأنني في

العراء الليلي النائم استفرغ الكأس تلو الأُخرى، يعلق بي الطل وأوراق الليلك. وأسمع أصواتاً لا أدري ما هي، وأمد يدي إلى الأذرع الممتدة إلي فلا ألمس شيئاً منها، بل أحسني خفيفاً مثلما هي.. في مثل خفة الهواء!

3

أفقت في غرفة غير غرفة نومي. هي غرفة فندق كما بدت لي. وجواز سفري منطرح على الطاولة الصغيرة عن قرب. ورحت أتصفحه: هو جواز سفري الأخضر بعينه، وآخر تأشيرة فيه تنبئني أنني في تالن، وأنني قدمت إليها في الطائرة! قمت أتفقد الغرفة الرحيبة المطلية بلون الذهب هي غرفة فندق دونما ريب. أزحت الستائر جانباً وأطللت على المدينة والنهار الغائم. متى وصلت؟ لا أدري ربما قبل ساعات ما دمت ناهضاً تواً من نومي المريح! وجلت ببصري ثانية في الغرفة. على المائدة قنينة خمر أحمر وقدحان.. أحدهما نصف ممتلئ والآخر فارغ صقيل. وخلف المنفضة الكبيرة المتلامعة يلوح لي الغليون المفضض بنقوشه الغريبة.. وادعاً كالطفل النائم! لم تزل القنينة باردة إلا أنها نصف مترعة أيضاً. وكانت التذكرة الحمراء بارزة من جيب معطفي الخريفي، والحقيبة غير مقفلة فأنا في بيجامتي.. وقد اتضح لي أنني لم أنسَ أي شيء يلزمني تقريباً وأنا بعيد عن شقتي! تلك هي ماكنة الحلاقة، وها هي ذي فرشاة الأسنان وعلبتها فوق رف المغسلة الزجاجي. اغتسلت بالماء الدافئ. وارتديت ثيابي في انتظار أي طارئ. سرعان ما سمعت نقرتين واضحتين على الباب ففتحته إنها المنظفة تسألني السماح بترتيب الغرفة، فتركتها تدخل فقد حانت ساعة الغداء منذ حين. وكانت

ساعتي مطابقة لساعة الحائط ترى من غير توقيتها؟ أنا من دون أن أدري.. أم هي زينغا؟ وأنى لي أن أعرف وأنا لا أتذكر من رحلتي لحظة واحدة! كل ما أتذكره أنني كنت جالساً البارحة إلى الباقة الليلكية الهائلة، وأن زينغا قد تلفنت لي، وأنني كنت أرتشف الخمرة الحمراء القانية في بهوي الخافت المتماوج بالأخيلة.. ولا أتذكر متى غفوت. ترى كيف جئت قادماً بالطائرة.. ووصلت الفندق واتخذت تلك الإجراءات كلها من دون أن أدري؟ هي زينغا وغليونها المفضض القابع على مائدة الغرفة وادعاً كالطفل النائم! قلت إنني ذاهب إلى البوفيه وعائد عما قريب، اكتفيت هناك بفنجان قهوة وجرعة كونياك وعدت إلى الغرفة فوجدت زينغا مرحبة بي. كان معطفها مهملاً على الأريكة الصغيرة فأخذته أنا وعلقته قائلاً في فتور متعمداً اللامبالاة:

- يبدو أنني كنت مرهقاً جداً.. فقد استغرقت في الرقاد طويلاً وصحوت وكأنني كنت نائماً طوال يومين. من يدري؟ ربما كنت راقداً في فراشي منذ يومين بعد الرحلة المتعبة المفاجئة.. ولم أصحُ إلا قبل ساعة.

- كيف؟ أنت لم تصل إلا البارحة.. قبيل الفجر!

- ألم أتعبك باستقبالك المبكر لي.. ورحلتي المباغتة؟

- كلا.. وصلتني برقيتك في الوقت المناسب.. فحجزت لك في الفندق.. وقضيت البارحة ساعة ممتعة في مقهى المطار قبل وصول طائرتك.. عندهم هناك أبدع ليكيور في العالم.. كما تدري!

- أنا لم أشربه إلا مرة.. في القطار. كنت تنسين أن تأتيني بقنينة

منه.. رغم تذكيري إياك.. عناداً منك أو إهمالاً. وعلى أي حال.. ما رأيك في أن نهبط إلى المطعم ونتغدى؟

- ألن تجرب هذه الزجاجة أولاً؟ جئت بها قبل ساعة فوجدتك غير مستيقظ بعد. كان بابك مفتوحاً.. وكانت المنظفة هنا، فأمرتها أن تحضر في ما بعد، ثم إنني ذهبت ولم أصل إلا الآن.

- تاركة غليونك حارساً لي.

- قلت ربما يلذ له أن يدخن به.

- وأين هو التبغ؟

- ألم تعدني بإحضار صنف جيد؟

- لا بد أنه في الحقيبة. هو في الحقيبة حتماً، سأخرجه لك.

- في ما بعد.

لم يطل بنا المكوث في معطم الفندق المطلي بلون الغرفة الذهبي. كنا نريد أن نخرج إلى المدينة الغائمة المنطرحة بين البحر والغابة انطراح امرأة أتت الشاطئ لتسبح، وقد أوقفها الطقس البارد، ووجدت الوقت غير ملائم للسباحة، فاكتفت من الجولة بالتمدد على الرمال الساحلية معرضة أكتافها العارية للرياح البحرية المالحة.. أخذنا نتجول دونما هدف أولاً، ثم انحدرنا في الطرقات العتيقة الضيقة حيث يمكنك أن تسلك أي واحد من الممرين: ممر الخيل وممر المشاة وكان ممر الخيل خالياً منها بالطبع. قديماً كانت الخيول تسلكه بركابها فلا تعيق المارة أو تختلط بهم. وكانت الكاتدرائية القوطية قائمة عن قرب، مفتوحة ومعتمة فأخذنا نجوس بين أركانها الخافتة

وغرفاتها المظلمة تقريباً، وتحت القبة العالية يقف فوق قاعدتها تمثال الملك السويدي ممتطياً جواده، ملتفاً بدرعه الحديدي رافعاً حربته الطويلة، وبين الاضرحة الأُخرى يعلو ضريحه الحجري بادياً كالتابوت.. بينما الشيخة الحارسة تتهجد بترتيلتها المهموسة عند الآنية الصفراء القاتمة المنبسطة فوق عمودها الصخري الواطئ، حيث يلقي الزوار صدقاتهم فيسمع رنينها في السكون المطبق وكنت صامتاً لا أجرؤ على التلفظ بكلمة.. رهبة وتأملاً. وكان الضوء الخابي في أركان المعبد هائماً كالأرواح كما يقول توفيق الحكيم.

ثم أتعبنا السير في الطرقات وأتعبني أنا أيضاً الشذى الليلكي الفائح ثقيلاً متعاظماً تحت الشرفات الخفيضة المائلة بالخيول الحجرية اللاهثة كما تلوح لي! فدخلنا أول مقهى عند أول ناصية واتجهت زينغا إلى المرايا العالية تحت أضواء الممر الشفقية الحمر والزرق... بين الجدارين المزوقين المتوامضين غير أنها لم تعد في الممر.. هي في المرايا نفسها، في العمق منها، في العالم المرآتي الخلفي الخالي إلا منها! تبتسم لي وتدعوني! وأنا واقف لا أرى ظلاً لي في المرايا.. أو ظل هذا الكهل المتانق المعني بربطة عنقه وشعره.. أو ظل هذه الفتاة المسرعة بارتداء معطفها... وزينغا تبتسم لي وتدعوني. وكنت متحيراً بينما الآخرون يلقون النظرة العجلى على جمودي وحيرتي ويبتعدون. إلا أن واحداً منهم.. شيخاً بحاجبين أبيضين أخذ بيدي متلطفاً قائلاً:

- من هنا.. من فضلك.

وكنت أنظر إليه متحيراً وهو يقول:

- ألم تكن آتياً إلى المقهى؟

- بلى.. إلى المقهى.

- هو ذا المشجب. فاترك معطفك عندهم واصعد.

كان السلم إلى قاعة المقهى عريضاً منفتحاً لي وكنت أتقدم منه غير ناظر إلى المرايا، مرغماً عيني الزائغتين على التوجه إلى المنتصف منه دونما التفات. ودخلت القاعة الفسيحة الطويلة باحثاً بعيني عن الشيخ الأبيض فلم أجده.. أو أنني لم أتبينه في وضوح وقد حالت الأعمدة بيني وبينه، وكانت القاعة مكتظة والحركة فيها دونما انقطاع. وبينما رحت أبحث عن كرسي خالٍ لي برزت زينغا فجأة من بين مجموعة من الصبايا الواقفات... يضحكن نشوة ومرحاً ويهتفن بها: إلى أين.. وهي تدنو مني ملتفتة إلى الصبايا، ضاحكة مثلهن، قائلة لي، وقد أمسكت يدي بقوة ناظرة في عيني:

- أين كنت؟

- كنت أبحث عنك.

- هنا مقعدان محجوزان لم يأتِ صاحباهما.. لنسرع إليهما.

- علام هذه الزحمة كلها؟

- هو عيد من أعيادهم!

لم أجد عند المائدة إلا فتى منصرفاً إلى فتاته المتدللة لم نأبه نحن لهما ولم ينتبه هو إلينا أما جليسته فلم تزدد إلا تغنجاً. وكنت أتلفت بعيني القلقتين بحثاً عن الشيخ الأبيض.

- عمن تبحث؟ ألم تجدني بعد؟

- غريبة هي هذه الأعمدة!

- وأين هي الغرابة فيها؟

- هي صقيلة كالمرايا!

وكنت أقول لنفسي: "ألم تخرج زينغا من أحدها قبل لحظات؟" ثم جاءت النادلة بالشمبانيا الباردة. النوافذ الطويلة ضيقة، والمقهى يبدو كالغائم بالضوء الأحمر الكابي. وأنا أتطلع إلى الأعمدة قائلاً:

- كأننا في معبد إغريقي.

- فأي قربان جئت به إليه؟

- وهذه الشمبانيا.. أليست قرباناً؟

- لكننا نسفحها في جوفينا.

- وأين تريدين أن نسكبها؟

- على أعتابه كما ينبغي أن تهرق.

- سيضحكون منا.

- إذاً، سنكتفي بسفح شيء منها تحت المائدة.

- كلا.. لا تفعلي.

- لن يلمحنا أحد.

- إن للأعمدة أعيناً.

- دعك منها.. فهي لا ترى ولا تسمع.

- بل فيها ما فيها.

- وأي شيء فيها كما تظن؟

- أطياف داخلة خارجة!

- هي لعبة الضوء والظل.. وانعكاس الأشياء صورا كما تعلم، إنما قل لي: أين ترغب أن نتعشى الليلة؟

- في مملكة الظلال.

- هل في تالن مطعم بهذا الاسم وأنا لا أعرفه؟

- لن يدخل إليه إلا من مدخل المرايا.

- وأين هو هذا المدخل؟

- وأسرعت مضيفة، ناظرة إلى عيني:

- حبذا لو أمضينا السهرة في مطعمك هذا!

- كنت أسرع خطوة مني إليه.

- حقاً؟ فلماذا أحجمت ولم تتبعني؟

- لم أحجم.. بل كنت متردداً.

- إذاً، أضعت أروع فرصة يا صاح!

- ألن تتكرر؟

- لن تتكرر الفرص الذهبية كما يحلو لك!

كنت مرهقاً بعد الجولة الطويلة.. غير أنها الشمبانيا فأنا أحس بالنشوة والارتياح يتسللان إلي تسللاً أو يدبان دبيباً كما يقول أبو نواس! "ترى أين اختفى الشيخ الأبيض؟ ولربما لم يظهر إلا برهة واحدة.. برهة ابتعاده بي عن المرايا الخالية إلا منها.. أهو الآن آخذ أي هيئة أُخرى مترقباً نجدة جديدة لي! من يدري؟" ورحت أبحث بعيني في الأوجه والأعمدة المتلامعة

أتعرف هي أين هو الآن؟ ألم تلمحه في الممر مقترباً مني.. مرشداً إياي إلى القاعة؟ حتماً هي تعرف أين هو الآن، وقد أبصرت به لاحقا بي مثلما أبصر بها داعية ضيفها إلى الخفايا والمجاهل فأدركه قبل أن يتوارى في لعبة الضوء والظل كما تزعم! هبني تبعتها ودخلت مخترقاً الزجاج مثلما يخترق الظل الماء.. مثلما دخلت هي.. فأي ضرر يحيق بي ما دمت معها؟ ولعلها لم ترد إلا تسليتي والترفيه عني، متجولة بي في مدائنها الخفية الأُخرى كما يتجول الدليل بالسائح متوقفاً به عند المبنى أو غيره" . وسمعتها تقول كالهامسة:

- إنهم يعرضون أغنية جديدة من تلحيني الليلة.

- وأين؟

- في القناة الأولى.

- لنمضِ إلى الغرفة فنسمعها في هدوء.

- ولماذا؟ سأغنيها لك عندما أعود.

- بعد أشهر كما تقولين؟

- من يعلم؟

- لا أريد أن تسمعها إلا مني.

التفت من حولنا المجموعة نفسها من الفتيات المرحات.. يقترحن تكملة السهرة في شقة محتفلة ما، فاعتذرت زينغا متحججة بإرهاقي ورغبتي في النوم مبكراً، فما ازددن إلا إلحاحاً. فلم نجد بداً من أن نُذعن. واتفقنا على أن نخرج معاً فنركب سيارتين. كان المقعدان الآخران خاليين، فقد بارحهما الصبي وجليسته من دون أن ننتبه.. فانضمت إلينا فتاتان من

المجموعة. كان انتزاع السدادة عن القنينة مثيراً في الأنفس المرحة حبوراً أعظم وأعم! ولم تفتأ الأقداح تقرع مع كل نخب، وقد شمل الابتهاج أرجاء القاعة، وخفت النادلات إلى هنا أو هناك وقد ازددن همة وحركة! ولم نخرج إلا في العاشرة أو بعدها بقليل.

لا أدري أي سيارة ركبت مع زينغا أو غيرها؟ كنت خارجاً من المقهى كالنائم.. وغفوت حالما وجدتني في السيارة متكئاً بكتفي إلى ظهر المقعد المريح.. وصحوت وهن يضحكن ويهتفن:

- وصلنا.. ها هو المدخل إلى البيت!

لم تعد الحفلات المنزلية المكتظة مبهجة لي. فلم أتحدث أو أشرب إلا ترضية لهم. وكنت تائقاً إلى الخروج من الغرفة المزدحمة إلى الهواء الليلي المنعش، والجلوس على المصطبة الليلية قريباً من البحر.. أصغي اليه وأتأمله مظلماً، منقطاً بأضوائه الضئيلة المتباعدة.. أو أسمع هدير الأمواج كالضجة الخافتة القصية! وهو عندي ليلاً أو في المنتصف من الليل أكثر روعة واحتفالاً منه منكشفاً، ظاهراً في النهار! هو في الليل كالمرأة النائمة المتراخية تحت غمرة من الظلال، يزيدها امتدادها الرخي بطولها كله، في العتمة الخافتة، إغراء وفتنة.. وهي منطرحة في السمرة الليلية.. لا ترى في وضوح، فيخيل لك أنها أكثر اتشاحاً بغموضها وسحرها الخفي، حيث تأخذ ملامحها اسمراراً لا يدرك وتباعداً وخفاء يزيدانها جاذبية وبداعة.. بينما المرح المخمور واقتراح الأنخاب وهذه الرفقة

الملحة تجعلني راغباً بالطرقات الليلية الخالية الهادئة، والسير منفرداً تحت أشجار الأرصفة.

انسللت إلى الشرفة العالية المطلة على المدينة والليل، وكان بابها مفتوحاً طرداً للدخان و طفقت أتأمل وضعي الغرائبي "أين أنا وكيف طرت من مدينة إلى مدينة وأنا لا أدري.. هكذا فجأة من نافذة غرفتي إلى غرفة فندق في عاصمة أُخرى تحيط بي الأحاجي والكمائن الخفية؟ أين هو المخرج إلى راحة البال؟" .

- أعرف أنك مرهق.. سنبرح المكان دونما إبطاء.

- ألن يوقفونا بنخب آخر؟

مدت شفتها السفلى الممطوطة كالهازئة من تذمري:

- وما يهم؟ نشربه ونخرج.

فاجأنا المطر الغزير ينهمر انهماراً حالما خرجنا.. فالتجأنا إلى المدخل نحتمي به من البلل كما يقول إليوت! وكان الشارع مقفراً إلا من سيارة آتية من بعيد، إلا أنها لم تتوقف.. وكنت واقفاً، الآن، تحت المطر غير آبه له، فاندفعت زينغا جارة إياي إلى المدخل ضاحكة، متكهنة بانقطاع الأمطار عما قليل. ولم يكن إلا وابلاً عابراً كما قالت فخرجنا إلى الشارع المتلامع بالبلل منتظرين اقتراب سيارة ما.. غير بعيدين عن المنزل فقد يداهمنا المطر مرة أُخرى. إلا أننا لم نقف غير بضع دقائق وهبطنا من التاكسي والمطر أخذ في الهطول فأسرعنا إلى الفندق ضاحكين. وكانت الغرفة مظلمة فأوقدنا الضوء. ولم يزل الغليون منطرحاً على المائدة وادعاً كالطفل النائم!

- سأخرج التبغ من الحقيبة.

- كما تشاء. لكنني لن أدخن سوى لفافة واحدة.

- ألا يروقك التدخين بغليونك؟

- كلا.. أنت مرهق لن أثقل عليك بأدخنته..

- بل تلذ لي رائحة غليونك في الليل.

- دخن أنت به ما دمت راغباً.

- لا نفع في تدخيني به.

- وأي فرق؟ ألن تنبعث منه إلا الرائحة نفسها؟

- إنما هي أنفاسك تمنحه طعمه وغرابته.

- دع الغليون جانباً وقل لي من فضلك: هل معك في الحقيبة بيجامة زائدة؟ ما كنت أنوي المبيت هنا الليلة. لم أرد مضايقتك.. فلم أحمل معي غير فرشاة أسنان ابتعتها من هنا تحوطاً.

- أظن أن ثمة بيجامة ثانية.

- فأخرجها من فضلك.. إن لم تكن واهماً.

- بل ها هي ذي.

- شكراً، سأرتديها في الحمام.

وكنت أقول وهي عائدة في البيجامة:

- لا شيء في الثلاجة غير المياه المعدنية.

- ألم تحضر معك شيئاً؟

- بل أحضرت.

- ففيم اهتمامك بالثلاجة.

- أنا لم أحضر إلا الكونياك.. وكنت أود أن ألقى نبيذاً.
- لن نشرب إلا قدحاً.. ليكن من أي نوع.
- طيب.. سافتح الكوة قليلاً.
- وأنا سافتح زجاجة الماء المعدني.
- انظري.. لا أحد أو سيارة في الشارع.
- لن يلبثوا إلا قليلاً.. وسيتحركون بعد حين.
- أيفيقون مبكراً بعد سكرة العيد؟
- أنا أعني الهررة.. والشيوخ البيض.
- وهل تلوح لك وجوههم من هنا؟
- وفي وضوح تام.
- وتلوحين لهم بيديك.
- أنا أنتظرهم عادة في الغابات.
- في مثل هذه الساعة من الليل؟
- وأي فرق؟
- وكيف ستذهبين إلى هناك؟ توقفت الترامات عن السير. وكفت الحافلات عن الحركة.. وقد أثقل النوم أعين السائقين.
- ومتى أعوز الطير ترام أو حافلة؟
- وتطيرين أيضاً.
- كأي عصفورة بين العصافير!
- لم تبرح الطيور أوكارها بعد!
- أنا لي أوكار وأسراب أُخرى.

- وتقطعين بحملك الطرق بين العاصمة والأُخرى في أقل من غمضة العين أو انفتاحتها.. كما يقال؟

- ما بك؟ ألن تكف أخيراً وتدعنا نشرب؟

- ألم تتحدثي عن الهررة والشيوخ البيض؟

- أنا لم أقل إلا مزاحاً.

- أو.. لعبة في المرايا؟

- دع الشارع المقفر للمطر والريح.. وتعالَ إلى هنا.

- بل تعالي أنت.. وتأملي ظل الغرفة عبر زجاج النافذة.

- أنا أراه من هنا في وضوح!.

4

أيقظني الجرس من نومي العميق مثلما أيقظ الجوع أهل الكهف من نومهم "كما قرأت في إحدى الروايات" وسرت متثاقلاً إلى الباب. هي جارتي تسألني علبة ثقاب. اختفى ثقابها كله ولم تعد تتذكر أي شيء عنه.. "ربما أنا واهمة، فلم أشتر اليوم حزمة كاملة منه!" هو معطفي بتذكرة الطائرة العائدة بي في جيبه.. وحقيبتي منفتحة خالية.. فقد أخرجت منها كل شيء كما يبدو لي. ووجدت الجواز فوق التلفزيون فتصفحته. كنت حقاً في تالن! ها هي الأختام والتأشيرات تؤكد أنني لم أبق في تالن إلا يوماً.. أو نهاراً وليلة كما تقول الأختام وأنا أتذكر كل شيء عن الفندق والجولة في المدينة المنطرحة عند البحر. إلا أنني لا أتذكر شيئاً عن الطائرة أو إجراءات السفر والمطار! وكأنني قمت بوثبة من شقتي إلى غرفة الفندق.. ومنها إلى شقتي من دون أن أدري! كنت عطشاً ففتحت الثلاجة طلباً للبيرة الألمانية الباردة.. فبدت لي قنينة الليكيور الأستوني بين القناني الأُخرى. لم تنسَ زينغا تزويدي بها في آخر لحظة "وأنا نائم هناك!" الساعة الآن هي السادسة مساء كما تقول ساعة المطبخ، ولم أكن جائعاً بعد. لا بد من أنني تناولت غداء جيداً في الطائرة!

لم يزل البهو فائحاً بالشذى الليلكي الواهن. إلا أن الباقة الليلكية الليلية لم تعد قائمة فيه، ثمة أوراق يابسة منها تتناثر على الأرض والمائدة.. "أين هو الطريق إلى النور؟".

الستائر منفتحة عن الكوة المواربة. سأستحم وأرتدي ثيابي تهيؤاً. من يدري من سيزورني الآن؟ وها أنا أرمق الصورة المعلقة جالساً على الأريكة آخذاً بين يدي مجلة ما. انطوت الرحلة كصفحة مترجمة، وتوارى الإرهاق بعد الماء الدافئ، وأنا أسترجع كل لحظة من جولة تالن. وكنت أريد أن أخرج إلى الشارع.. إلى الليل فقد ألتقيها هناك في المقهى الجانبي من الفندق الرمادي الغائم. من يعلم؟ وقمت لافتح علبة بيرة ثانية ودخلت المطبخ.. فأرجعني رنين التليفون. أجل! هي دنيا تحييني وتسألني أي شيء أنا عامل الآن؟ وهل أبعدتني عن عملي؟

- منذ ساعتين وأنا بلا عمل.

- وهذه الرفوف المثقلة بالكتب؟

- للكتب وقت.. وللبيرة وقت!

- أيمكنني رؤيتك الآن؟

- ممكن.. إنما بعد نصف ساعة.

- ألم تعد راغباً بالمطعم المقابل؟

- ولماذا هنا؟

- هو أقرب.. وأهدأ.

- وأين أنتظرك؟

- عند المعبر.

وصرت اتطلع عبر النافذة. حبذا الرذاذ! ثم عدت إلى الأريكة.. إلى المجلة والبيرة الباردة. فجأة خرجت من صورتها غير ناظرة إلي وأنا جالس على الأريكة الطويلة أتصفح المجلة،

وعلى الطاولة الصغيرة بيرتي إلى جانبي. وهي في ثوبها الأصفر الذي رأيتها فيه ليلة ألتقينا أول مرة، متشحة الكتفين بشال أخضر. عبرت البهو متباطئة، غير مسموعة الخطى.. وعادت من المطبخ حاملة علبة بيرة وقدحاً. اتخذت المقعد الكبير المواجه لي منعزلاً لها غير ناظرة إلي.. تتجرع بيرتها متصفحة مجلة أُخرى لا أدري ما هي، الإطار الأصفر الباهت خالٍ من صورتها وأنا أقول لنفسي: "هي ليست أكثر من صورة فلا تقلق!" فإذا بها تقول:

ألم تجد صنفاً آخر غير هذا الصنف من البيرة؟ ألم تسأمها؟ منذ عامين وأنت تأتي بأثقال منها من المخزن العائم! هلا كففت عن التحديق إلى وجهي وكأنني شبح أو طيف؟ أنا زينغا.. ألم تعرفني؟ ألم نكن معاً فجر اليوم في مطار تالن؟.. فاتني أن أسألك عن سهرة البارحة. يبدو أنها لم ترقك كثيراً كنت منصرفاً عنا، منفرداً بتأملاتك وخواطرك في الشرفة. ربما هو الليل الغائم المدلهم ورائحة البحر.. ربما هي الريح الهابة عبر البلطيق.. اجتذبتك أستونيا فتنة ولطفاً! فيم هذه التحديقة المستغربة؟ ما أنا طيف.. أنا زينغا.. خطيبتك! ألم تخطبني فأجبتك أنني لك.. مع أنني متزوجة؟ قدم لي لفافة من فضلك. أنا لم أحضر غليوني معي إهمالاً مني.. وتخوفاً من أن تتطير منه. لا تنظر إلى الساعة وأنا في ضيافتك. لا يجمل بنا النظر إلى الساعات تحت أبصار الضيوف. أم أنك على موعد؟ لا تقلق لن أؤخرك عن الإسراع إلى موعدك. ليس المعبر بعيداً. هو خلف المنزل، أنا لم أجئ لأحيل بينك وبين امرأة أُخرى، ولماذا أُحيل؟

- متى عدت من تالن؟

- منذ لحظة. ألم أقل لك إنني أطير أحياناً عصفورة بين العصافير؟

ألم تعد تذكر تشبيهك إياي بعصفور نار؟ هكذا أنا جئت بلا معطف.. بلا حقائب طائرة بشالي هذا، أنا أمزح بالطبع. أوصيتهم أن يحملوا حقائبي إلى المطار ونحن في السهرة. وركبت أول طائرة بعد طائرتك. أحببت أن أباغتك بحضوري دونما تلفون. أما معطفي فهو هنا.. على المشجب قرب معطفك. قم وأنظر إليه وتمعن به فتقتنع، أما زلت غير مقتنع بوجودي. ناسياً أنك فتحت لي الباب بنفسك؟

وأسرعت إلي آخذة بيدي، ومضت بي إلى الممر فوجدت معطفها الأخضر الداكن معلقاً على المشجب، وجعلتني أتلمسه قائلة:

- هو ذا.. لم يزل ندياً بالرذاذ.

- لنعد إلى البهو.. فيم وقوفنا هنا؟

- لم أرد إلا إقناعك.

- هل تودين شيئاً آخر غير البيرة.

- شكراً لن أؤخرك.

- كلا. سأتلفن لأصحابي ونتفق على موعد آخر. إسبقيني إلى البهو من فضلك وأكملي بيرتك. سأحضر قنينة وأقداحاً أُخرى.. وأعد المائدة إعداداً لائقاً بمقدمك. لن أتأخر عنك. كنت أتوقع حضورك فعلاً أنا أتوقع حضورك المبهج بين لحظة وأخرى!

وأضفت ضاحكاً:

- أنا أيضاً من المتكهنين. لم أتعلم الكهانة منك.. بل من جدتي. كم أجلستني هي إلى جانبها وأنا طفل! وهي تقرأ كتبها الصفر العتيقة.. تفك طلاسمها مسترسلة في تراتيلها وطقوسها تحت ضوء قنديلها السحري الأخضر.. ورائحة البخور العابق تفوح من الجمر المتاجج وتملأ الخيمة.

وعدت من المطبخ ناسياً أن أتلفن لدنيا. كانت زينغا متمددة على الأريكة الطويلة مغمضة العينين كالناعسة أو المرهقة. ورجتني أن أدع الآن تهيئة المائدة وأجلس على المقعد، حيث كانت جالسة هي قبل لحظات أنها نعسى وتريد أن تغفو قليلاً.

- ولماذا هنا؟ الأفضل هناك في المخدع.

- لن أغفو إلا دقائق. أنا مرتاحة هنا. لن يتركني النوم في فراشك ألا بعد ساعات.. هنا أفضل.

جئت بعلبة بيرة أُخرى لي محاذراً إقلاقها بخطوي.. غير عابئ بقنينة الخمر التي وضعتها على المائدة منتصبة بين القدحين.. مرجئا إعداد المائدة إلى حين نهوضها كما رجتني هي، جلست هادئا على المقعد الكبير مثلما طلبت مني، حيث كانت جالسة هي قبل انتقالها إلى الأريكة الطويلة.. مع أن في البهو مقاعد أُخرى غيره. كانت علبة سجائري على الطاولة الصغيرة القائمة قربها. فأردت النهوض في هدوء لآتي بها وأدخن. وكانت الكوة المواربة، قبل حضورها، مفتوحة كلها، لا أدري من فتحها. أهي الريح أم زينغا؟ أردت أن أنهض فلم أقدر على القيام. وجدتني عاجزا عن مغادرة المقعد، فلم أعر

الأمر. أي اهتمام.. غير رغبتي بتدخين لفافة "وعلام أهتم وهي نائمة ها هنا.. على مقربة مني؟ ستصحو عما قليل وينقشع السحر مع أول نظرة حانية منها. ولعلها لم ترغب إلا بإبقائي بعيداً عن السجائر فحبستني في المقعد فلا أزعجها بالدخان وهي غافية. غير أن الكوة مفتوحة في اتساع.. ألم تلاحظها؟ أم هي خائفة من أن اتسلل إلى الموعد في أثناء رقادها؟" أخذت أتأمل وجهها الطفولي بشفته السفلى الممطوطة.. وأجفانها الطويلة المسبلة وهي نائمة، مستغرقة في النوم. ولم أبرح متأملاً وجهها، مرتشفاً البيرة والوقت يجري ويمر.. هي السابعة تقريباً، والريح تحف حفيفاً خافتاً في أشجار الحديقة العالية العتيقة والليل يرذ.. "من أين جاءت هذه الفراشة البيضاء؟" لقد دخلت من الكوة المنفتحة بالطبع. فمن أين تجيء إلا منها؟ الفراشة تحوم مبتعدة، مقتربة مني وأنا أتطلع إليها مبتهجاً قائلاً لنفسي: "هي منحة تبعث بها الحديقة الفائحة تحت نافذتي تقريباً.. منحة خفيفة كأنفاسها الناعمة المنبعثة إليّ مع الرياح الطيبة، فجأة وجدتني ناهضاً عن المعقد، ناسياً عجزي عن القيام، أخذت علبة السجائر وخطوت هادئاً محاذراً.. متجهاً إلى المطبخ لأدخن هناك.. بعيداً عن إقلاق زينغا النائمة والفراشة الحائمة بأنفاس لفافتي وسمعت الباب يقرع: هي جارتي آتية بعلبة الثقاب.

- أعذرني.. لم أتذكرها إلا الآن.

- أبقيها عندك.

- ألن تحتاجها.

- عندي غيرها.

وكان التليفون يدق.

- لن أؤخرك عن الرد.

- هي زينغا تتلفن لي من تالن وتقول:

- أنا لا أسمعك في وضوح.. أي هدير وأي ضجة!

سرعان ما انقطع الخط. فأعدت السماعة، وخطوت إلى البهو غير محاذر هذه المرة. فلم أجدها هناك. كانت الشقة خالية منها ومن الفراشة. ولم يعد معطفها معلقاً على المشجب مثلما كان. اختفى المعطف اختفاء زينغا والفراشة معاً. وكانت الصورة في إطارها الأصفر الباهت غير ناظرة إليّ، والساعة تقترب من النصف بعد السابعة اقتراباً. ارتديت معطفي الخريفي وأخذت قبعتي وهبطت إلى الليل.. إلى دنيا.. فرأيتها تخرج إلي من كشك التليفون بوجهها الناصع خروج أفروديت من الصدفة:

- أرجو المعذرة. لم أستطع الحضور إلا الآن.

- اتصلت مرتين وتلفونك مشغول.

- لم أحصل على رقمك إلا اللحظة.

وأضافت وقد عاودها الابتهاج:

- أهي مخابرة طويلة؟

- بل هو ضيف طارئ.. ظل يتلفن ويتلفن ولم يخرج إلا قبل لحظة.

وكنت أفكر بانتظارك إياي هنا.. مغتماً قلقاً. لم أستطع بالطبع إخراجه بالقوة وهو يتحدث ويتحدث في التليفون:

- ما دام ضيفاً.. فلا عتاب.

- لن تدخل بيتي ضيفة عداك.

- من يعلم؟ إنهن يحمن كالفراشات!

كانت آخذة بذراعي خالية البال، فلم تقلها إلا تندراً.

- لم تزرني إلا فراشة حديقة.

- حقاً! أنت محظوظ.

- فهل ندخل المطعم الآن؟

- بل نتجول قليلاً.. ثم ندخل.

لم يكن المطعم مزدحماً بعد.. فاخترنا مائدة الواجهة، وكان الخاتم البراق يشع في يدها النقية إشعاعاً وهي تسكب لي ولها من زجاجة الماء المعدني. وكنت أفكر بزينغا وصورتها: وهي لم ترد بخروجها من الصورة إلا تأخيري عن دنيا. هذا واضح وضوحاً تاماً لي "وهل تخرج أيضاً قبل أي موعد آخر لي مع دنيا؟ فإذا كنت في الشارع أو المترو.. فهل تلحق بي إلى هناك؟ والليلة؟ أتختفي من إطارها أم تبدو طفلة فيه؟ إن للخاتم قوته وعجائبه هو الآخر! هو حارس دنيا الساهر الأمين! وتلك الفراشة البيضاء. ألم تخف داخلة من الكوة لنجدتي أو لنجدة دنيا في الأصح.. كيلا أتخلف عن الموعد؟ أتزورني الفراشة أيضاً كلما حيل بيني وبين دنيا؟ هل هي فراشة الشيخ الأبيض أم هي فراشة الحديقة؟ وأي فرق ما دام لها التأثير نفسه؟" . وكانت دنيا تبتسم لي خالية البال:

- أين أنت؟

- أنا معك.

- ألم تعد راغباً بالغداء في المطعم المجاور؟

- أنا اتغدى فيه كل يوم.

- مر نهاران ولم.. نرك.

- كنت في دار النشر.

- ولم تتصل بي!

- خشية من أن أزعجكم برنين التليفون كل أمسية.

وأضفت مبتهجاً بنظرتها الضاحكة المحبة.

- لن أحرم طفلتك من أمها كل يوم.

- كم أنت عطوف!

لا رقص أو موسيقى في هذا المطعم وكنت ألجأ إليه، أحياناً ابتعاداً عن الضجيج. كان غطاء المائدة مكوياً أبيض، وزجاج الواجهة ندياً بالرذاذ والمارة دونما انقطاع "أين هي زينغا الآن؟ هل تفكر بي مثلما أفكر بها؟ أهي في معطفها الأخضر الداكن الذي رأيته اليوم على مشجبي؟ ولماذا ظهرت عبر واجهة المطعم شبه عارية لا ترتدي غير تلك الغلالة الخفيفة البنفسجية، وشعرها باللون الليلكي نفسه؟ هل هو طيفها لا غير.. تبعث به من عوالمها الليلكية الخفية؟ أترحل أحياناً إلى هناك؟ ألم تدخل المرايا مثلما يدخل الظل الماء، مخترقة الزجاج بمادتها الحية؟ ولعل اختفاء الصورة من الإطار، تلك الليلة، لم يحدث إلا برحيلها هي إلى تلكم العوالم الليلكية المجهولة! وهل ترحل إلى هناك بدفئها ونبضها، بأفكارها الأرضية؟ ومن أين لي أن أعرف؟ أم أنها لا تخرج إلى هناك إلا طيفاً أو ظلاً أثناء غيبوبتها أو استغراقها في النوم العميق؟ ومن

يدعوها فيخرج بها إلى هناك؟ أهي نفسها أم هي قوة أُخرى؟ أم هما قوة واحدة؟ والشيخ الأبيض.. هل هو من مملكة جدتي السرية تبعث به نجدة لي؟ ألم تقل زينغا : هو شيخ أو شيخة محدودبة؟ يبدو لي أن هذا الخاتم بفصه الأزرق البراق كان بين خواتم جدتي.. بل هو خاتمها المختار نفسه! إنني أتذكر الآن أنني رأيته في يدها مراراً.. براقاً أزرق مثلما هو الآن في يد دنيا. أنا لم أر جدتي منذ سنين. رأيتها آخر مرة قبل هجرتي بأشهر. علام يريد الشيخ أو جدتي تقريبي من دنيا وإبعادي عن زينغا؟ أين هي زينغا الآن؟

- ألست معي؟

- معك كل لحظة.

- فإلى أين شرد بك ذهنك؟

- هو شرود عابر يلم بي أحياناً كلما همى الرذاذ.

- ينبغي أن تتخلص منه.

ثم دخلنا الشقة وأنا أفكر بحل للغز الصورة، تفكير السجين بالمفتاح "كما يقول إليوت أو دانتي" ولم ترها دنيا إلا صورة طفلة في الرابعة أو الخامسة من عمرها مثلما رأتها من قبل.. فهي ترنو إليها ممتدحة معجبة! وكانت المائدة خالية من القنينة والقدحين.. ومن أوراق الليلك اليابسة. غير أن علبة البيرة التي فتحتها زينغا لم تبرح باقية على الطاولة الصغيرة، والريح تهب هبوباً عبر الكوة المفتوحة آتية بالرذاذ.. فأوصدتها دنيا قائلة:

- ستمطر الليلة طويلاً.. كما قيل في النشرة الجوية.

- وقد لا تمطر.

- نحن هنا بمنجى منها.

أي بهجة في حضرة هذه المرأة! إلا أنها لم تكن متفرغة لي. منذ أسبوع تقريباً وأنا لا أرى دنيا إلا ساعة الغداء في المطعم الصغير المجاور. أمها متوعكة.. لن ترهقها بشؤون الطفلة في الليل أيضاً. وأنا سئم من الجلوس منفرداً في المطاعم الليلية "لن أمضي العشية متطلعاً إلى الصورة مترقباً تحولاتها". انطوت الساعة الخامسة مثلما انطوت الصفحات المترجمة منذ حين. فجأة تذكرت فتاة المطعم ودموعها المختلطة بأصابعها "ألن تنزل بها زينغا دواراً آخر؟ لا أدري، أهي في بيتها الآن؟" وتصفحت مفكرتي الصغيرة. أذكر أنني كتبت تلفونها هنا فأين هو؟ لم يبق منه إلا آثاره المبهمة. كان ممحواً، مغضوباً عليه بين الأرقام العديدة الباقية! "هل أتصل بدنيا فتعيرني الخاتم لليلة؟ أي سخرية أو أي تفسير عندي غير زينغا وغيرتها؟ ثم كيف يخطر لي مثل هذا الخاطر؟ لن أتركها عزلاء من دون حارسها الساهر الأمين! أين هو الشيخ؟ سأخرج علبة بيرة باردة تزجية للوقت، وأفكر ملياً أين سأسهر الليلة!".

حملت العلبة إلى البهو وفتحت التلفزيون، ولم أختر المقعد الكبير حذراً مني.. بل اتخذت الأريكة الطويلة مجلساً لي حيث كانت زينغا غافية قبل أيام. السباق محتدم بين فريقين من فرق كرة القدم.. بين فريق محلي وآخر أجنبي. فصرت أُتابعه. فجأة خلت الشاشة من الصورة. خلت برهة خيل لي أنها طويلة وظهرت زينغا في التلفزيون تغني أغنيتها المفضلة، أغنية "الزوبعة الثلجية".. أو هي تعزف في غرفتها الزرقاء على البيانو الأسود، السوناتا الرابعة عشرة! بل هي ترقص متزلجة على

الجليد في بارك "النورس" مقتربة مرة، مبتعدة مرة عن المتفرجين وأنا بينهم. غير أننا الآن في سيارة أمها، وأنا أقودها مندفعاً بها بين القرى والغابات. إنما هي ليست زينغا.. هذه المرأة الشابة المتلفعة بالفرو الأبيض.. تتزلج كالطائر الأبيض على موجته في ساحة البارك.. هي دنيا وهي تنتظرني الآن عند مدخل المترو.. وتسرع ضاحكة لي تحت المطر في روب عملها الأبيض هذه المرة. بل هي في شقتها تطعم طفلتها.. أو تجيء وتروح بين البهو وغرفة النوم، حيث ترقد أمها. وعلى الحائط تبدو أيقونة السيدة العذراء وطفلها. ورأيتها تقترب من التلفزيون وتدير رقماً. فانتزعني عن انشدادي إلى الشاشة رنين التلفون في شقتي. هي دنيا تحييني تحية المساء وتسألني عما أنا فاعله الآن!

- لاشيء يشغلني كيف هي أمك؟

- بخير وصحتها تتحسن وأنت؟ ألست ضجراً؟

- وكيف لا أضجر وأنا بعيد عنك؟

- فلم، إذن، لم تتلفن لي؟

- خشية من أن أزعج أمك بالرنين.

- كلا ما هو بعذر.

- أسمعي، هل يمكنني أن أزوركم الآن؟

- ولماذا لا يمكنك؟ أنا وأمي نرحب بك.

انتقيت من الثلاجة زجاجة خمر وشوكولا لطفلتها. وعدت إلى البهو لأطفئ التلفزيون. وكان السباق أكثر احتداماً بين الفريقين! "أنا لم أدخل شقة دنيا من قبل.. فهل أجدها مثلما رأيتها في التلفزيون؟ ينبغي أن أعبر الشارع أولاً إلى كشك

الزهور القائم على ناصية البولفار الأُخرى فأبتاع باقة لأمها.. وباقة لها هي أيضاً".

أجل كانت الشقة مثلما رأيتها في التلفزيون: أيقونة العذراء والطفل على الحائط والأريكة والكراسي هي ذاتها، وأمها في غرفة النوم مثلما ظهرت لي على الشاشة! وبدا لي أنني أشم أنفاس مبخرة طيبة.. مبخرة جدتي! كلا.. أنا أتوهم هذا الشذى القديم توهماً "هل تريد جدتي مني أن أقترن بدنيا؟ ألم تقل لي مرة وهي تحذرني وتنصحني: اختر منهن الناصعة الوجه.. النقية اليدين!" وكنت أرى دنيا في ثوبها المنزلي آتية من المطبخ، عائدة إليه.. تُهيئ المائدة وتجيء بالأقداح، فتبعتها إلى المطبخ، أوقدت لفافة وأخذت أدخن عند الكوة المنفتحة قليلاً.

- كنت مستوحشاً حقاً حين اتصلت بي.

- ما كان عليك إلا أن تدير رقمي.

- أنت مع أمك وطفلتك.

- أمي في فراشها.. وطفلتي نائمة بعد حين.

- لن نترك أمك ونخرج.

- ولماذا نخرج؟ هنا يمكننا تمضية السهرة مثلما كنا نمضيها في شقتك، ومع أمي أيضاً.. بعد تحسنها تماماً من وعكتها. ستجدها شيقة جداً. هي امرأة متعلقة بأفكارها الدينية.. إنما من دون تعصب بالطبع. ومن الممتع لك تزجية ساعة معها متحدثاً محاوراً. أنا شخصياً غير ميالة إلى رنين الأجراس وتراتيل القسس، غير أنك رجل فكر ويهمك النقاش!

- ألم ترافقيها إلى الكنيسة وأنت صغيرة؟

- كنت أصحبها أحياناً.

- ولم تؤثر بك؟

- لم يكن الدخول إلى هناك إلا نزهة لي.

- وهي تمضي بطفلتك إلى هناك بالطبع.

- مثلما تأخذها إلى الحديقة.. أو مسرح الدمى.

- وأنت.. ألا تفكرين أحياناً.. في العوالم الأُخرى؟

- ولماذا أتعب رأسي؟

- وهذه السفن الدائرة في الفضاء توقاً إلى هناك؟

- قريباً يتجولون بين الكواكب تجوالهم بين المدن الأرضية.

- لن يحدث هذا قريباً.

- ألم يصلوا إلى بعضها؟

- لم يطأوا غير سطح القمر بعد.

- وقد يصلون إلى غيره.

- غير أنهم لن يقتربوا من المجرات الأُخرى.. قريباً.

- أنت تنظر بعيداً جداً.

- نحن لم نزل ضمن النظام الشمسي.

- بالطبع هناك شموس أُخرى.. وعوالم أُخرى.. فيم يجديني أنا التفكير فيها وتأملها طويلاً؟ أي اتصال جرى بيننا وبينهم في ما تعلم؟ لم يزل الأمر غير مؤكد إلى اليوم. أنا لم تقع عيناي إلا على الصور الملونة الملتقطة من الفضاء، وهي فائقة الروعة كما تعرف. غير أنها لم تلتقط بعيداً جداً عن الأرض كما ترغب أنت. أنا تكفيني رحلة حول الأرض في عطلتي معك!

وجدت شقتي مضطربة تماماً. الكتب مبعثرة على الأرض، والأوراق متناثرة.. غارة لم تقم بها زينغا إلا ثأراً مني! ليس صعباً عليّ إعادة الورق إلى المكتب أو الخزانة.. إنما هي الكتب! مكتبة بأكملها منتشرة بين أرجاء الشقة: في المطبخ والممر.. في البهو وغرفة النوم! سيرهقني كثيراً جمعها وترتيبها على الرفوف الخالية منها. فإذا جاءت المنظفة غداً صباحاً.. أي فكرة ستخطر لها عني؟ وأي أيضاح عندي؟

الصورة في إطارها الأصفر الباهت غير مكترثة بي أو ناظرة إليّ في حيرتي وتذمري بين أنقاض المكتبة المزلزلة.. وأنا واقف وقوف يسينين في شقته التي عاثت بأثاثها ايزادورا غيرة وحنقاً.

وأعدت أوراقي إلى مواضعها، وصرفت وقتاً وجهداً طويلين وأنا أنقل الكتب وأكومها على أرضية البهو "سأدعها كلها هنا، وأعيدها غداً إلى رفوفها. ستعينني المنظفة بالطبع. لن تكتفي بالتفرج عليّ مثقلاً بأكوام الكتب، سأقول إنني أردت فهرسة المكتبة فهرسة أكثر ملاءمة لي. ما الذي أغضبها مني؟ ما الذي أغضب زينغا لتفعل هذه الفعلة؟ أهي فكرة اقتراني بدنيا؟ وأين هي الغيرة، ولِم لم تمنعها عن رحيلها إلى تالن بعيداً عمن تغار عليه؟ هل أثارها أنني الآن أكثر قرباً من دنيا، وأن الخيط لم ينقطع.. مثلما ينقطع عادة، بعد لقاء عابر بين رجل وامرأة؟ وفكرة الرحلة حول الأرض لم تقلها دنيا إلا ممازحة بالطبع، إنما هي رحلة طيلة شهر! طيلة عطلتها! ألا تعني رحلة عرس؟ لِم لم تبعث جدتي بخاتم آخر لي؟ بخاتم مثل خاتم دنيا أطوق اصبعي به فلا تجرؤ زينغا لحظة على العبث بشقتي وإغاظتي؟ وأين هي الفراشة والشيخ؟ ألم يخفا إلى نجدتي؟ كل شيء في

حينه كما يبدو لي! وستجري الأحداث مثلما جرت بفعل قوة لن تتضح لي يوماً اتضاحاً تاماً. أو بفعل قوتين غير مدركتين: قوة زينغا وقوة جدتي الخفيتين! هل هما على اتصال في ما بينهما؟ أهما الاثنتان من هناك؟ وما أدراني أنا؟ إنما الواضح لي أنهما على اختلاف من حولي. إحداهما تشدني إلى زينغا أو تريد أن تشدني إليها.. والأخرى تشدني إلى دنيا أو تريد أن تشدني إليها. "إنني أتذكر العميد طه حسين" لماذا لم تبعث جدتي لي بخاتم آخر حارساً ودليلاً؟ سأخرج قنينة الليكيور من الثلاجة وافتحها في البهو بين الكتب المكومة ترضية ومصالحة. وعدت من المطبخ بالزجاجة العنبرية الملأى فوجدت الكتب مصفوفة على رفوفها. القدح في يدي وأنا أحدق إلى الصورة.. والكتب مرتبة، منتظمة في الأمكنة عينها.

وقد انتقلت عن أرضية البهو بينما كنت في المطبخ قبل قليل "ترى من أعادها مثلما كانت.. زينغا أم الشيخ الأبيض؟" الليل هادئ هدوء كل شيء يحيط بي. غير أن الرياح احتدمت غضباً في الفجر، وأخذ المطر يقرع النافذة قوياً متلاحقاً. وكنت متعباً بعد الغارة والليكيور.. فعدت إلى الفراش مسلماً أمري لله، ولم أفق من النوم إلا في الثامنة.

فتحت نافذة البهو تجديداً لهواء الليلة الفائتة، السماء الشمالية غائمة والرياح لا تحرك الشجر إلا تحريكاً مترفقاً، ناعماً. . إنها صبيحة السبت "سأمر على الدار وأحتسي القهوة الثانية هناك" أنبأني البواب أن فتاة ما تنتظرني في البوفيه.

- أنا صاحبة زينغا أتذكرني؟

- وهل تنسى فتاة مثلك؟

- كنا معك في المقهى الجانبي.

- وفي مطعم الغابة. أي شراب تفضلين صباحاً؟

- شكراً. لا أريد أن أؤخرك عن عملك، كنت مارة من هنا فسألت عنك، قيل إنك قادم عما قريب أحببت أن أحييك وأنصرف.

- لن أتاخر إلا دقيقة وأعود إليك.

- طيب، أنا منتظرة هنا.

وسريعاً ما عدت فلم أجد إلا زينغا!

- أنت هنا وأنا لا أعرف؟

- كيف؟ ألم تخبرك صاحبتي؟

- وأين هي صاحبتك؟

- لم تبق هنا إلا دقيقة. إن لديها موعداً على الناصية الأُخرى. عند السينما، لم تحضر إلى هنا إلا لمرافقتي.

- متى وصلت من تالن؟

- قبل يومين.

- فلماذا لم تتصلي بي؟

- طيلة هذين اليومين وأنا في فراشي. لم أرد إزعاجك بتوعكي وأنت؟ ألم تسئمك المطاعم الليلية.. منفرداً تقبع فيها.. كما تزعم؟

- لن يصلح غيرها للسهرة إلا أحياناً.

- في هذه الحاضرة الكبرى؟

- أنا لا ألتقي هنا إلا قلة من الناس.. ويضجرني دخول السينما أو المسرح دونما رفقة. وأنت بعيدة هناك.. تتأملين البحر الغائم والضباب والبلطيقي. أين تريدين أن نتغدى؟

- لم تحن ساعة الغداء بعد.

- لن نمكث قابعين هنا في البوفيه.

- لنخرج إذن.

غير أننا لم نخرج، وأنا أترنح تعباً وسكراً في البوفيه.. مقترباً من الطاولة بقنينة خمر أحمر ثقيل، عائداً إلى الكهلة المنغولية الواقفة خلف الخوان الأصفر المبتل.. طالباً منها قنينة أُخرى. الموائد المكتظة تجار عربدة، والضوء ينطفئ ويعود أصفر شاحباً فتبدو الوجوه المخمورة المرهقة صفراء شاحبة، الأرض دبقة، زلقة بالخمرة المسفوحة، وأنا أتعثر بسكير ينطرح بين الأرجل معانقاً كهلة البار المنغولية الثملة، والريح الباردة اللاذعة تتسلل من الباب المظلم المنفتح ولا أحد يقوم فيغلقه. وعبر النافذة حمحمة الخيل وشتائم الحوذيين، الصور الفجة الفاقعة تتهاوى على الأرض مندفعة بقوة ما عن الجدران المتمايلة.. الأقداح تقرع، وأحدهم يعول بأغنية ذئبية ما، وأنا أعود بقنينة إلى الطاولة.. فأرى صاحبة زينغا آخذة مكانها.. سكرى مثلي، عبثت بشعرها الرياح قبل لحظة.

- أين هي زينغا؟

- أتسألني أنا؟

- ومن أسأل إذن؟

- ألم تكن معك؟

- فمتى جئت أنت؟

- لم أحضر إلا تواً، وأين ذهبت زينغا؟

- ألم أسألك قبل ثوانٍ عنها؟

- ومن يعرف تنقلاتها غيرك؟

- أنا لم أغب عنها إلا برهة، ألا ترين كأسها مترعة؟

- وإلى متى ستظل واقفاً؟

- وأين هو مقعدي؟

- وهل أدري أنا من أخذه؟

- أيأخذونه دون إذن؟

- ألا ترى أنهم سكارى؟

- أتريدين أن نغادر هذه الخمارة؟

- ألن ننتظر زينغا؟

- ومن يدري متى ترجع؟

- ألم تخبرك؟

- وهل أخبرتني أنها ذاهبة؟

- لنخرج إذن.

لم يكن على الطاولة إلا فنجان القهوة الفارغ. وأنا أحملق في وجه زينغا مستغرباً. وسريعاً ما اتضح الأمر لي: لم تخرج الفتاة إلا زينغا من دون أن تدري بها تلك، وأنا صاحٍ تماماً، ولم أذق بعد قهوتي الثانية "فمن احتسى هذا الفنجان؟ زينغا أم صاحبتها؟".

- ألم تعد راغباً بالخروج؟

- قبل أن تشربي أي شيء هنا؟

- شربت قبل أن تحضر.

- ألا تريدين شيئاً آخر؟

- شكراً، لا أريد مزيداً.

- سأجيء بقهوة لي.. وبكأس لك.

- ليس هنا.

السماء الواطئة الغائمة تتكاثف تلبداً، والناس يتجمعون حيث السينما أو عند أكشاك الصحف والزهور. اجتزنا الساحة متمهلين، قاصدين عبور الشارع إلى البولفار الأصفر العتيق.. نتنزه بين الأشجار أو نقتعد مصطبة خالية. فإذا هي تتوقف بعد خطوات من المعبر، وقد اقتربنا من البولفار، قائلة، ممسكة بيدي:

- سنعود إلى البولفار.. في ما بعد.

- فإلى أين الآن؟

- هنا.. خلف هذا المبنى الرثيث نفسه.. عند الشارع الآخر مكتبة عامة قديمة. لي صاحبة تعمل فيها. يهمني كثيرا أن أعرّفك بها.. إنها امرأة خبيرة عالمة. لن تجد في المدينة كلها شخصاً أكثر منها معرفة وخبرة بالكتب والمخطوطات القديمة.. الكتب الصفر كما يقولون.. وما دمنا قريبين من المكتبة، وعندنا من الوقت ما يكفي فلا شيء يمنعنا من أن ندخل.. إنها فرصة لا تعوض !

- فعلاً.. إنها فرصة لا تقدر !

- فهلم بنا إذن.

هي امرأة في الأربعين، أو في الخمسين.. يعجزني تحديد عمرها تحديداً مقارباً أو شبه مقارب، متغضنة الوجه، مقوسة الكتفين، ترتسم ابتسامتها الماكرة المصطنعة على فمها طيلة الوقت، ويلفها رداؤها الأسود لفاً محكماً.. مظهراً هزالها وخلو صدرها من الثديين وتسطحه ! لم تفتأ ترحب بنا ترحيباً زائداً. سألتها زينغا أن تدخلنا أقبية المكتبة أولاً، حيث يهجع أعتق الكتب والمخطوطات وأكثرها صفرة وتآكلاً ! هبطنا السلم القديم المظلم تقريباً إلا من البصيص الآتي من مصباح الممر الجانبي السفلي الضيق، وفتحت لنا الباب الثقيل بمفتاحها وتركتنا للقبو الأول عائدة إلى مشاغلها، وكان الباب يقود إلى ممر آخر تنفتح عن جانبيه الأبواب المواربة عن غرف عديدة مثقلة رفوفها بالكتب. ثمة كرسي أو كرسيان في كل غرفة وقنديل سيئ الإضاءة يبدو كالخامل الناعس متدلياً من السقف، هناك أيضاً مصابيح أُخرى تعلق بالحوائط إلا أنها مطفأة أو تالفة. وكان السلم الأول متصلاً بسلالم أُخرى تغوص عميقاً في باطن الأرض.. يقودك كل سلم منها إلى قبو آخر كالقبو الأول بممره وغرفاته المحملة رفوفها بالكتب. وكان الضوء في أغلب القناديل مختنقاً لا يكاد ينير. لا شيء هنا إلا الكتب والعتمة ورائحة الأزمنة الرطبة القديمة، وقد نزلنا السلالم حذرين عند كل درجة خوف أن تسلمنا إلى الفراغ. وتنقلنا بين الحجرات، وكانت متصلة في ما بينها بأبواب داخلية أُخرى.. تنفتح أحياناً، وتظل مغلقة إغلاقاً راسخاً أحياناً أُخرى. الغرف منخفضة كالمظلمة،

لا كوة بالطبع ولا نافذة وأنت في الأقبية السفلية. أحياناً لم أكن أرى من زينغا إلا عينيها الذهبيتين المتقدتين لهباً وشرراً، وهي تنتظرني، بين الحين والآخر، عند هذا الباب الداخلي أو ذاك، وقد تخلفت عنها متفحصاً بعيني عناوين الكتب المتعرجة الملتوية أو أسماء مؤلفيها.. أو متأملاً صورهم غير الواضحة. لم تنطق زينغا منذ دخلنا القبو الأول بكلمة واحدة. وكأنما أرهبها أن تتلفظ بحرف. وفي الأركان المضببة بالضوء الأصفر الضئيل.. بالضوء الغبشي المنبعث من أحداقها الزجاجية الخفية.. لن تصل النظرة المدققة إلا إلى الظلمة والخفاء. فجأة اوقفتني زينغا صامتة، ممسكة بيدي، وقد وصلنا آخر قبو من أقبية المكتبة. كان الباب موارباً يكاد يتحرك حركة لا تدرك. هنا تنتهي السلالم المريبة، وتنقطع الخطوة إلا إلى الباب الغامض أو إلى السلم صاعدة إلى الطابق الأرضي من المكتبة.. إلى الضياء والناس والخبيرة المنشغلة بفهارسها.. في غرفتها الصفراء الضيقة قبالة السلم العتيق المظلم تقريباً.

الضوء الشحيح الواهن يتسلل إلينا من بين الحائط والباب الموارب، ونحن نصغي إلى الصمت المطبق.. وكأنما انتهت آخر حركة أو صوت على الأرض ! فلم أجد بداً من أن أسألها هامساً:

- ألا تريدين أن ندخل؟

- أنتظر.

- وفيم انتظارنا؟

- إنه آخر الأقبية !

- وهل يختلف عن غيره؟

- هو مرقدهم.. مملكتهم السفلية !

- مرقد من؟

- ألم تقرأ أسماءهم على الأغلفة؟

- لنزرهم إذن، إنهم يستحقون، مع أن أيدينا لا تحمل زهوراً.

- ينبغي أن ننصت جيداً قبل أن ندخل.

- لا أحد هناك.

- إنهم يطوفون ويتزاورون أحياناً.

- ما هي إلا ظلال على الحوائط.

- هذا ما يبدو لك.

- انتظري هنا.. وسأدخل وحدي.

- لن أتركك وحيداً معهم.

- لا خوف علي.

دفعت الباب بيدي فانفتح دونما صوت، ودخلت غير ملتفت إلى زينغا.. فتبعتني خفيفة الخطوة ! أمسكت بذراعي واضعة اصبعها على فمها مشيرة عليّ بالتزام الصمت، الغرف خالية إلا من رفوف الكتب. لا شيء غير هذه المجلدات والضوء الباهت الضئيل ! قلت هامساً في السكون الشامل:

- أين هم؟

- إنهم يروننا !

- ألن نراهم نحن؟

- أتريد؟

- فلماذا نحن هنا؟

انفتح أحد الرفوف عن سلم مرمري أبيض.. انحدر بنا قليلاً، كما ينحدر السلم الكهربائي، إلى الضباب السفلي الأخضر! إلى ضباب لن تصل العين من خلاله إلى شيء غير خضرته السرابية الكثيفة. أخرجت زينغا من حقيبتها غليونها المفضض.. كان موقداً بناره السرية الداخلية كما يبدو.. قربته من فمها، دونما تعجل، آخذة منه أنفاساً قصيرة.. مقتربة مني، متمايلة كالثملة وكأنما أسكرها الدخان أو أصابها بالدوار، خفت أن تسقط، وقد رأيتها أشد ترنحاً، فمددت إليها كلتا يدي.. إنما هي لا تلمس.. لا يمسك بها! هي كالفراغ وكالهواء، وهي في ثوب آخر، غير ثوبها الذي دخلت به، في ثوب لا أكاد أميز لونه.. عارية الذراعين، منكشفة النحر والكتفين، وجهها وشعرها غير واضحين.. أما عيناها الذهبيتان فتبدوان في وضوح، وتشفان بين آن وآن عن رؤى وأطياف لا أعرف كنهها.. غير أنها جميلة جمالاً فائقاً غريباً!

والريح الهادئة الخفية تحمل الشذى الربيعي وزقزقة الطير.. وزينغا كالنشوى، كالناعسة.. تتمايل بها خفيفاً أرجوحة بين عمودين أو بين جذعي شجرتين، وبين يديها نافورة تتدفق مياهها ألواناً قزحية مريحة للنفس! وأنا أدنو منها وأدنو.. الريح تلهو بأشجار الممشى الصاعد إلى البركة والقصر، وإلى المسرح المنزلي المكشوف بين صفين واطئين من شجيرات الشاي، حيث تمثل مشاهد من الطريق إلى دمشق أو أوديب ملكاً.. أو

مشاهد من الملك لير أو النورس.. تمثل في آن واحد مختلطة، متداخلة إلا أنها مفهومة واضحة، السماء غائمة.. إنما هو غيم أخضر أو هي خضرة غائمة، وفي المماشي بين الأشجار أو على المصاطب تلوح لي، متجمعة أو متفرقة، وجوه معروفة وغير معروفة. إنهم يتمشون أو يجلسون صامتين أو متحاورين إنهم المؤلفون بلحاهم أو بوجوههم الحليقة.. وعلى المسرح تتنوع المشاهد متداخلة: تلك أوفيليا أو فيدرا.. بل إنهما امرأة واحدة، وهذه شهرزاد الحكيم وحورية بحر ابسن. وفي النوافذ والشرفات العالية من القصر تبدو واضحة وجوه المؤلفين وشخصيات كتبهم، ومن الخانة الفروسية يخرج أبو نواس والمعري وهما يترنحان ترنحاً خفيفاً.. بينما يدخلها بوشكين والخيام. فوجدتني سائراً إلى هناك.. إلى الحانة قاطعاً ممشى آخر تتمايل على جانبيه أشجار الكمثري، فدخلت خيمة أو قاعة كالخيمة الفسيحة العالية. إنما هي مزدحمة بالمؤلفين فلم أجد مقعداً خالياً إلا بعد انتظار طويل، وبعد انتظار آخر أقبلت إليّ نادلة شقراء.. غنجة لدنة القوام أعرفها مذ كنت طالباً أتردد على مقهى الجنينة.. ولم يكن ترددي على المقهى آنذاك إلا من أجلها، دعوتها إلى الجلوس بإشارة مني فاعتذرت بيديها مشيرة إلى كثرة الضيوف وزحمة الحانة! غير أنها تعود إليّ متندرة معي كلما سنحت فرصة.. أو هي تخطر مارة بي ضاحكة العينين، ناظرة إليّ، أحياناً، نظرتها الطويلة الحارة ! وكنت أتناول الكونياك من يدها وفي فمي طعم البونش.. بونش المقهى الجانبي. هو بونش المقهى أترشفه من خلال القشة الصفراء، موقداً لفافة لي، قائلاً لزينغا :

- في أي مطعم تودين أن نتغدى؟

- في أي مطعم قريب، إنما بعد قليل.

- ألم تجوعي بعد؟

- لن تتأخر صاحبتنا الخبيرة.

- المرأة.. المشرفة على أقبية المكتبة؟

- هي بعينها، ألم تدعها أنت إلى الغداء؟

- هل أجيئك ببونش آخر؟

- ما بك؟ أتريد أن تسكرني قبل الغداء؟

- هي ذي صاحبتنا.

- إنها ذاهبة إلى المغاسل، ستأخذ زينتها وتعود.

- وتتجمل هي أيضاً؟

- كأي امرأة أُخرى.

- سآتي بقدح بونش لها قبل أن تخرج.

- إنها تفضل الشمبانيا.

- سنفتح قنينة إذن.

- كلا جيء بكأس واحدة لها، وسنفتح القنينة في المطعم.

- ولن نتحدث هنا إلا عن كتبها الصفر:

- ألم تقنعك بخبرتها بعد؟

- لم أقصد إلا الاستزادة من معرفتها.

- لن يمنعك شيء عن الغوص عميقاً معها بحثاً عن المجهول والغامض من خفايا الكتب والمخطوطات الموغلة في القدم

زرها في مكتبتها في أي وقت تريد. أو اتفق معها على اللقاء يومياً في هذا المقهى الجانبي أو غيره. لا زوج لها ولا أطفال فيحيلوا بينها وبين صحبتك. هي امرأة متوحدة، وسيفرحها الخروج من درعها الأصفر الصدئ إلى أجواء أُخرى.. إلى أضواء المطعم والمقهى. سترى كيف تبهجها دعواتك. هي ذي قادمة.. فكن لطيفاً معها من فضلك.

اخترت مطعماً عصرياً جديداً لم يفتتح إلا قبل شهرين، هو مطعم "المهرج الطروب". لم تكن الموسيقى فيه إلا تهريجاً.. ولم يكن الغناء إلا ضحكاً وقهقهة. الحوائط مزوقة بالصور الرخيصة الفاضحة، ووجوه الكورس والعازفين ملطخة بالأصباغ المحمومة، الراقصون يتخلعون تغنجاً، والفتيات يطاردنهم ويقبلنهم في اهتياج. وكانت زينغا صامتة غير راضية. لم تفتأ ترمقني بعينيها الذهبيتين المتشككتين.. ماطة شفتها السفلى الممطوطة سخرية واستنكاراً. وكنت ألح على الخبيرة الحدباء بالشمبانيا مترعاً القدح بعد القدح بين يديها فلا تؤثر الشمبانيا فيها.. فطلبت زجاجة كونياك، وأخذت أصبها صباً لها فتفرغ الكاس تلو الأُخرى دونما اعتذار أو اعتراض.. وهي صاحية تماماً. لم تتحدث إلا قليلاً طيلة الغداء، ولم تذكر الكتب بشيء.. محتفظة بابتسامتها المصطنعة على فمها، أحياناً كان يهزها منظر ما فتضحك ضحكتها المختنقة القصيرة. وحين سألتها عن رأيها في الرقص الماجن أجابتني إجابة جادة:

- طقوس باخوسية.

أما زينغا فقد ظلت معتصمة بصمتها، مكتفية من الشمبانيا

بنصف قدح. كلما دنوت بالقنينة من كأسها الملأى إلى نصفها هزت رأسها معتذرة رافضة. وحين اقترب منا أحد الراقصين منحنياً أمام الخبيرة انحناءة كبيرة طالباً إياها إلى الرقص.. نهضت حادة ورقصت معه رقصاً باخوسياً معتدلاً. وأنهت رقصتها مثلما ينبغي لها منحنية لمراقصها انحاءة شكر. وكنت قد أترعت كاسها منتظراً.. فأخذته قائلة:

- اسمحا لي أن أرفع الكأس نخب الجوقة.

وأضافت ناظرة إليّ:

- لقد أجادوا العزف إجادة تامة !

ثم نظرت إلى ساعتها:

- كم أشكر لكما إتاحة هذه الفرصة الممتعة لي. إنما ينبغي علي أن أغادر الآن. إنهم ينتظرونني.. المكتبة وشواغلها.

ورأيت زينغا هامة بالنهوض هي الأُخرى فقلت:

- ونحن خارجان أيضاً، زينغا مرهقة كما أظن.

لم تتلفظ زينغا بشيء إلا عند المشجب ونحن نرتدي معاطفنا:

- ألم تجد غير هذا المطعم؟

كان هذا احتجاجها الناطق الفرد ! أسرعت الخبيرة إلى الحافلة المتوقفة، المتأهبة ملتفتة إلينا، هازة يدها هزة وداع، قائلة لي:

- يسرنا قدومك إلى المكتبة في أي وقت.

وقبل أن تتحرك الحافلة خرج الشيخ منها ! خرج عجوز

بحاجبين أبيضين كثيفين كثافة غير اعتيادية.. معتمداً عكازاً أبيض رائعاً هذه المرة. لم يظهر لي إلا برهة واختفى في زحام الشارع.. وكانت صاحبة زينغا مادة يدها إليّ مصافحة يدي، وعيناي تبحثان عن الشيخ الأبيض.

- ألم تعرفني بعد؟ أنا صاحبة زينغا !
- وأين زينغا؟
- زينغا في تالن ! أتسألني عنها وكأنني أعرف تنقلاتها أكثر منك ! أعذرني.. يبدو أنني أخرتك عن اللحاق بالحافلة.
- كلا، كان معي صديق.. فأوصلته إلى هنا.
- هل كنت تتوقع عودة زينغا؟
- خيل لي أنني رأيتها معك.
- هذا يحدث.. عندما نعشق يتراءى لنا الأحبة في هذا الوجه أو ذاك. كيف هي أخبارها؟ إنهم يعرضون أغنية جديدة من تلحينها. ألم تشاهدها البارحة في التلفزيون؟ ينبغي أن تهنئها ببرقية
- أنا لم أشاهد الأغنية بعد.
- أبهجها ببرقيتك ما دمت عارفاً الآن أنها أنجزت عملاً فنياً جديداً. أتدري؟ لقد امتدحها بعضهم، ونوه آخرون بها تنويهاً عالياً في الصحافة الفنية ! سيُعاد عرض الأغنية قريباً.. فترقبها.
- كنت أتوقع رؤيتك في المقهى الجانبي.
- كنت في المقهى قبل أيام.
- أتودين أن نجلس ساعة فيه؟

- كما تريد.. ما دام قريباً.

"هل هي زينغا؟ كلا هي صاحبتها، وتلك التي رأيتها اليوم في بوفيه الدار قبل أن أرى زينغا.. هي هذه الفتاة نفسها ! ألم تكن زينغا متنكرة بها؟ وفيم حاجة زينغا إلى التنكر بوجه آخر وهي تظهر وتختفي كما يحلو لها؟ وبعدئذٍ.. في البوفيه الأصفر.. ألم تكن هذه الفتاة معي؟ هل أحضرتها زينغا من دون أن تدري الفتاة بها؟ من يدري ! ولربما لم أتصور هذا إلا تصوراً" وسألتها، فجأة، وكنا قد ابتعدنا في اتجاه الفندق الرمادي الغائم:

- أسمعي.. الم نلتقِ اليوم صباحاً؟

فإذا بها تهتف فجأة هي الأُخرى:

- أعذرني من فضلك.. كم أنا غير لبقة ! كنت مارة من هناك كما قلت لك.. وتذكرتك فسألت عنك. أحببت أن أراك وأسألك عن زينغا. لا أدري ماذا جرى لي فجعلني أخرج قبل رجوعك إلى البوفيه.. حقاً ! لا أدري كنت مستعجلة جداً. أعذرني من فضلك. كم أنا آسفة ! وكنت أفكر بشيخ المشجب: "أي حاجبين أرى له اليوم؟" انحدرنا إلى المعبر السفلي المتوهج الجانبين بالمصابيح البيضاء الكبيرة، وانعطفنا صعداً إلى المدخل الجانبي من الفندق الرمادي المفضي إلى المقهى والمطعم حددت النظر إلى الشيخ فلم أر إلا حاجبيه الخفيفين الاعتياديين. أودعته معطفينا وأنا أقول لنفسي: "هنا تلتف الحواجب وتخف في أي لحظة!" وتذكرت أنها عصرية السبت، ودنيا عائدة إلى بيتها بعد ساعة

"ما أنا على موعد مع الفتاة، ولن نمكث في المقهى، على أي حال، إلا ساعة أو أقل.. بعدها أتلفن لدنيا وأسألها عن أمها، وعندئذٍ سنعرف أين نمضي الليلة" وحملنا معاً القهوة والبونش إلى آخر مائدة وأنا أقول:

- أي صدفة أن نلتقي بعد اللقاء الصباحي العابر !

- هي المقادير شاءت أن أعتذر لك.

- لا أهمية للأمر.

وكنت أحدق إلى أوجه الأخريات وقد احتللن الموائد منذ الآن. وأحدق إلى وجه النادلة المقطبة القائمة عبر خوانها "قد تظهر زينغا بوجهها الطفولي وعينيها الذهبيتين وشفتها السفلى الممطوطة في أي وجه من هذه الوجوه من دون أن يرى وجهها أحد غيري ! هلا تفكر جدتي بخاتم آخر لي؟".

- يبدو أنك تفضل هذا المقهى على غيره.

- ربما لقربه من المترو.. والمكتبة الأجنبية.

- هل صحبتك زينغا مرة إليها؟

- أجل، وقد استهواها الوضع أول الأمر، كنا في إحدى الغرف الصغيرة، وكانت خالية إلا منا. فألهمها حسن طالعها كما قالت أن اترجم لها مما أقرأ، ولم يكن الكتاب إلا واحداً من كتبنا التراثية. فأعجبتها النوادر والأخبار القصيرة المتناثرة. ثم دخلت الغرفة شابة عوراء لا تحجب عينها التالفة البارزة بشيء، فأغلقت زينغا المجلد متطيرة، هامسة كالخائفة: "إلى الشارع.. إلى الشارع".

- ولم تكرر الزيارة؟

- كلا، بل هي تنصحني وتقول: لم لا تستعير الكتب من هناك وتقرأ في شقتك؟ وليتك تحضر ذلك المجلد الشيق وتترجم لي منه !

- وهل حققت رجاءها؟

- وأين لها الصبر؟

وكان يخيل لي أنني أسمع خفق عكاز الشيخ الأبيض على السلالم المرمرية الشهباء.. من دون أن ألمح صاحبه، وقد انتهت القهوة والبونش فلم يبقَ إلا أن نخرج: هي إلى المخزن وأنا إلى المترو. ولم يتوقف المترو بعد محطتين مثلما اعتاد كل مرة. لا أحد يسأل، ولا أحد يستنكر ! ولم يقف عند المحطة التالية أو المحطة التي بعدها. المترو يجري على سكته في أنفاقه المظلمة الطويلة، بين المحطات، دونما توقف، والراكبون منصرفون إلى قراءة كتبهم دونما اهتمام. ويطول السير ويطول وأنا أتساءل: "ألن يتوقف أخيراً؟ هل هي زينغا أيضاً؟" العربات مضاءة فرحة، كما يبدو، بالحركة المتواصلة والجرى السريع ! والأبواب تنفتح وتنغلق ولا أحد يخرج أو يدخل. وتقترب مني قروية كهلة ملتفة باللباد حاملة بين يديها طبقة بيض: "أتريد بيضاً؟ هو بيض طازج ! بيض مسلوق !" وتتعثر المرأة فجأة مصطدمة بأحدهم فيتكسر البيض على أرضية المترو الصقيلة.. وعلى المعاطف ويسيل صفارة ملطخاً كل شيء. وتصرخ بها سائقة المترو آتية ببدلتها الرسمية الزرقاء المحكمة بأزرارها المتلامعة: "كنت تؤكدين لي أنه مسلوق !" وتصفق الأيدي مرحاً، وتتطاير الكتب إلى السقف ! ويفتح رجل كهل

قنينة خمر ويديرها بين الناس. ويفتح آخر زجاجة شمبانيا.. تظل سدادتها تدور منتفخة كالبالونة فوق الرؤوس ! ويتوالى انتزاع السدادت وطيرانها كالمناطيد.. ويتعلق الأطفال بها فيحلقون كالملائكة، وتمتد أيدي العجائز إلى أطرافها فلا تعود إلا بصفار البيض السائل على وجوههن، ويضحك الناس ويفسرون الحالة ويشرحونها شروحات شتى ! وتقترب مني جارة زينغا العجوز متذمرة صائحة: "إنها زينغا ! ألم تدرك بعد؟" ويختطف رئيسها الأعجف الطويل السابق بالونة ويطير بها هاتفاً: "ها هو غليوني" والناس يرمونة بالبيض ضاحكين: "أيها المهرج ! أيها الأحدب !" فجأة تظهر الخبيرة الحدباء بين الراكبين المرحين بابتسامتها المصطنعة اللاصقة بوجهها المتغضن غير عابئة بشيء.. لا بيض ينوشها ولا أحد يصطدم بها.. وترتج العربة ارتجاجاً هائلاً فيتساقط الناس على أرضية المترو إلا هي والأطفال. وتقترب مني نافضة عن معطفي صفار البيض. كلا.. ليست هي الخبيرة ! هي جدتي برائحة بخورها الطيبة، ومسبحتها البيضاء الطويلة في يدها، تأخذ بذارعي إلى باب العربة وقد توقف المترو في محطتي نفسها. ويخرج الناس، دونما تعجل، نظيفين من الصفار السائل. وتدخل المترو أفواج أُخرى من الناس.. فتضيع جدتي مني بين الداخلين والخارجين "إلى أين اتبعها؟ إلى العربة أم إلى المحطة والشارع؟" وتغلق أبواب العربات، ويتحرك المترو سائراً سيره الاعتيادي مختفياً في النفق المظلم إلا من بصيص سحيق ! ويتحرك السلم صاعداً بالناس، وأنا بينهم، إلى الشارع.. إلى الليل ! وأسير بين الناس متنفساً شذى جدتي مكتئباً قليلاً، متذكراً تقاطيعها وظهرها

المحدودب كبراً، وأعبر الشارع منعطفاً في اتجاه بيت دنيا، من دون أن أدري، كالتائه.. كالسائر في نومه تقريباً.. وعند مخزن الألبان تقف النسوة صفاً طويلاً، ومن الصف يقترب وجه ناصع مني ويد نقية تمتد إلى يدي:

- إلى أين؟ إلينا؟

وجهها مبتهج وفي صوتها رنة الفرح والسرور!

- أجل.. إليكم.
- ألا تريد أن تنتظر معي فنذهب معاً إلى البيت؟
- سأنتظر؟
- أتدري؟ يسعدني أن أكون معك في الشارع!
- كيف هي أمك؟
- لقد تعافت تماماً. ستسرها زيارتك هذه.
- وطفلتك؟ ألم تنسَ اسمي؟
- كلا، إنها تتلفظه جيداً.
- سنمر على المخزن أولاً.
- بالطبع، هي ليلة الأحد. لا بد من خمرة تترقرق بين أيدينا. أتدري؟ انتظرت تلفوناً منك منذ الخامسة، واتصلت بك فلم أجدك.. واضح أنك لم تصل إلا الآن.. من المترو إلينا!
- لنقف في الصف كيلا يفوتك الدور.
- انهم يعرفون أين كنت أقف.
- ألن يؤخرك الذهاب معي إلى المخزن؟
- كلا، لن يثقل الوقوف عليك هناك ونحن معاً. هي ليلة الأحد

وستجد المخزن مزدحماً.. ويطول بك الوقوف قبل أن تدرك البائعة.

- إنهم ينادونك.

- أجل.. هو دوري.

وفي الطريق إلى المخزن قلت مقترحاً:

- بدلاً من أن نقف طويلاً في المخزن.. أرى أن أسرع إلى شقتي وأعود بقنينة تروقك.. لن أتأخر عنك إلا دقائق.

- كلا، دعها عنك.. وسنشرب منها في ما بعد.

وكنت أقول لنفسي ونحن في المخزن: "حمداً لله أنني معها هنا، من يدري أي عارض يطرأ في الشقة فيحتجزني أو يؤخرني عن اللحاق بها، وتلك الصورة المتحولة تنتظرني هناك؟".

وخطر لي أنني قد أجد الليلة خاتماً آخر على طاولة المخدع، وفي المنفضة الكبيرة البراقة نفسها "ألم تأخذ جدتي بيدي اليوم مخرجة إياي من المترو المتراكض بلا توقف؟ فإذا كان ثمة خاتم فلماذا لم تضعه في يدي؟ لندع العقدة وحلولها بأيدٍ أُخرى أوسع حيلة من حيلتي. ثم أي حيلة أو لعبة اصطنعت أنا غير أن أسقي الخبيرة كأساً تلو كأس ولم أسكرها؟

لا بد من أنها قد فطنت ولم يغضبها إلحاحي! لقد خرجت من المطعم ممتنة تقريباً. سأزورها في أقرب وقت.. في الاثنين أو في الثلاثاء حتماً. ينبغي أن أتقرب منها تقرباً حذراً، وأتسلل إلى مكامنها تسللاً مأموناً.. عسى أن أضع أصابعي على أول

الخيط أو آخره، من يدري؟ قد تدلني هي نفسها إلى طريق سري ينعطف بي فجأة إلى صندوق جدتي أو مملكتها الخفية ! ألم ارَ جدتي بعد رؤيتي إياها؟ لكنها من الآخرين كما يبدو. هي أقرب إلى زينغا، هي صاحبتها كما تقول، غير أنها امرأة كتب ! وكتبها للقارئين. وقد تفتح لي ممراً آخر كما فتحت اليوم بابها المقفل إلى الأقبية. ألم تخطئ زينغا في تعريفي بالمرأة الغنوصية الغامضة؟ ألم يفتها أنني قد أغوي الحدباء فأضمها إلى الصف الآخر؟ من سيضحك من صاحبه بعد أن تتم اللعبة.. أنا أم الخبيرة المتغضنة؟ ".

وكنت أنظر إلى دنيا الخالية البال وأقول لنفسي: "أي ضباب سيطبق من حولها، كما يقول الجواهري، عندما اعترف لها بصفحة واحدة مما يحدث لي؟ وقد تتنهد وتقول: "إنك تحلم؟ " فإذا أظهرت لها زجاجة الليكيور، وهي لم تزل نصف ممتلئة، من الثلاجة وأقسمت أنني أحضرتها معي من تالن وأنا لا أعرف عن طريق الرحلة في الطائرة المزعومة أي شيء؟ أتقول لي إنني كنت نائماً أو حالماً طوال الطريق.. ولم أفق من نومي في الطائرة حينما هبطت في المطار، ونزل المسافرون وتفرقوا وأنا بينهم، وحقيبتي وجواز سفري في يدي؟ هل كنت سائراً في نومي؟ لن أظهر الزجاجة ولن أذيقها رشفة من الليكيور. من يعلم ماذا سيحدث؟ فإذا اكتشفتها.. هي سأقول إنها خمرة تالفة، قد تؤذيها أو تصيبها بدوار كلا، مع دينا خاتمها الذهبي الأزرق ! لن تقربها زينغا ولن تتحرش بها؟ " وفي الشقة

كنت أتطلع إلى الأيقونة وأتفرس بألوانها الظليلة وأقول لنفسي: هي حارسة أُخرى أيضاً. فلماذا تلح عليّ العينان الذهبيتان وأنا مع دنيا تحت سقف واحد؟ لماذا أفكر بالوجه الطفولي والشفة الممطوطة ودنيا ملء عيني؟ ألم تكن زينغا بعيدة عني تقريباً كل مرة كنت فيها مع دنيا من قبل؟ ألم أرَ جدتي اليوم في المترو رؤية واضحة؟".

- أين أنت؟

- أنا هنا.

- بل هو شرودك يلم ثانية بك.. مع أنه لا يمضي بأفكارك بعيداً إلا مع تساقط الرذاذ كما قلت مرة لي.

- ولربما هي تردّ.

الستائر مسدلة تماماً ونحن لا نسمع شيئاً، فأزاحت دنيا الستارة جانباً بيدها النقية وابتسمت لي:

- أترى؟ لا قطرة على النافذة!

وكانت أمها وطفلتها نائمتين.. وقد فرغنا من المائدة تقريباً، فلم يبقَ إلا أن نرتدي معطفينا ونخرج إلى الليل! وفي المصعد الهابط كنا منفردين أيضاً. وكنت أقبل يديها النقيتين في ارتياح! وفي الطريق بين أشجار الرصيف والبولفار الليلي النائم إلا من خطوة هنا أو هناك كنا متجهين إلى شقتي.

قالت المناوبة فرحة بمجيء دنيا معي:

- نحن لم نرك منذ زمن بعيد.

- كانت أمي متوعكة.. ولم تتحسن إلا البارحة.

قلت مخاطباً المناوبة الطيبة:

- أين هي صاحبتك؟

- إنها تعد الشاي، أتريدان منه؟

- شكراً سنشرب شاياً آخر، أتريدان أنتما منه؟

- أنت تعرف أننا لا نقربه أثناء عملنا.

- فما رأيك بلفافة؟

- هذا غير ممنوع ونحن نعمل هنا.

كنا نمزح بالطبع ! فقد أجيء إليهما، أحياناً، بزجاجة خمر فيتجرعان منها في المطبخ الصغير، حيث يعدان الشاي. أخرجت من جيب معطفي علبة سجائر، كنت احتفظ بها تحوطاً، وتركتها لها وهي تشكرني وتقول:

- من المؤسف أن يفوتكما هذا الشاي.

وجدنا الشقة معتمة.. لا ضوء إلا ما يتسرب ضعيفاً من النوافذ المنفرجة الستائر آتياً من الجانب الآخر من الطريق.. فاتهمت الصورة ودار في ذهني ما دار. وسريعاً ما تذكرت أنني لم أعد إلى الشقة منذ ساعة خروجي صباحاً إلى الدار.. أشعلت مصباح الممر ونزعنا عنا معطفينا، وأوقدنا المصابيح الأُخرى. كانت صورة زينغا في إطارها غير ناظرة إليّ.. إلا أنها طفلة في

عيني دنيا ! وعدت إلى المطبخ لأجيء بشيء من الثلاجة. فتبعتني دنيا قائلة إنها ستختار، أخذت زجاجة الليكور نصف الممتلئة بيديها النقيتين وتأملتها قليلاً، وأعادتها إلى موضعها وهي تقول لي وكتفها إلى كتفي:

- إنها من تالن، لا تباع هنا إلا نادراً.

- جاءوا بها هدية لي.

- إذاً فهي من النوع الممتاز !

- أجل، وماذا تفضلين؟

- نحن لم نشرب عندنا إلا نبيذاً.. وأنا أفضل هذه القنينة من النبيذ الوردي الرائق، إلا أن قدحاً من الليكيور لن يدير رأسي. وكنت أرى الخاتم متألقاً بزرقته فلم أعترض، وفعلاً، لم يكن للقدح الآخر، أي تأثير، ها أنا أتأملها، في ثوبها المنزلي الرائع، عائدة من المخدع وقد اكتست به منذ لحظة.. أتأملها وأقول لنفسي: "أجل ! يبدو أنني سأتزوج هذه المرأة الشابة الناصعة البياض كما تريد جدتي.. وليس هذا الخاتم إلا خاتم خطبة وعرس!" وجعلت أسكب لها من الليكيور دونما توجس، وقد أخذنا بأطراف أحاديث شتى بيننا كما قال الشاعر القديم "وأظنه من المقلين؟".

اتفقنا أن نلتقي في الثامنة مساء عند سينما الحي.. في ما نحن خارجان من الشقة: هي إلى بيتها وأنا إلى المخزن الكبير.. تحت الرذاذ الصباحي الناعم، وعدت لأقرأ ساعة قبل الغداء المبكر في المطعم الصغير المجاور. كان الإطار الأصفر الباهت

خالياً من الصورة "أهي في غيبوبتها أو رحلتها أم هي مختبئة ها هنا" جعلت أبحث عنها قبل أن تظهر لي فتزعم ما تزعم. فوجدت بيجامتي تتراقص طائرة مرفرفة في غرفة النوم ! أنزلتها ضاحكاً، ضاماً إياها بقوة بين يدي.. فانفلتت طائرة من جديد "ترى أين هي متخفية مني؟ وهل يمكنني إيجادها من دون خاتم أو فراشة؟ متى تتاح لي ثانية رؤية الشيخ عابراً فاسأله عكازاً مثل عكازه الأبيض؟" طال بحثي عنها دونما طائل.. فجأة رحت أضحك ساخراً من نفسي "هل أنا في متاهة أم في شقة؟ وأين يخبئ أحد نفسه في مكان مثل هذا.. في غير الخزانة الكبيرة وهي خالية إلا من أثوابي؟ ألن تبدو عبر النافذة شبه عارية بشعرها الليلكي وغلالتها الليلكية الخفيفة؟" مددت يدي إلى الرف الداني متناولاً كتاباً.. فعاد الكتاب إلى موضعه من الرف طائراً من يدي "طيب! لن نقرأ ما دامت زينغا لا تريد، وهل ستمنعني من الكتابة أيضاً؟" خطوت إلى المكتب، وقبل أن أصل إليه أبصرت أوراقي طائرة تدور كالمروحة الدوارة المندفعة تحت السقف!

عبثاً كان انتظاري ظهورها الليلكي، عبر الزجاج، الستائر منزاحة عن النافذة ولا شيء يبدو غير المنازل والأشجار "أجل! هي غضبى تماماً هذه المرة.. فلا تريد أن تتجلى لي. ترى أين هي الآن؟ أهي هناك في عوالمها الليلكية القصية، تحرك الأشياء بقوتها من هناك؟ فإذا هي الآن هناك هل تظهر بينهم مثلهم، في مثل هيئتها الليلكية التي تراءت أو ظهرت بها عبر

واجهة المطعم؟ لا عمل لي في هذه الشقة الطائرة! سأرتدي معطفي وأخرج.. فأين هو معطفي؟" إنه واقف هنا أو هناك في الهواء كالفزاعة.. أو كالسراب اقترب منه ويبتعد عني.. وكأنه يسخر مني، وذهبت إلى الخزانة لآخذ معطفاً آخر. وتوقفت قائلاً لنفسي: "أي شيء يمنعه من أن يطير مثل صاحبه أو مثل هذه البيجامة الطائرة فوق رأسي؟" وقبل أن أغادر غرفة النوم رأيته خارجاً قبلي منها.. مرتفعاً عن الأرض، تاركاً الخزانة مفتوحة. طرق الباب ففزعت إليه.

- منذ ساعة وأنا ادير رقمك بلا فائدة.

هي المناوبة حاملة رسالة لي:

- تركها رجل شيخ قائلاً إنها دعوة عجلى.

- ألم يقل شيئاً آخر؟

- كلا، كان متعجلاً بالرغم من تعكزه.

- أهو ذو عكاز أبيض؟

- يبدو أنك تعرفه جيداً.

أغلقت الباب ملوحاً بالرسالة في وجه المعطفين المسحورين فلم يتحركا. وظلا واقفين في الهواء كالهازئين بي أهو شيخ آخر؟ وفتحت الغلاف عن ورقة بيضاء خالية من الكتابة. فجأة عاد كل شيء طائر إلى موضعه "كيف يبعث الشيخ الأبيض برسالته دونما كلمة أو تحية؟

ولا شيء على الغلاف إلا اسمي! فأين هو عنوانه؟ وأين هو

اسمه؟ هل أُدعى إلى عراء أبيض دونما صوى أو عنوان؟ دونما اتجاه؟ ألم يقل للمناوبة إنها بطاقة دعوة؟ فأين ستقام هذه المأدبة أو الحفلة؟ في اللا مكان؟ ولربما لم يرد الشيخ إلا نجدتي كعهدي به! ومهما تكن غايته أو قصده سأحتفظ برسالته في جيبي طالما أنا حي.. أو طالما الصورة على الحائط وأين هي الصورة؟ لم أعد متأكداً من أي شيء! وعلى أي حال، سأحتفظ ببطاقة الشيخ الخالية.. هي حرزي وتعويذتي! إنما أين هي البطاقة؟ أين هي الورقة البيضاء.. وأين هو الغلاف؟ لا شيء في جيبوبي.. لا شيء في يدي الفارغتين إلا من خطوط راحتي. ومن سيقرأ مثل هذه الخطوط العارية غير جدتي؟".

5

لم أزر خبيرة الكتب الصفر إلا في الثلاثاء... تيمناً بالشيخ الأبيض "ألم يسر على ثلاث: ساقيه وعكازته كما قالها أوديب قبل أن يعمى؟" أجلستني مرحبة بي، وسألتني عن زينغا وعن عملها كيف يسير؟ وعن عملي أنا.. بالنبرة المحايدة نفسها! ثم أخرجت من خزانة صغيرة صفراء صدئة كتاباً عتيقاً من كتب "العصور الموغلة في القدم" كما وصفته لي ممتدحة، قائلة بابتسامتها الملتصقة بوجهها المتغضن:

- تصفحه.. ريثما أتفرغ لك.

وانشغلت هي طويلاً، كما لاح لي، بأوراقها المستنسخة أو المخطوطة.. بينما كنت أتنقل بين صفحات الكتاب البالي وسطور مقدمته الطويلة كما تنقل تيرسياس بين حثالة الموتى في أوديسة هوميروس. هي محاورة إغريقية قديمة.. يقول محققها إنها كتبت قبل أفلاطون بزمن طويل!

يدور حوارها بين فيلسوف شيخ وتلميذه الملكي عن الأسبقية بين الزمان والمكان.. بين الروح والمادة، وينتهي الحوار من دون أن يتفقا!

أطبقت الخبيرة صحائفها في ارتياح.. ناظرة إليّ نظرتها المرحبة، قائلة بابتسامتها الملتصقة المريبة:

- أنا الآن رهن إشارتك.

- لن آخذ من وقتك إلا دقائق.. ما يهمني هو أن تعثري لي أو تدليني على كتاب قرأته قديماً. ولم أعد أتذكره في وضوح، يتحدث الكتاب عن حكيم هندي كان يجلس ويتحدث إلى الناس في الهند.. في اللحظة نفسها التي كان يجلس ويتحدث فيها إلى الناس في أوروبا، هل لديكم نسخة من هذا الكتاب؟ أنا لم أعد أتذكر عنوانه أو اسم مؤلفه، وقد جئت إليك مستعيناً بخبرتك وذاكرتك.

- سأحضره بين يديك بعد أقل من دقيقة.

"أين كنت عن هذه السيدة أو الآنسة؟ وهي مهذبة كما يليق بها" ترى فيم التفافها بالسواد؟ أفي حداد هي أم هو ارتياح منها إلى اللون الأسود لا غير؟ ولعلها وجدته أكثر تلاؤماً مع انكبابها على الأزمنة الميتة والأجيال الغابرة من المؤلفين" . لا شجرة تلوح عبر النافذة ولا شيء غير هذه العرصة المهملة.. والجدران الغليظة المرتفعة دونما كوة أو انفراج، وهي كالمنسية هنا.. لا أحد يدخل أو يتلفن، ولا خطوة تُسمع في الممر حتى الآن! أتتني بكتاب صغير ذي غلاف جلدي متهرئ:

- يمكنك أن تقرأه هنا.. أو في صالة القراءة الصغرى، حيث الإنارة الجيدة والهدوء التام، سأمنحك بضع وريقات تسجل فيها ملاحظاتك أو الفقرات التي يهمك نقلها والاحتفاظ بها.

ورأتني أتهيأ للوقوف فقالت ناظرة إلى ساعتها:

- ليس الآن، دعني أضيّفك أولاً.

- حقاً لا أعرف كيف أبدي امتناني وشكري كما يقولون، وأنا لا أريد أن أضيع دقيقة من وقتك.

- لا وقت يضيع مع قارئ متتبع!

فتحت خزانة ثانية وأخرجت ترمساً أصفر وفنجانين، وأخذت تصب القهوة السوداء الساخنة منحنية على الطاولة الواطئة القريبة مني، وقد بدا كتفاها وظهرها أكثر تقوساً واحدداباً. وانتقلت بفنجانها الممتلئ إلى مكتبها الأسود المثقل بملفاتها:

- آمل أن ترضيك قهوتي.

- هي قهوة أصيلة كما ينبغي أن يُقال:

- أهداني إياها مستشرق قدير.. جاء بها من صنعاء نفسها، حيث قضى شهوراً هناك بحثاً وتنقيباً بين المخطوطات. وقد أصغيت مهتمة اهتماماً إلى حديثه عن شيخ يماني معتزل.. دعاه إلى دارته المنفردة، المعلقة عالياً على رؤوس الجبال، مشرفة بنوافذها على الهاوية السحيقة، حيث تترعرع شجيرات القهوة والقات، وهناك في مكتبة الشيخ اكتشف صاحبنا أنه لم يبارح بعد أول صفحة أو أول سطر من تاريخ شبه الجزيرة العربية! هي المعرفة القديمة الزاخرة ما انفكت مبرقعة بظلالها كما تعلم!

وكنت تائقاً إلى التدخين بعد القهوة!

- أتود فنجاناً آخر؟

- شكراً، ليس الآن، بعد أن أعيد الكتاب سنشرب في بوفيه

المكتبة.. لا أريد أن أُفرغ ترمسك وأمامك ساعات من العمل والإجهاد.

- في إبريقي ما يكفي ويزيد.

- سأتذوقها أكثر.. في ما بعد.

- طيب سأسكب رشفة منها لي.

- أتوجد زاوية أو غرفة تدخين قريبة؟

- يمكنك أن تدخن هنا.. الكوة منفتحة.

وناولتني منفضة صغيرة موضوعة على الرف:

- هي لضيوفي.. القلة.

- وأنتِ؟ ألن تدخني؟

- شكراً، أنا لا أدخن.

وبعدئذٍ أدخلتني غرفة عارية الحوائط إلا من صورة تولستوي المعروفة بلحيته وكيسه القرويين، ولا أحد آخر هناك.

- هذه صالة قراءة خاصة.. كما ترى.

وتوارت مغلقة الباب في هدوء. المنضدة الطويلة محتجبة السطح والقوائم بغطاء أصفر ثقيل، والكراسي قليلة متباعدة. وقد ظللت طويلاً أتأمل الكتاب البالي والحروف المعدنية البارزة كالنقوش على غلافه، وأمسك به مترفقاً خوف أن ينفصل الجلد المهترئ أو يتمزق!

كان اسم المؤلف منتزعاً فلم يبقَ إلا آثار الحروف المعدنية الضائعة. وهي آثار ممحوة تقريباً، غير أن العين المتفحصة تستطيع أن تقرأه مكملة النقص الذاهب من أطراف الحروف

الملتوية، هو أقرب إلى هذا الاسم الأدبي المستعار: "الوراق الدهري" وكان عنوان الكتاب لا يدل على غرابته.. أو يوحي بفكرة خاصة عنه: "رحلة الشرق والغرب":

بعد أول صفحة قرأتها صرت أتذكر كل شيء.. كل سطر من سطوره تقريباً: طيران الرجل الاستعراضي فوق بيروت والبحر.. بلا جناح غير عباءته الزعفرانية، واختفاءه عن أعين المتفرجين بين الغيوم.. وتجواله بين القرى أول عهده بالسحر والتنجيم.. قبل رحلاته الغريبة بين العواصم الآسيوية والأوروبية. ولم يكن المؤلف إلا راوية يقص أخبار الرحالة الهندي العجيب، لا شيء من أسرار الحرفة وكوامنها.. لا شيء عن بواطن القدرة التي تجعله يحاور لورداً انكليزياً في قصره الريفي القائم على مقربة من لندن.. وهو واقف بين يدي مهراجا يطل من نافذته على ضاحية من ضواحي دلهي. وأين للرجل الأديب أن يقبض على رياح الهندي الطائر.. أو يغوص بعينيه العزلاوين إلى آبار حكمته الدفينة!

أنهيت الكتاب وأغلقته معيداً إليه أطراف أوراق تقطعت منه، وعدت إلى الخبيرة شاكراً تلطفها معي، فدعتني إلى الجلوس قائلة إنها عائدة بعد أربع أو خمس دقائق. فرحت أتطلع من النافذة إلى العرصة المهملة، أبصرت صبياً راكباً أتاناً طيعة ذلولاً.. أوقفها برهة ناظراً إلي هو الآخر، وانطلق بها مرحاً، سالكاً طريقاً أو منعطفاً لا يبدو لي خلف الحائط الجانبي من المكتبة.

أحسست بالكتاب خفيفاً خفة الهواء في يدي، ولم أبرح

واقفاً عند النافذة أتطلع "ما الذي جرى للكتاب فأمسى أخف من ريشة في يدي؟ أي قوة تمنعني من إلقاء نظرة على غلافه فيتضح كل شيء؟ وفيم أنا واقف عند النافذة أجيل أنظاري في فناء مقفر خال من أي شيء إلا الجدران؟ وأين هي الخبيرة؟ ألم تقل إنها عائدة؟ ولم لا أتحرك؟ ألم أعد قادراً على الحركة والسير؟ هو ذا الليل وأنا واقف في الغرفة المظلمة منذ ساعات! هل أغلقوا المكتبة وذهبوا من دون أن يشعروا بي؟".

6

تلك عصرية غائمة، هادئة الريح، الطريق الرملي الطويل يلتوي بين التلال. لن أدرك المخيم إلا أول الليل، الحمارة تعدو خبباً حاملة إياي، غير مرهقة بصبي في مثل وزني. بين التل والآخر أرى السهول الرملية منبسطة، مترامية.. متموجة أحياناً، لن تعوي بنات آوى إلا مع الهزيع الأول من الليل. والليل لا يهبط إلا بعد حين، حواشي الغيم تحمر حمرة خفيفة عند الأفق الغربي.. عند المجرى الميت، حيث تتسع البرية الضائعة وبعيداً، خلف التلال الشرقية، يجري النهر الكبير يجري هائداً كما أتذكره، والطريق لا يقودني إليه بل إلى المخيم.. والحمارة تشم عبير الخضرة فتدير رأسها شرقاً غير منحرفة عن الجادة.

ثم بدأت الأعشاب ترى حزماً هنا أو هناك والأرض تخلو من التلال، الريح تحمل رائحة القطعان والمراعي.. ونباح الكلاب يُسمع عبر المنخفض، وأنا أرى النيران المشبوبة وأشباح الخيام في العتمة المتزايدة.

استقبلتني امرأة شابة لوحت الشمس بياض وجهها تلويحاً خفيفاً. قبلتني وأدخلتني الخيمة الكبيرة، أحاط بي الأخوال والخالات، وفرشوا الأبسطة الملونة وألقوا بالوسائد. أقبلوا بالتمر واللبن والأسئلة وأنا أبحث بعيني القلقتين عن جدتي، وكنت أشم رائحة القهوة والمسك الفائح، وألمح الأساور

والقلائد المتلامعة وأنا أبحث عن وجه جدتي. وتوهج قنديل آخر، وخف الازدحام في الخيمة، وعلت رائحة الطعام، وتكاثف الليل ظلمة عبر الباب المنفتح وأنا أنتظر جدتي.

أخيراً أقبلت إلي.. أو جاءوا بها إلي غير متوكئة إلا على عصاها.

وقد ازداد ظهرها انحناء.. أما وجهها فلم يزدد تغضناً أو تجاعيد. أقبلت ومسبحتها الطويلة البيضاء في يدها، ورائحتها القديمة، رائحة الجدات، تفوح من حولها محببة، مذكرة برائحة الحقول المحصودة والبيادر الليلية! قبلتني وضمتني إليها واضعة يدها على رأسي، قارئة تعاويذها. وكانت المرأة الشابة البيضاء الملوحة بالشمس قليلاً تجيء بالعشاء وبالمنشفة والماء، تخرج من الخيمة أو تدخلها غادية رائحة. ولم تكف عن الحركة وتجلس إلينا إلا بعد العشاء والشاي.

- أنت تنظر إليها كالمستغرب! ألم تزدد جمالًا؟

قالت جدتي مشيرة إلى المرأة البيضاء مبتسمة، مقربة رأس المرأة منها، قارئة تعويذة ما، ماسحة عليه. ثم التفت إلي:

- حمداً لله أنك عدت! كم من خاطب جاء ورفضت. هي منتظرة عودتك سبع سنين طوال مرت وهي تنتظر. وأنت تدري. هي لم تطلب الطلاق من زوجها وتلح بالطلب إلا من أجلك. وطلقت منه بعد رحيلك بأشهر. حمداً لله أنك عائد إليها.. ولم يذهب ترقبها سدى.

غضت المرأة عينيها متوردة الوجه خفراً.. فقربت جدتي

رأسها منها ثانية، مقبلة وجهها، وضمت يدي ويد المرأة معاً بين يديها قائلة:

- لا شيء ينقص العرس.. غداً تنتصب خيمتكما البيضاء عالية بين الخيم، وتنحر الخراف، وتفوح رائحة الحناء في كل خيمة. ستشهد البادية زفافاً حافلاً كزفاف الملوك.. فمنذ سنين ولا شيء ينقص العرس إلا عودتك، وقد عدت.. فانظر إلى وجهها المبارك وقل: الحمد لله!

تتحدث جدتي عن عرس يقام غداً، وعن خطيبة لم تزل تنتظرني منذ سبع سنين. ألم أكن مع جدتي في هذه الخيمة قبل عام؟ وتريد مني أن اتزوج وأنا صبي صغير! وهذه المرأة البيضاء الخجلى.. أليست هي ابنة خالتي الصغرى؟ ألم تكن قبل عام في مثل عمري؟ أتكبر وتغدو امرأة خلال عام واحد؟ ومتى تزوجت وطلقت؟ وتتحدث جدتي عن سبع سنين كنت غائباً فيها، وعن انتظار هذه المرأة طوال هذه الأعوام كلها. نحن لم نكن مخطوبين إلا خطبة طفل وطفلة. هي كلمة لم تقلها جدتي إلا ضاحكة قبل عام! أنا لم أحضر إلا زائراً مثلما اعتدت زيارة جدتي كل عطلة ربيعية. لم أجئ خطيباً أو عريساً. ألم تقبلني هذه المرأة كما تقبل طفلاً؟ غير أنها خجلى مني الآن محمرة الخدين!.

- الآن افتح صندوقي وأخرج كنزي!

نهضت جدتي متوكئة على عصاها، وخطت محدودبة الظهر كالجنيات الطيبات في قصص الطفولة.. تاركة مسبحتها البيضاء الطويلة في يدي. التفت اليها فرأيتها تفتح صندوقها الأبيض

القديم كما فتحت من قبلها ربة الأحلام صندوقها المقفل.

وعدت أتأمل وجه المرأة الشابة الناصع ويديها النقيتين، متفرساً في عينيها الدعجاوين قائلاً:

- لماذا لا تنظرين إلي؟

- نحن لا ننظر بأعيننا وحدها.

مددت يدي إلى يدها ملاطفاً، قائلاً:

- من أنت؟

- أنا دنيا.

- دنيا؟

- ابنة خالتك.. ألم تعرفني؟

- وكيف لا أعرفك؟

- فلماذا، إذن، تنظر مستغرباً إلي؟

- ازددت جمالاً يا دنيا!

- قيل إنك تزوجت هناك.. ولم أصدق.

- لا أتزوج غيرك يا دنيا.

- وتلك؟

- من تعنين؟

- صاحبة الصورة! وأضافت متذكرة:

- مرة سمعت جدتي تقول إنني لا أخشى عليه إلا من الصورة! من صورتها المعلقة! أما أنا فلم اخشَ عليك إلا من الصقيع.

- هل كنت ترينني في الحلم يا دنيا؟

- كنت أحلم بك عائداً عودتك اليوم!

- أنا لم أرَ وجهاً غير وجهك في أحلامي.

- وتلك؟ ألم تحبها؟

- وكيف أحبها وأنا أحبك؟

فجأة انتبهت إلى أنني أمسك بيد ابنة خالتي كما يمسك الرجل بيد امرأة يعشقها. ألم أعد إلى جدتي صبياً؟ هل هي زينغا تعبث بي؟ لقد كنت قبل لحظات في غرفة الخبيرة منتظراً عودتها.. فأين هو الكتاب؟ كنت ممسكاً به قبل لحظات فأين هو الآن؟ أجل! أنا في خيمة جدتي دونما ريب! وملء عيني العاشقتين عينا دنيا ابنة خالتي! إنما كيف وصلت إلى هنا في لحظة واحدة؟ ألم أصل مع أول الليل راكباً أتاناً؟ من النافذة إلى الخيمة! وهل كنت على ظهر الحمارة صبياً حقاً؟ ترى من طوح بي إلى هنا؟ أهي زينغا عابثة بي؟ ولماذا توصلني زينغا إلى جدتي صاحبة الخاتم الأزرق؟ أم هي فعلة الخبيرة الماكرة؟ ستتضح الأمور في ما بعد! وسمعت جدتي تقول عائدة إلينا :

- هو ذا كنزي.. أهديه دنيا هدية زفافها إليك. وهل تليق هذه القلادة بجيد غير جيد دنيا الناصع؟ وهذه الأسورة والخواتم.. هل تليق بيدين غير يديها النقيتين؟ غداً ترتفع الخيمة البيضاء وتعلو الزغاريد!

وضعت جدتي كنزها بين يدي دنيا.. مقبلة رأسها ورأسي، قارئة عليهما تعويذة خافتة لا تكاد تسمع. وكنت أتفحص الحلى

بعيني بحثاً عن خاتم يشبه خاتمها القديم المختار.. فلم أر مثله ولم تسألني جدتي عنه فهي، إذن، لم تبعث به إلا هدية لدنيا الأُخرى عطفاً منها وطرداً للأذى عن المرأة الشابة! وأنا ماذا أهدي ابنة خالتي! اتضح أنني لم أجيء مسافراً بلا متاع كما تقول مسرحية ما.. تلك هي حقيبتي تلوح! فتحتها متخوفاً من أن أجدها خالية من أي شيء يُهدى.. فأراحني أنها مثقلة بطرائف الجهات الشمالية متى اشتريتها؟ ومن أي مخزن؟ وهل أدري كيف وصلت إلى خيمة جدتي فأسأل؟ أبهجت الهدايا جدتي وابنة خالتي، وأبهجتني أنا أيضاً تقبيلة دنيا لي، وكنت أسمع نباح الكلاب عند أطراف المخيم، والخيول عائدة ببعض رجاله، وكانت رائحة المسك لم تزل شائعة في أرجاء الخيمة الرحيبة، والبخور يُشم دانياً كأنفاس طفلة.

سألتني جدتي عن كل شيء إلا عن الخاتم.. وعن زينغا ودنيا الأُخرى! وكنت أقص أخباري ودنيا تصغي باهتمام قابضة بيدها على حنكها، بين الحين والآخر، مثلما كانت تفعل ونحن نصغي قديماً إلى أقاصيص جدتي في الليالي الشتوية، وكنت أرى الخواتم تتلامع بفصوصها.. والقلائد والأساور تتوهج على البساط الأحمر ألم تتبعنا زينغا إلى هنا حائمة حول الخيمة؟ لا شك أنها عالمة برحلتي هذه، ولربما هي الآن تترصد خروجي من الخيمة فتضع بين يدي غليونها المفضض عددت الخواتم بعيني فوجدتها سبعة فقلت:

- بعدد أيام الأسبوع.

فأوضحت جدتي:

- كل خاتم يخص يوماً محدداً من الأيام السبعة.

وأسرعت دنيا قائلة:

- اختر أياً منها.

- كلا. لن أنقصها واحداً.

- وأي فرق؟ ستعيرني إياه كلما هل يومه!

- هي سبعة. لتبق سبعة كما هي.

- إذاً، سآتيك بخاتم لم أزل محتفظة به لك.

وأتتني بخاتم يتوقد فصه الياقوتي توقداً! فنظرت جدتي الي نظرة خاصة أدركت منها أنها لا تريد أن أذكر الخاتم الآخر بشيء، فقلت:

- ما أبدعه خاتماً!

- لم أنقش عليه إلا الحرفين الأولين من اسمينا.

- سأضعه في اصبعي الآن.

وكنت أنتظر الساعة التي تأوي فيها دنيا إلى فراشها فأسأل جدتي حذراً.. فقد تبوح لي بشيء ما، بلمحة ما عن مملكتها السرية الكامنة كما يبدو في حبات هذه المسبحة البيضاء الطويلة ولعل الشيخ ذا العكاز ليس إلا حبة من هذه الحبات أو هو مختبئ بعكازه في إحداهن! فإذا ذكرت الغليون المفضض قائلاً: "إنني اشتريت، مرة، غليوناً طريفاً يخرج الدخان أخيلة وأطيافاً.. وأضعته" هل تتفضل علي جدتي بفكرة مفيدة عن أسراره وأعاجيبه؟ أظنها ستدرك حيلتي حالما أتفوه بها! وهل سمعتها مرة تقول أي شيء عما يدور خلف القشرة الظاهرة من

مملكتها المحجوبة؟ ونحن لا نعرف إلا أدعيتها وبعض تعاويذها.. وقراءتها خطوط الكف. وهذه الكتب المخبأة في صندوقها لا تقول لي شيئاً واضحاً بالطبع. وهل أنا قادر على تحريك مغالقها وفك طلاسمها؟.

ثم جرى الحديث مجرى آخر. تحدثت جدتي طويلاً عن طفولتي وطفولة دنيا.. عن حمار أبيض صغير كان أعجوبة لي! فلما كبر الحمار لم أنل ظهره مركباً إلا دنيا.. وعن الغجر الرحل المتنقلين تنقل المخيم، وتعلقي المحموم بصببة منهم أتعني زينغا؟ من يعرف! وعن الأنهار الكبرى الجافة والقصور المهجورة.. عن الحدائق الميتة والأسوار المحطمة.. عن المراعي اليابسة والضفاف الخضر.. وعن الرياح التي تقتلع الأشجار والخيم، واللقالق التي تعشش على رؤوس المنائر والأبراج.. عن العرائس التي تأسر البحارة بضفائرها، وعن البيادر والحصاد.. ولا شيء عن العكاز الأبيض!

- جدتي!

- ماذا يا دنيا؟

- سأهيء شاياً آخر.

- ثم اجعليه ثقيلاً لي.

- لم تمطر السماء بعد!

- إنها تمطر الآن.

ولم نكن نسمع، أنا وابنة خالتي، وقع المطر على الخيمة

أول الأمر.. ولربما لم يكن إلا رذاذاً ناعماً فلم نسمعه، غير أن المطر أخذ يتساقط واضحاً بعد قليل، فابتسمت دنيا لي:

- جدتي تسمع جيداً كما تذكر!

حتماً ستقرأ كفي أو تمنحني تعويذة أو خاتماً وأبرقت السماء خلال المدخل المنفرج وأرعدت، وانهمر المطر انهماراً. ثم هدأ كل شيء! هدأ الليل إلا من نباح الكلاب بين الحين والآخر.. أو صيحة طائر يعبر خائفاً، مسرعاً. وكنت انتظر الساعة التي تأوي فيها دنيا إلى فراشها.. عل جدتي تسألني عن دنيا الأُخرى وعن زينغا، وتنصحني حرصاً عليّ وتحذيراً عما قد يحدث لي! غير أني نعست قبل أن تنعس دنيا، فأعدوا فراشاً وثيراً لي ورقدت.

وصحوت من نومي مع صياح الديكه وثغاء الأغنام.. وأنا في غرفة لا في خيمة. أنا في غرفة خبيرة الكتب الصفر أتطلع واقفاً عبر النافذة إلى العرصة المهملة.. انقطع صياح الديكه وثغاء الأغنام تماماً الآن، ولم يزل الكتاب في يدي مثلما كان.. قبل أن يخف كريشة!

- أنا لم أتاخر إلا أربع دقائق كما قلت.

فأعدت الكتاب وشكرتها مرة أُخرى.

- ألا تريد أن تجلس؟

- لن آخذ من وقتك أكثر مما أخذت.

- ما أبدعه خاتماً!

- لم أخرجه من جيبي إلا الآن.

وخيل لي، وأنا أجتاز الممر إلى الباب فالشارع، أنني أسمع ضحكة زينغا. إنما لا.. هي امرأة أخرى تضحك في إحدى غرف المكتبة. أما الخاتم فهو خاتم ابنة خالتي الياقوتي.. أهدتني إياه البارحة وأنا في خيمة جدني.

7

لماذا لم تحتفظ جدتي بي؟ كنت معها في خيمتها فلم تنصحني، ولم تقل لي كلمة عن زينغا وغليونها وكنت أسمع الضحكة وأنا في الشارع. وسمعتها وأنا في الحافلة بين الناس هل هي زينغا تسخر مني وتهزأ بي؟ أم هي الخبيرة الحدباء.. فأرة الكتب البالية؟ وأما الخاتم المتوهج في اصبعي فلم تعطني إياه ابنة خالتي إلا البارحة. إلى أين أنا ذاهب الآن؟ إلى شقتي؟ وماذا أصنع في شقتي؟ سأترجم غداً طيلة النهار؟ فإلى المقهى الجانبي، إذن، وإلى البونش والقهوة. وبعد الخامسة أتصل بدنيا ونتفق...

هبطت من الحافلة بعد موقفين سأقطع المسافة المتبقية ماشياً.. أريد أن أتحرك وأحرك أفكاري. لا أرى في الواجهات المضاءة إلا وجه زينغا ! وهذه المانيكان المزهوة في زيها الأصفر.. ألا تشبهها؟ وهل تتغير صورتها وتتحول عند دخولي الشقة وقد صار هذا الخاتم في حوزتي؟ ما هو بخاتم من خواتم جدتي. هو خاتم ابنة خالتي، أهدتني إياه هدية عرس! وهل يصلح غير تذكار أو زينة؟ وكيف يصلح تعويذة والضحكة تعلو وتطول رغماً عنه ها أنا أسمعها واضحة خلفي، وهي ضحكة زينغا نفسها.. آتية إليّ من مخزن عصفورة النار!

التفت إلى الخلف فرأيت المانيكان تضحك في وجهي كالساخرة أو كالشامتة، وأنا أسمعها في وضوح ألا تشبه زينغا شبهاً تاماً؟ أو هي زينغا نفسها متحولة إلى مانيكان وقفت طويلاً محدقاً إلى وجهها الطفولي، وإلى عينيها الذهبيتين وشفتها السفلى الممطوطة، بل عرضت الخاتم عرضاً أمام عينيها فما ازدادت إلا ضحكاً.. لماذا لم تنصحني جدتي أو تحتفظ بي؟ أم أنني لم أترك النافذة ولم أدخل الخيمة؟ فمن أين جاء هذا الخاتم حاملاً الحرفين الأولين من اسمي واسم ابنة خالتي؟ فإن لم تكن الرحلة إلى خيمة جدتي إلا لعبة افتعلتها الحدباء.. فما هو قصدها؟ وهل تصحو الديكة والأغنام تحت نافذة مكتبة عامة؟ أجل. سمعتها بأذني هاتين عند نافذة الخبيرة.. ولم تنقطع إلا بدخولها. إلى متى أبقى محملقاً وهي تضحك؟.

قبل أن أبتعد عن الواجهة خطوة بدا لي أنني لمحت الشيخ الأبيض ماراً عن قرب، معتمداً عكازته هل كان أسرع مني فاختفى قبل أن ألحق به.. أم أنني لم أر إلا طيفاً عابراً تراءى لي؟ مهما تكن الرؤية.. فقد كفت المانيكان عن الضحك والسخرية، ولم تعد إلا مانيكاناً في واجهة. لم تعد تشبه زينغا !

سرت في اتجاه الفندق الرمادي قاصداً المقهى الجانبي، وتوقفت فجأة قائلاً لنفسي : فإذا عدت إلى الواجهة.. هل تغير المانيكان هيأتها أم لا؟ عبثاً أجهدت قدمي.. حالما أبصرتني عائداً اتخذت وجه زينغا متعمدة، وأخرجت لسانها لي ! بل هي تنزع الآن أثوابها عنها.. راقصة لي رقصتها العارية، وكأنما هي تذكرني برقصات الربيع الفردوسي في غرفتها الزرقاء هل يراها الناس عارية كما أراها الآن؟ وأي فرق؟ ألم يشاهدوا، بين

الحين والآخر، مانيكاناً عارية.. ريثما تُكسى بحلة جديدة؟ فإذا دعوتها إلى المقهى.. هل تخترق الزجاج من غير أن تكسره، كما اخترقت المرآة، وتتأبط ذراعي؟ وقبيل أن أدعوها هازئاً بها ارتدت أثوابها، وابتعدت عن الواجهة واختفت في المخزن.. ثم خرجت، بين الخارجين من المخزن إلى الشارع، مشيحة بوجهها عني كالغضبى!

لم تكن فتاة حية نابضة. لم تكن إلا مانيكاناً مثلما كانت طيلة الوقت.. بقوام زينغا ووجهها. كانت صامتة، جادة غير مسرعة الخطوة.. سائرة في اتجاه الفندق الرمادي كما يبدو، أو في اتجاه المقهى الجانبي نفسه حيث اتجه أنا ! ترى ماذا ستطلب وتشرب؟ فجاة بدت مرتدية معطفاً أخضر داكناً، معتمرة قبعة صفراء من أين جاءت بالمعطف والقبعة؟ فأجبت نفسي قائلاً : من المخزن بالطبع! اقتربت منها شاداً على يدها شدة مودة لم تكن إلا خشباً. سحبت يدها قائلة :

- لا وقت عندي.

كما تقول فتاة شارع.. ألا يسير الخشب ويتكلم ألا يتحدث الراديو ويتحرك الإنسان الآلي ويعمل؟ اجتزنا المعبر السفلي إلى الفندق صامتين. ودفعت لها الباب لتدخل قبلي. أسلمت معطفها وقبعتها إلى شيخ المشجب، وخطت إلى المرايا كأي امرأة تصلح زينتها أو تسريحتها قبل الجلوس في المقهى! الموائد غير مكتظة بعد، والأعين غير آبهة إلا لوجهها الفاتن وأناقتها الجلية ألم يدركوا بعد أنها دمية لا غير؟ في هذه الأثناء دخلت المقهى مجموعة من زبائنه شغلت أغلب الأمكنة الفارغة.

سبقتها إلى المقهى.. تاركاً علبة سجائري فوق المائدة الخالية الوحيدة.. وعدت إليها بالقهوة والبونش. فلم يبقَ أمامها إلا أن تجلس قربي أو بين تلك الأوجه الثملة منذ الآن حيث يخلو مقعدان أو ثلاثة. وكانت كالمترددة أول الأمر.. واقفة بقهوتها وبونشها. ثم انثنت نحو مائدتي طالبة السماح بإشارة من رأسها. واقتعدت أبعد كرسي مظهرة البرود والتحفظ !

وصرت أطيل النظر إلى أصابعها الخشبية وهي ترفع القدح وإلى شقتيها الخشبيتين وهما تمتصان البونش من خلال القشة ! وقلت كمن يخاطب نفسه متذكراً تكرار هذه العبارة عند توفيق الحكيم! :

- نِعم البونش شراباً !

فبدت وكأنها لم تسمعني فأضفت :

- هنا يعدونه أجود من أي مقهى آخر.

فلم تتلفظ بكلمة، فقلت :

- أظن أنك كنت في مخزن عصفورة النار !

- كنت.. أتجول.

- يبدو أنه مخزنك المختار.

- وهل يهمك من أين أشتري أو أبيع؟

- هو ملبسك !

- وما له ملبسي؟

- واضح أنه من معروضاتهم.

- أهداني هذه الثياب أحد أصحابي.

- وكلهم أثرياء وكرماء مثله؟

- وهل تباع الحاجات بغير أثمانها؟

- كم كلفة هذه البدائع؟

- قل أولاً.. كم تدفع أنت !

- ألديك.. غرفة؟

- فوق المخزن شقة.. للفتيات.

- أهن من بائعاته؟

- وأي أهمية للأمر؟

- يهمني أن أتعرف ببائعة فيه وأضفت متعمداً :

- إنهن كبائعات الكتب أو الخبيرات بالخبيء المجهول منها.. يكشفن لنا عن الجيد المحجوب من البضاعة.

- أعرف بائعة هي خير دليلة إلى المخابئ السرية الحافلة من المخازن.. سترحل بك رحلة عجيبة إلى مملكتها الخلفية!

- كمن يدير خاتماً.. فتنفتح أبواب بعد أبواب !

- واضح أنك ذو خبرة بفتحها ! ألم تجرب خاتمك الياقوتي هذا مرة بإزاحة الحجب.. والعثور على المسبحة البيضاء الطويلة؟

- أين قرات هذه الحكاية؟

- يمكنك الحصول عليها في أي مكتبة !

- من غير أن أستعين بخبيرة؟

- وهل يصعب على فتى متبحر مثلك استخراجها من أي رف؟ ولماذا البحث والتنقيب؟ ستجدها معروضة بين كتب الأطفال.

وسألتني كالساخرة :

- ألم تقرأها في طفولتك؟

- اسطورة المسبحة؟

- وعم كنا نتحدث؟ أنا شخصياً لم أقرأ في طفولتي حكاية أبسط وأوضح من حكاية المسبحة البيضاء الطويلة !

وتلمست يدها الخشبية قائلاً :

- يداك باردتان.

- فوق المخزن.. أنا العصفورة المفضلة !

ما الذي يجعلها تصطنع هذا الدور معي، دور فتاة شارع؟ هل تريد أن تجرني إلى الشقة المشبوهة سخرية وتوريطاً؟

- أهو اسمك أم اسم المخزن؟

- عصفورة النار؟

- أجل. عصفورة الجنة والنار.

- هو اسمي الفني.. وأطلقوه على المخزن.

- وعلى الشقة؟

- وأي فرق؟ لم تقل بعد كم ستدفع لي.

- سأترك كيسي مفتوحاً لك.

- أهو ممتلئ؟

- كمعدة جمل!

- أو كمعدة حمارة! هل نذهب الآن؟

ونظرت إلى ساعتي :

- كلا.. ليس الآن.

- أينتظرك مقهى آخر.. أو دنيا أُخرى؟

- بل صحائف تترجم طيلة النهار والليل!

- أنصحك باقتناص الطائر قبل أن يطير.

- سأعثر عليك عند الواجهة.

- يتحتم عليك، إذن، أن تمر يومياً على الواجهة.

- ألن تظهري غداً هناك؟

- أنا اتنقل حرة كالعصافير!

- ستدلني البائعة اليك.

- وأبرز خاتمك لها. لن تدخلك بغيره.

- هل سيغلق المخزن غداً؟

- أنا أعني الشقة.

- ألن تفتح إلا للخاصة؟

- لن ندخل أحداً عداك غداً.

واشتعلت عيناها ذهباً بارداً :

- سنحتفل احتفالاً لا يليق إلا بك! ألن تبتكر لعبة تحتجزني أو تؤخرني عن دنيا؟ وسمعتها تضحك ضحكة الشارع.. إنما في خفوت، ناظرة في ما حولها:

- الشيوخ! الشيوخ!

- ما لهم؟

- مع أنهم لم يعودوا يمشون إلا متوكئين على عصيهم.. إلا أنهم

يتحرشون بالبنت تحرش الصبي اليافع! لا أخطو خطوة واحدة على الرصيف من دون أن يكشف لي أحدهم عن محفظته البيضاء المنتفخة!

- هل لوح بها أحدهم الآن؟
- بل غمز بعينه الضليلة رافعاً حاجباً أبيض كذيل الهر!
- لا أرى شيخاً في المقهى.
- أنا لم أقل هنا.
- فأين تراءى لك؟
- بين المعاطف.. محملاً بها.
- أهو صاحبنا.. أمين المشجب المسكين؟
- هو.. أو غيره.
- ابتعدي، إذن، عن الأرصفة.
- وهل تصاد قبرة الشارع بعيداً عنها؟

ونظرت إلى ساعتي ثانية.. فلم أر بداً من النهوض :

- أعذريني.. آن أن اذهب.
- ألن توصلني حتى المخزن؟
- أعائدة أنت إليه؟
- وأنت؟ ألن تدخله معي فقد تحلو لك بيجامة تطير بك سروراً؟ وقد تغير رأيك فنصعد معاً. لن أقبض منك الليلة، إلا أجرة التكسي.. لا تخش شيئاً من أصابعي الباردة أو ضحكتي المقرورة. أنا عصفورة النار! أنا زينغا! ألم تسمع باسمي؟ ألم تصلك شهرتي؟ أنا أشهر فتاة شارع!

أدهشني منها امتلاء عينيها بالدموع الحارة المتساقطة غزيرة على يدي، وكنت أمسح القطرات عن وجهها الخشبي بلطف. وامتلأت عيناي أنا الآخر بالدموع فمسحتها.. وحين فتحت عيني لم أجد زينغا أين هي؟ أين اختفت فجأة بساقيها الخشبيتين وأدمعها المنهمرة؟

لم يكن الخاتم نافعاً، اذن، إلا تذكاراً فإذا هي ذكرى زائفة؟ وما أدراني أنا؟ ربما كنت، حقاً، عند جدتي وجرى ما جرى من الأحداث مثلما أتذكر.. بقوة جدتي أو بقوة الكتاب، وأعادتني زينغا بقوتها! إلا يحمل الخاتم الحرف الأول من اسمي منقوشاً مع أول حرف من اسم دنيا؟ فلماذا لا أحتفظ به؟ فإذا سالتني دنيا عنه وعن الحرفين سأذكر لها حقيقة الحرفين مثلما هما منقوشان بلغتي، بل سأعلمها بعض أبجديتنا فتقرأ النقش بنفسها! وأقول إنني كنت محتفظاً به أو إنني اشتريته أرشدت الصائغ راسماً الحرفين له. وأما سخرية زينغا منه فما هي إلا تضليل منها! ألم تشككني بالرحلة كلها؟ هل أركب المترو فيدور بي من دون توقف.. أم أركب الحافلة فتطير بي إلى الضاحية النائية فأتاخر عن دنيا؟ لِم لم تضع جدني، خفية عني، خرزة فتدفع عني، في الأقل، طارئاً يؤخرني عن موعد أو بائعة تتشبث بي؟ ترى هل حملتني الحمارة إلى المخيم أم لم تحملني؟ أين هو الطريق إلى النور؟.

لم يطرأ عائق في المترو، ولم أتاخر إلا قليلاً. ربما هي دموعي جعلتها ترفق بي! كل ما حدث هو أنني سمعت الضحكة في العربة.. ودخلت الحدباء فجاة عند توقف المترو في المحطة الثانية بعد محطة الفندق، وغادرت مسرعة، ضائعة بين الناس

بعد محطتين. أخبرتني أنها لم تعد تتذكر أين وضعت الكتاب! في الخزانة الخاصة بأمثاله من النفائس.. أم في خزانتها هي حيث تحتفظ بخواصها؟ ولم تكن محزونة أو آسفة، بل هي تضحك ضحكتها القصيرة المكتومة، ملقية على الخاتم المتوقد حمرة على اصبعي نظرة الفاحص المعجب :

- بيدي هاتين وضعته.. وأدميتهما بحثاً عنه فلم أعثر عليه. أين طار واختفى؟ لا أحد يعلم! ربما استعاده الهندي الطائر! لم يجد فائدة من إبقائه بين أيدينا نحن المتفاخرين برحلة الصاروخ إلى تابع ذليل للأرض.

بالطبع أنا أمزج. إنما المحير في اختفائه أنني أعدته بيدي إلى أحد الموضعين وأقفلت عليه بمفتاحي، وتذكرت أنني لم أقرأه مجدداً منذ أعوام فأحببت أن أتصفحه فلم أجده. أين توارى؟ من أنبتَ له أجنحة فطار؟ لا تنسَ.. زرني في أقرب فرصة تتاح لك. فقد يفاجئه أحد ما.. متخفياً، نائماً في وكره فنضحك.

وحين خرجت إلى الشارع لم أعبره إلى بيتي.. بل انعطفت وسرت بعيداً كمن يسير نائماً في اتجاه آخر. ولم يذكرني بطريقي الخاطئ وخطواتي التائهة إلا امرأة عجوز سألتني عن الساعة! وجدت الصورة في إطارها الأصفر الباهت، فاقتربت منها متسائلاً، جاداً في توجهي إليها :

- ماذا سأحمل غداً معي من أشربة؟

وهي صامتة غير ناظرة إليّ.

- ألم تتحدثي عن حفل يقام غداً عندكن هناك؟

فلم تجب بشيء!

- هل يصح أن أدخل فارغ اليدين؟

مطت شفتها السفلى مطاً زائداً ولم تفه بشيء أيضاً.

- ألن تتلفظي بكلمة؟

هنا تحركت شفتاها عن ابتسامة سريعاً ما استردتها.. ناظرة إليّ هذه المرة، ناظرة إلى الخاتم نظرة طويلة، نظرة متكبرة هادئة. فجأة سمعتها تضحك ضحكة الشارع تلك، ضحكة لم تنقطع إلا برنين التليفون :

- أنا ذاهبة لأشتري حليباً.. هل تريد مقداراً منه؟

- سأنتظرك قرب المخزن.

- سأصله قبلك. هو أقرب إلينا.

أفرح دنيا إيضاحي عن الخاتم فأسرعت تقول :

- خذ خاتمي غداً إلى الصائغ فينقش عليه اسمينا.

- قد يخطئ هذه المرة فيشوهه.

- كلا. إنهم مهرة.

وكنت أخشى أن يضيع الخاتم أو يفقد بعض قوته الخفية.

- مع هذا. أنا أذكر أن جدتي حذرتني، مرة، تحذيراً لا يُنسى :

إياك أن يتعرض لأي خدش.. سيضر بتماسكه فيتفطر وهو حجر غريب لا يعرف كنهه أحد، إسألي أي صائغ أو خبير تجديه عاجزاً تماماً.

- فعلاً هو غريب بزرقته وتألقه! ربما انفصل عن نيزك ما وعثروا

عليه في إحدى الحفر.. ألا ترمي الشهب أحجاراً وشظايا على الأرض؟

- فلعله منها كما قلت. ما رأيك في نزهة صغيرة؟

- في السابعة أو بعدها بقليل.

- سأنتظرك عند المترو.

- ولماذا هناك؟

- أود أن نتعشى في مطعم لم يدخله أحدنا من قبل.

- وأين هو المطعم الذي لم تكتشفهُ أنت بعد؟

- أنا لم أعتد إلا على أمكنة معدودة.

- أما أنا.. فلدي اقتراح.

- ما هو؟

- دع المطعم لليلة الأحد.. وتعال معي إلى البيت.

تلك الليلة لم أشرب إلا نبيذاً خفيفاً. هو حرصها على صحتي من السهر الليلي المتكرر والأشربة القوية.. فصحوت قبلها لأول مرة. انشددت إلى مكتبي أترجم حتى الحادية عشرة.. ساعة الغداء معها في المطعم الصغير المجاور، وعدت أترجم الصفحة تلو الصفحة حتى الخامسة. لم أفتح، هذه المرة، غير علبة بيرة قبل الغداء، ولم أذق بعده غير القهوة. إنزاح تعب النهار مع الماء الدافئ، وارتديت حلتي السوداء تهيؤاً للحفل!

قبل أن أدخل المخزن حييت المانيكان بانحناءة من رأسي.. فردت تحيتي جادة، آخذة هيأتها الاستعراضية المزهوة، مرتفعة بوجهها، رادة إياه قليلاً إلى الوراء. لم تضحك ولم تغمز، ولم

تشر لي بنظرة أو حركة غير انحناءة رأسها التي لا توحي بشيء أكثر من رد على تحية.

المخزن فاره فسيح.. بأجنحة وطبقتين.. وقد أخذ يزدحم بالناس ازدحامه المتزايد أول ساعة من الليل. الثريات تتدلى متوهجة، وأمينات الصندوق يعملن من دون توقف. الدواليب تدور بالأربطة، وأيدي النساء تختبر الأقمشة و تروز الثياب!. البائعات، في زيهن الأصفر، يتكلفن الأهمية والجدية. أي بائعة أسأل منهن؟ اخترت أكثرهن تكلفاً وتباهياً. حييتها بانحناءة من رأسي صامتاً، مظهراً خاتمي لها. أحنت رأسها المتكبر لي خفيفاً وشملت معطفي الفاخر بنظرة خبيرة، وابتعدت بوجهها الجميل الصارم عني قائلة وكأنها تخاطب غيري حرصاً على السرية والغموض! :

- بعد الإغلاق.

- ومتى؟

- ألا تعرف؟

- كلا.

- في التاسعة.

لم يزل الموعد بعيداً.. وأنا أتسكع عند هذه الواجهة أو تلك ولماذا أجهد قدمي منذ الآن؟ سيطول الرقص الليلة، وتطوح الموسيقى بنا إلى الأرض تعباً وإنهاكاً! دخلت مقهى صغيراً كالبوفيه وطلبت شمبانيا. لم أكن أتوقع مزحة ما قبل السهرة. ففوجئت بضحكة غريبة تتكسر ملء المقهى الضيق. التفت متحفزاً فلم أر إلا النادلة البدينة تهتز ضاحكة مع زبون

مرح! لن يفرغ المخزن تماماً ويوصد إلا بعد التاسعة. سأدع عشر دقائق تمر قبل أن أصله .

الواجهة خالية من المانيكان، والباب مغلق. والسابلة تسير في اتجاهين تحت أضواء الشارع المتوهجة.. تحت أشجاره المتجردة وشرفاته العالية، المطلة بأسودها البيضاء وشيوخها الرومانيين.

ظللت واقفاً دقيقتين وكأنني أتفرج على الأطرزة. ثم انفرج الباب الثقيل انفراجاً ضيقاً، وامتدت يد منه داعية إياي إلى الدخول. أقفلت المرأة الصفراء صاحبة اليد الباب إقفالاً محكماً، وسبقتني خطوتين إلى الداخل. ثم انعطفت نحوي باسطة لي يديها الاثنتين، طالبة أن أتقدم إليها، ضامة شفتيها على قبلة سخية. فلما رأتني متردداً أومات برأسها أن أتبعها. كانت مرتدية زي جارية أو أميرة تترية متبسطة.. الثريات والمصابيح مطفأة في المخزن.. إلا هنا أو هناك في أركانه المتباعدة، وفي الظلال منها تبدو الثياب المعروضة المعلقة كالأطياف أو كأشباح النسوة المنتظرات، في الليل، عند مدخل مطعم موشك أن يقفل أو على رصيف محطة يكاد يخلو إلا منهن ومن الخطوات الثملة، المتسكعة بحثاً عن المتعة الليلية العابرة حيث يعلو الضباب الطرقات وتضمر الإنارة إلا ذبالاً يضطرب أو قنديلاً منكفئاً على نفسه! وكنت أحس بكوع المرأة المتقربة مني بارداً، يابساً كالخشب! السكون العميق يعم المخزن.. لا أصوات الشارع تتسلل إليه، ولا شيء يتحرك إلا أنا والمرأة.. وقد بدا وجهها الجذاب، تحت مصباح السلم مطلياً بأصباغ مكثفة تذكر بوجه لاعبة سيرك قد يرى مثل هذا

الوجه، أحياناً، في هذه المدينة.. في سيارة أجرة تذرع الشارع في الساعات الأخيرة من الليل.

انتهى السلم الأصفر صاعداً بنا إلى الطابق الثالث بين الحوائط الصفر دونما كلمة مني أو منها. وانفتح الباب من دون أن نطرقه عن المتكبرة منحنية لي، هذه المرة، انحناءة واطئة كامرأة يابانية مهذبة! دخلت شقة ليست كالشقق، هي خيمة غير منفتحة هنا.. وأُرجوحة فسيحة كالسرير الوثير، مسقوفة بمظلة كبيرة هناك.. أو غرفة ضيقة، مضاءة بقوة، ينفتح بابها وينغلق عن سرير لا تتسع الغرفة إلا له.. وفسحة دائرية هي البهو والممر إلى الشقة، تتناثر فيها الكراسي الحمر والطاولة الحمراء الصغيرة.. طاولة الطفل تناثرها في غرفة زينغا.. إلا أن جدران الفسحة أو البهو مصبوغة بالطلاء الأصفر. كان البهو خالياً أول الأمر إلا من المتكبرة أجلستني قريباً من الطاولة، ودخلت الخيمة مزيحة بابها القماشي، رادة إياه بعدها. أما المرأة الصفراء فقد انحنت بين يدي انحناءة طويلة.. ثم فتحت باباً سرياً تدخله وتعود منه، بين الحين والآخر، بالفاكهة الغريبة والكافيار والأشربة الكحولية القوية. ثم جاءت البائعات لا أدري من أين؟ وقد ارتدين سراويل ضيقة وقمصاناً عريضة لها اللون الأصفر نفسه تبدي هنا وتخفي هناك أعطافهن الخشبية.. يأخذن بيدي إلى الرقص أو يجلسنني إلى الطاولة. وأختصت المرأة الصفراء بملء قدحي وتقديمه لي.. أو الترويح عني بمروحة يابانية خفيفة، وبين الرقصة والرقصة تترع الفتيات كؤوسهن ويتجرعن الخمرة القوية ببطء وتلذذ.

لم تخرج المانيكان إلا بعد ساعة.. تتبعها المتكبرة.. خرجتا

من الخيمة صامتتين في مثل غموض المتآمرين. هي في زيها الاستعراضي الأصفر وبتخشبها وبرودها. وكانت الأخرى مرتدية زي البائعات. وعندئذٍ كفت الفتيات عن رقصهن الخشبي، وأعدنني إلى الطاولة حيث تجلس المانيكان مادة يدها إلى القدح بين الحين والآخر. وانضمت المتكبرة إلى البائعات مشرفة على سير الحفل.

- ينبغي أن تغير النقش على الخاتم.

- هكذا أُهدي لي.. فلماذا أغيره؟

وأضفت قابضاً على يدها الخشبية :

- الم تنقشيه أنت؟

- أنا لا أجيد إلا كتابة اسمي.

- واسمي؟

- ومن أين أعرفه إلا منك؟

- ألن ترقصي؟

- لن أرقص إلا الرقصة الأخيرة!

- منذ متى.. وأنت تزورين هذه الشقة؟

- منذ الربيع الفردوسي!

وبحثت عن علبة سجائري في جيبي.

- عم تبحث؟

- عن علبة سجائري.

- ألم تجدها؟

- يبدو أنني أضعتها في الطريق.

- لا تحزن.. ستجيئك التترية بغليوني.

هو ذا غليونها المفضض بنقوشه الغريبة.. أقبلت به الصفراء موقداً، عابقاً، وانحنت به لي وكنت أدخن به فلا أرى إلا الأدخنة.

- وأنت.. ألا تودين أن تدخني الآن؟

- في ما بعد.. ألم ترتح إليه؟

- أنا أفضّل لفافة تحترق بين يدي.

- وترمي بها كما ترمي بامرأة لم تعد تريدها!

- وهل تخلو شقة كهذه من علبة سجائر؟

- ألم يخلُ جيب مدخن مثلك منها؟

- علها في جيب معطفي.

بحثت عن معطفي فوجدت المرأة الصفراء ترتجف برداً متدثرة به، مقرورة كزوجة القديس فرانسوا الثلجية، قابعة على درجة من درجات السلم، والريح القاسية تندفع من النافذة المفتوحة.

- لماذا أنت هنا؟

لم تنطق بكلمة.. بل مدت ذراعيها، وقربتني منها برقة مقبلة وجهي بشفتيها الحارتين وكأنها تقبل طفلاً. وكانت يداها الخشبيتان باردتين برودة غريبة، برودة السلم أو الحائط.

- تعالي معي إلى الداخل.

وكنت أهمس بلطف متأثراً بتحننها وعطفها :

- تعالي.. لا يجوز بقاؤك هنا.

أدخلتها الشقة واضعاً ذراعي على ظهرها، وهي تسير طيعة، لائذة بوجهها إلى كتفي، وكنت أشم رائحة المخزن العطرية تفوح ملء ثيابها التترية.. ملء شعرها الآسيوي الكثيف. بادرتني المانيكان قائلة :

- تفضل الخيمة أم الأرجوحة؟

- الخيمة.

أرقدت المرأة المقرورة على سرير الخيمة ودثرتها بمعطفي، وخرجت مسدلاً من خلفي ستارها القماشي على الباب. وقبل أن أجلس إلى الطاولة قالت المانيكان :

- كنت منجذباً إليها.. فلماذا لم تبق معها؟

- لم أُرد إلا مساعدتها.

- إذاً خذ المشرفة إلى الغرفة أو الأرجوحة.. أنت حر!

- ألم تدخني بعد؟

- سأدخن. خذهما إلى الأرجوحة. إنها تفضلها.

- وأنت؟ تفضلين الغرفة؟

- بل غليوني. أنصحك بها. واختر أياً من الأخريات في ما بعد. إنها تنتظر. لا تصح إطالة انتظار امرأة راغبة.

- ألم تتحدثي في المقهى عن المال؟

- وأنت قلت : سأترك كيسي مفتوحاً.

- فهي، إذن، لا ترغب إلا به!

- كلا. هي تريدك.. وتريد نقودك أيضاً. ألم أكن صريحة معك في المقهى؟ ألم قل كل شيء؟ لا تتردد.. خذ أياً منهن.

- وأنت؟ ألن تأخذي غليونك؟

- طيب. أجلس، إذن، ودعنا ندخن!

كنت أرى الأدخنة أول الأمر وجوهاً وأذرعاً.. غير أنها طفقت، بعد حين، تتشكل أطيافاً بديعة تُفتتن العين بها افتتاناً.. أطيافاً خضراً وصفراً لها أوجه وأذرع وأرجل.. لا تطأ الأرض بل تحلق تحليقاً.

خرجت النائمة من الخيمة وانضمت إلى البائعات المنتظرات. ومع اللحن الرائع المتصاعد أخذت الأطياف تراقص الفتيات مرتفعة بهن عن الأرض، غير عابئة بالأرجوحة أو سرير الغرفة. لا شيء يهمها غير الرقص أو التحليق بأجساد الفتيات الخشبية! وما انفك الرقص يدور مرتفعاً عن الأرض، ونحن ندخن متلذذين بالأشربة القوية. التفتت المانيكان إليّ قائلة :

- لا تغضب أنا لم أدخل أحداً غيرك كما وعدت.

- وهم؟

- ما هم برجال.. وما هم بنساء.

- فمن هم؟

- لا أدري.

- ألم تخرجيهم أنت من غليونك.

- لم يخرجهم أحد.

- ومن يدخلهم فيه؟

- لا يدخلهم أحد. هم يخرجون ويدخلون.

- وهل سيطول رقصهم؟

- ما أدراني أنا. ألا يبهجك منظرهم؟

- أنا لم أر منظراً أكثر بهجة منه!

- ألم عدك؟

- وكنت تتحدثين كفتاة شارع!

- وأي فرق؟

- ألم تفضلي الغليون على سرير الغرفة؟

- أنت لم تدعني إليه.

- فإذا دعوتك الآن؟

- لست جاداً كما.. أظن!

- أتريدين أن أكون جاداً مع دمى خشبية؟

- ما بك. ألم ترنا في وضوح؟

- ربما. متى تبدئين رقصتك الأخيرة؟

- في ميعادها.

- ومتى يحين؟

- لا أدري.

- قلت إنك سترقصين!

- لم أقل إنني سأرقص الليلة أو هنا. بل قلت : إنني سأرقص الرقصة الأخيرة. هذه هي كلماتي. فلا تحرّفها من فضلك.

كنت تائقاً، بعد الغليون، إلى تدخين لفافة. فتذكرت أنني لم أبحث في جيب معطفي حين وجدت الصفراء متدثرة به. ذهبت إلى الخيمة وعدت بعلبتي.. موقداً منها لفافة لي. وكنت أدخن

صامتاً متفرجاً. سحبت المانيكان اللفافة من بين أصابعي مثلما اعتادت زينغا سحبها بلطف.. صامتة، متفكرة.. وأخذت تدخن. أخرجت لفافة أُخرى وأشعلتها متفرجاً صامتاً. كنت أشعر بالأشربة القوية تدب دبيباً متسارعاً في رأسي. ولربما أخذتني سنة من النوم وأنا لا أدري، والرقص يدور ورأسي يدور.

- أنت متعب. إذهب وأرقد.

- لستُ متعباً تماماً.

- سيطول رقصهم. امضِ إلى الأرجوحة ونم.

- وأنت؟

- سأجلس إلى جانبك هناك.. وأتفرج.

غطتني بالأغطية الدافئة.. أغطية الغرفة الزرقاء، ضاربة بأناملها المقصوصة الأظافر أصابع البيانو الأسود ضرباً حنوناً منوماً.

كنت نائماً فوق المخزن فعلاً، وفي شقة الطابق الثالث من البناية، إلا أن السلم لم يكن مفضياً إلى المخزن.. بل إلى الشارع! لم أجد المانيكان نائمة إلى جانبي، بل شممت عطر امرأة قوياً في الفراش، ورأيت قميصاً نسوياً مهملاً على الكرسي.. وخزانة كبيرة لم أفتحها. وعلى منضدة الزينة مشط أحمر غليظ وحقاق طيب ومبراة. هي غرفة نوم امرأة متوحدة لم تخرج إلى عملها إلا قبل قليل. ولم تكن الغرفة الثانية إلا بهواً. وفي المطبخ قهوة تنتظرني ساخنة تقريباً.. وبقايا من أشربة البارحة القوية. كنت ثملاً، نائماً بالطبع فلم توقظني المرأة حين تمددت إلى جانبي، وصحت قبلي من دون أن توقظني أيضاً..

طيبة منها وإشفاقاً على ضيف مرهق راقد! لم يبق في علبتي غير لفافتين تركتهما زينغا لي. أنا أعرف كم يلذ لها التدخين أحياناً فلا تكف لحظة عنه.. وبين أيدينا زجاجة جن أو فودكا هل كنا في هذه الشقة البارحة؟ وأين كنا إن لم نكن فيها؟ أين هي الكراسي الحمر والطاولة الحمراء الصغيرة.. طاولة الطفل؟ إنها في غرفة زينغا. لم تنقلها البارحة إلى هنا إلا تذكيراً بها. والخيمة المستورة والأرجوحة الفاضحة.. أين هما؟ كانتا هنا.. وقد نصبتهما زينغا تسلية لي. والفتيات في المخزن بالطبع. وما أنا الآن إلا في شقة إحداهن. فمن هي؟ وأي فرق كما تقول زينغا! والسلم الأصفر.. ألم يكن صاعداً إلى هذه الشقة من المخزن؟ أجل كان صاعداً.. وهو هابط الآن إلى الشارع وصاعد منه! أي فرق؟ هل أدخل المخزن وأعثر على المرأة وأسألها مزيداً عن البارحة؟ ما علي إلا أن أسأل عن صاحبة الشقة فيدلوني عليها! فإذا دخلت وسالت عن زينغا؟ سينكرن أو يقلن : زينغا؟ ألم ترها في الواجهة؟ هي هناك ونحن نطلق عليها اسم زينغا! وقد لا أصل إلى الخيط الممتد بينهن وبين زينغا. ألم تذهب بي إلى غرفة الخبيرة وأقبيتها فلم أعد بغير خاتم لا ينفع إلا تذكاراً؟ إنما لا.. أنا في الوكر! أنا في وكر النسوة نفسه! سأدخل المخزن وأشكر المرأة على المبيت والقهوة!.

حييت المانيكان كالساخر منها.. فردت تحيتي الصامتة وهي تكاد تضحك ضحكاً. كانت تشبه زينغا شبهاً تاماً. وكانت المتكبرة في جناحها منشغلة بقائمة بين يديها فلم اقترب منها ولم أسألها عن المرأة صاحبة الشقة ولماذا أسأل الآن؟ أصبح من الممكن أن أدخل الشقة في أي لحظة مواتية! ألم تتركني المرأة

نائماً في فراشها؟ ولم تكن الصفراء إلا البائعة الجذابة.. بائعة الفراء والمعاطف الشتوية الأُخرى. وكانت ترمقني بعينيها الآسيويتين. فاقتربت منها متذكراً دفء قبلاتها وبرد أصابعها على سلم البارحة :

- أرجو المعذرة. ألم تترك زينغا خبراً لي؟

- ولماذا لا تسألها هي؟

- وأين هي؟

- في غرفتها.. في الطابق الثاني.

لم تكن زينغا إلا سكرتيرة مدير المخزن! هي زينغا نفسها بوجهها الطفولي وعينيها الذهبيتين وشفتها السفلى الممطوطة! حييتها فأجلستني مرحبة بي كما ترحب السكرتيرة بضيوف مديرها قائلة :

- سأؤخرك قليلاً. ثمة من سبقك إليه.

- ما أنا قادم إليه.

- فإلى من؟

- أنا هنا.. من أجل رؤيتك أنت.

- ما ألطفك هكذا.. من دون معرفة سابقة!

- وهل أنت غير زينغا التي أعرفها معرفة راحة يدي؟

- أنا زينغا فعلاً. إنما اسمح لي.. لم أرك إلا أول مرة.

- هل يمكنني رؤيتك اليوم؟ رجاء..

- طيب.. طيب. انتظر لحظة.

دخلت إحدى فتيات البارحة وتحدثت معها وخرجت.

- متى.. وأين؟

ابتسمت زينغا كأي سكرتيرة قائلة :

- في التاسعة.. عند الواجهة!

إنها تلهو بي! انفتح الباب المغلق على غرفة المدير عن أحد الزوار يخرج ضاحكاً ضحكة الشارع عينها.. ولم يكن المدير، وقد لمحته واقفاً ممسكاً بغليونه، إلا رئيسها الأعجف الطويل السابق! وخرجت أنا أيضاً.. أتسكع بين أجنحة المخزن، وأتحين لحظة فراغ أتحدث فيها مع الصفراء المتلفتة إليّ.. متنقلة بين الزبائن والمعاطف.. تلفها بالورق أو ترجعها إلى المشاجب المتجمعة ملء الجناح. سألتني حالما اقتربت منها :

- وجدتها؟

- أجل. هل يمكننا أن نتحدث؟

- لن يمهلنا الزبائن لحظة.

- أين تتغدين؟

- نتغدى نحن البائعات عادة في أقرب مطعم من مطاعم الساحة الدائرية حيث يقف تمثال الفارس المجنح. لن نمكث هناك إلا ساعة ونعود.

- متى تخرجن إلى هناك؟

- في الثانية؟

وكنت أقول لنفسي : ليس اليوم.. إنني مرهق بأشربة البارحة القوية!.

مررت بالواجهة فسمعت ضحكة المانيكان، ضحكة زينغا

تصدح في وجهي المتحير وتتبعني وقد ابتعدت تائهاً بين الناس! ركبت أول سيارة وصعدت إلى شقتي. أنعشني الماء الدافئ والقهوة الثانية، فانكببت أترجم الصفحة تلو الصفحة مرتشفاً البيرة الألمانية الباردة. وقبل الثانية بربع ساعة كنت في التكسي المتمايل بي إلى هناك ما الذي أرجعني إلى المخزن دافعاً بي من مكتبي من دون أن أدري تقريباً؟ الزجاج يندى بالرذاذ والماسحتان دائبتان، وأنا أفكر بالسلم الأصفر والنافذة المفتوحة.

انسلت الصفراء من الصف المتحرك إلى ممر الأطعمة ووقفت إلى جانبي. لم أجد السكرتيرة بينهن كما توقعت وكنت جائعاً لم أقرب غير القهوة والبيرة منذ نهوضي الصباحي في الشقة الخالية المشبوهة!

البخار الدافئ يتصاعد من الحساء الطيب السائغ والرائحة شهية.. والبائعات ينظرن إليّ، بين الحين والآخر، نظرة ألفة وصداقة. وكنت أرى تقاطيع الصفراء عارية إلا من زينة خفيفة، ووجهها الآسيوي الملامح يبدو أبرع فتنة من أوجه الأخريات وأعظم جاذبية وكنت أحس بها حارّةً، تواقة كلما لمست يدي قائلة أي شيء.

- متى تزورين عادة تلك الشقة التي تعلو المخزن؟

- إنها شقتي.

- هل هي من توابع المخزن؟

- كلا. ليس للمخزن إلا طابقاه. أما البناية العليا فهي شقق سكنية يتوزعها أناس مختلفون. كان زوجي ربان طائرة..

انفصل عني وترك الشقة لي. ولم أبرح منفردة بها منذ أربع سنوات.

- ظننتها شقة السكرتيرة.

- هي لا تحضر إلا ضيفة كالأخريات.

- كانت السهرة ممتعة تماماً وأضفت متأملاً عينيها البراقتين :

- كنت تعباً فلم أشهد آخر الحفل.

- فلا تتعب نفسك، إذن، في المرة القادمة.

- أيزورك أحد الليلة؟

- ربما زينغا. ألم تتفق معها؟

- لم تفصح بعد عن خططها.

- ألن تلتقيا الليلة؟

- في التاسعة.. وقد تتخلف كشأنها مراراً.

وقلت متوقفاً عند الواجهة، ناظراً إلى زينغا :

- آمل أن نراك الليلة.

- وأنا أيضاً.

وجدت غرفة الخبيرة مغلقة فسألت عنها. قيل لي إنها في البوفيه. فرأيتها هناك تتهيأ للقيام منتهية من وجبتها المتأخرة.. وجبة امرأة تأكل الجبن وتأكلها المخطوطات كما قالت مسرورة بي مادة يدها إليّ، مضيفة باحتفال لا أدري هل هو مصطنع أم لا :

- سأسقيك من ترمسي اليماني.. لن تجدي قهوتهم الهجينة هنا ذهناً أجهده تتبع صحائف الأوائل العتاة مثل ذهنك. فتعال إلى

غرفتي الصغيرة.. حيث الصمت والنافذة المطلة على الأرض البوار..

- ألم تجدي الكتاب؟

- ألم أخبرك بغارة الهندي الطائر؟

- أتظنينه هو؟

- وهل يختطفه صقر غيره؟ أنا أمزح بالطبع. إنما من يعلم؟ أقسم أنني أعدته بيدي أنا إلى حيث ينبغي أن يُعاد. واختفى كما يختفي الملح في الماء كما يقول المثل القروي! أجلس من فضلك. هي ذي منفضتك الصغيرة.. وسأخرج إبريقي الساخن بعد لحظة.

ثم فتحت الكوة تجديداً للهواء المثقل برائحة الأزمنة العتيقة وأخذت تتجرع القهوة واقفة، ملتفتة بردائها الأسود المحكم التفاف اليكنرا، قائلة لي وكأنما هي تتذكر الأمر مصادفة :

- حضر أمس صاحبنا المستشرق.. رحالة الأودية العربية. أنت تذكر حديثنا عنه. وأبحت لنفسي أخباره بشيء من اهتماماتك.. وأصغى الرجل إصغاء لهفة وتشوق. أيهمه كثيراً أن يلتقي بذهن متتبع كذهنك فنتحاور هنا مع القهوة.. أو في أي مكان تقترحه.. علنا نجدد صفحة من صفحات المأدبة أو فيدون المحمودتين!

- هل له يوم محدد.. يزور فيه هذه المكتبة؟

- كلا. هو يأتي مثلك كلما وجد وقتاً.

- إذاً اتصلي بي عندما يجيء. ونتفق.

- نعم الرأي!

وكنت اتساءل مع نفسي : لِمَ لم تسألني عن زينغا؟

- ماذا تود أن استخرج لك من مطموراتي؟

- هل عندكم نسخة من رحلة الفيل إلى النملة؟

- عندنا. لكنها رهن التجليد.

- و الشقة المزدوجة؟

- خلف رأسك تماماً.

- خلف رأسي؟

- على الرف!

تلك رواية عتيقة غير قصيرة، وكنت منفرداً بها في غرفة القراءة الخاصة. الغلاف بال مهترئ أيضاً، واسم المؤلف ممحو إلا حروفاً متناثرة، فإذا جمعتها إلى بعضها مضيفاً حرفين أو ثلاثة.. قد تخرج منها بكلمتين هما أقرب إلى الأعجف الطويل.. ولم أكن أقرأ فيها إلا أوصافاً مطولة لليلة الفائتة.. ليلتي في المقهى والشقة، وقد عرضت الشخصيات عرضاً وافياً وفصلت الأحداث تفصيلاً زائداً.. حيث الضباب يكتنف كل شيء في الطرقات، والسرية تمنح المدينة وجهاً آخر. وكنت أتوقف عن القراءة، بين الحين والآخر، متأملاً الصور الإيضاحية الملونة.. حيث صورت المرأة الصفراء بشعر حنائي مجعد، وزينغا بضفائر بيض طويلة وثقيلة تنسرح على امتداد ظهرها وكأنها ايزولدا أُخرى.. أما شعر المشرفة فكان قصيراً أخضر كشعر غلام! وبدت ملامح الفارس ذي الخاتم المنقوش بحرفين مألوفة لي، وقد صور باللونين الأبيض والأسود مترجلاً عن جواده المجنح!

أعدت الرواية إلى الحدباء ودعوتها إلى البوفيه.. فاعتذرت بالفهرست البالي الممزق ترقعه وترمم حواشيه المتآكلة!

- انقليه إلى ورق جديد.
- وماذا يتبقى غير الأسماء والعناوين؟
- فما يهمك منه غيرها؟
- رائحة البلى!
- آ.. فاتتني أهميتها.
- أتود إلقاء نظرة عليه؟
- أخشى اختفاءه فجأة من بين يدي!
- لا أظن.. فقد أثقلته بالورق اللاصق والصمغ.
- ما رأيك في أن تنضمي إلى مائدتنا الليلة؟
- قد لا يُسمح لي بالخروج مبكراً. أنت تعرف أننا نعمل هنا حتى ساعة متأخرة. ألا ترغب بفنجان آخر؟ لم يزل إبريقي نصف ممتلئ.
- شكراً. أنا أود أن اخرجك من مكتبك قليلاً.. فتغيري طعم القهوة الرصينة برشفة كونياك أو بكأس شمبانيا بلورية خفيفة تكاد تطير بها فورة الزبد الذهبي! حقاً نود كثيراً أن تكوني معنا الليلة حيث تصدح القيائر ويعم المرح.. كم ستبتهج زينغا بك!
- وهل رجعت زينغا ثانية من تالن؟
- إنها هنا.. وهناك.
- متى رجعت؟

- لم أرها إلا البارحة.

وأضفت ناقراً الرواية باصبعي :

- لم نعد نلتقي إلا فجأة.. كأشباح رواية غامضة! سأتلفن لك.. فقد تتحررين من أسوار المكتبة قبل انتهاء عملك بساعة أو ساعتين.

- طيب. هل حددتما مكمناً للقاء؟

- في التاسعة.. عند الواجهة.

- أي واجهة؟

- واجهة المخزن!

وأخذت تضحك ضحكتها المتكتمة :

- ما أعجبك! ألا تعرف اسم المخزن؟

- عصفورة الجنة والنار!

- تعني عصفورة النار!

- هو بعينه.

- طيب. انتظرني لحظة هنا من فضلك.

كنت أتأمل العرصة المهملة فلا أراها في وضوح بين الحوائط الخالية من أي نافذة.. لا ضوء إلا ما يتسرب ضئيلاً من المكتبة والمنعطف.

وسمعت خطوة الخبيرة مقتربة في الممر فابتعدت عن النافذة متسائلاً :

- هل أمكنك إقناعهم؟

- وإن لم يكن سهلاً. سأكون هناك في التاسعة تماماً.

كان وجهها المتغضن محايداً مثلما كان قبل الرحلة إلى خيمة جدتي. لا ضحكة في ممر المكتبة.. ولا وقع حوافر أتان تسرع بي. الأرصفة مثلما هي في الثامنة من الليل.. عاجة، مفتوحة المخازن، والناس يدخلون ويخرجون، والريح رطبة باردة. وأنا أسير متوقفاً عند هذا المسرح أو غيره، أتصور القاعات الملأى بالمتفرجين منذ السابعة.. ووجوه الممثلين والمناظر التي أعرفها، وأتملى الصور المعروضة خلف زجاج اللوحات، وأمرُّ على الخمارة المختبئة تحت الأرض أو المقهى المنكشف دونما ستائر فلا أدخل! وفي التاسعة تماماً وجدت الخبيرة ملتفة بمعطفها الأسود عند الواجهة متفحصة المانيكان.

- ألا تذكرك بوجه ما؟

- تعني زينغا؟

- أجل.

- أين هي من زينغا!

- ألا تشبهها؟

- ومن يشبه زينغا!

- فلماذا ذكرتها؟

- ليس لها منها إلا النظرة المتحفزة!

وكنا ننتظر والناس يخرجون. ولم تخرج إلا وجوه لا أعرفها. ثم اقفل الباب ونحن ننتظر والدقائق تمر. ورأيت البائعات يقبلن من الزقاق الجانبي في معاطفهن الأنيقة. فسألت الصفراء منتحياً بها :

- هل هناك باب آخر؟

- نحن لا نخرج بعد العمل إلا من الباب الخلفي.

- ألم يزل مفتوحاً؟

- كلا. أوصد بعد آخر بائعة.

- إذاً، لن تخرج السكرتيرة.

فضحكت قائلة :

- هل تتصورها حبيسة في المخزن؟

- فأين هي إذن؟

- قد تحضر بين لحظة وأُخرى.

- فمن أين تجيء وقد أغلقت الأبواب؟

- ما أعجبك حقا! إنها لم ترجع إلى المخزن منذ الثانية.

- لن أنتظر عبثاً.

- وهذه؟ أهي من صواحبها؟

- بل أقربهن إليها!

- هكذا!

- أنا دعوتها إلى المطعم. وأنت مدعوة أيضاً.

- ألن تنتظر زينغا؟

- لن نحضر. أنا أعرفها.

- طيب. هلم بنا إلى شقتي.

- قلت أنتما مدعوتان إلى المطعم.

- لن نلبث في الشقة إلا قليلاً.. ريثما أغير ثوبي.

وأمسكت بذراعي متجهة بي إلى الخبيرة المنتظرة :

- ألن تعرفني بها أولاً؟

ووجدت الشقة مثلما تركتها أين هي زينغا الآن؟ هل ستخرج إلينا فجأة من الحائط أم هي تريد أن تنحدر انحداراً من ثريا المطعم؟.

نصحنا بعضهم ألا نضيع الوقت وننتظر عند باب المطعم الرمادي فالموائد مزدحمة أو محجوزة. إلا أن للمرأة الصفراء خبرتها هي أيضاً. فتحت الباب ودخلت من دون أن يعترض طريقها بواب! وسريعاً ما انفتح الباب عنها وهي تقول وكأنما هي في المدخل إلى شقتها نفسها :

- تفضلا!

وكانت النادلة أسرع منا إلى المائدة بقائمتها كل شيء يوضع بين أيدينا قبل أن نطلبه تقريباً.. وقد أبقت المرأتان الكرسي الرابع محجوزاً قد تحضر زينغا في أي لحظة! من يدري؟ وكنت أراقب النادلة منذ اللحظة الأولى متشككاً. وتبين لي أنها لم تكن إلا جارة للمرأة الصفراء! وكنت أعرفها أنا أيضاً. فقد رأيتها مراراً نادلة في هذا المطعم الرمادي الغائم. ومهما تكن المقاصد فأنا لم أرَ طيلة ترددي على المطاعم نادلة أسرع منها في تلبية الطلبات! قلت مخاطباً الحدباء متعمداً :

- تصوري! أنا لم أرَ زينغا في المخزن إلا اليوم.

- ستراها غداً سكرتيرة في المعرض الصناعي.

- وفي مكتبتكم بعد غد!

- هكذا هي زينغا!

ورفعت كأسها جادة، مشيرة إلى الصفراء:

- نخب قرة أعين الزبائن!

في الركن القصي من المطعم لم يزل يتعالى انطلاق السدادات عن قناني الشمبانيا.. حيث أحاط المحتفلون بثلاث موائد امتدت صفاً واحداً. ولم افاجأ بانسلال المشرفة من الحفل قادمة إلينا. حيتنا وانحنت هامسة لي، وفمها الذي يكاد يقطر حمرة يغريني بقبلة عابرة:

- تعتذر السكرتيرة عن تخلفها.. نحن نحتفل الليلة بإنجاز صفقة كبيرة تهم المخزن أهمية لا تقدر بثمن. ستأتي السكرتيرة بنفسها حالما تجد لحظة ملائمة. أتمنى لكم سهرة ممتعة!

قلت شارحاً للمرأتين:

- وصلتني الآن برقية تجارية مهمة من الآنسة السكرتيرة.

ابتسمت الصفراء مصححة مقربة وجهها الحار الناعم مني:

- السيدة! السكرتيرة متزوجة.

فأوضحت الحدباء ما خيل لها أنه قصدي:

- هو يعني عذريتها الأبدية.

فقلت أسألها مراقباً وجه الصفراء فبدت غير عابئة بالنبأ.

- عذراء ومتزوجة؟

- أي شأن للزواج بعذريتها؟

- ألم يقربها زوجها أو غيره؟

- لا أحد بمكنته أن يقربها؟

- هل لديك أيضاح لهذه المعضلة؟

- عجباً! ألم تنبئك بنفسها؟

- كلا.

- أنت قارئ متوغل في المعرفة فأجبني من فضلك: قد يزورك في النوم طيف امرأة تتعشقها وتقضي وطرك من طيفها وأنت نائم.. فهل يعني هذا امتلاكاً؟ هل يعني ألا حلماً بها؟

- أتعنين أنها طيف؟

- كلا. ألا تراها مثلي ومثلك؟

- فبم تفسرين عذريتها الأبدية؟

- هل يمكنك تقبيل امرأة تبدو في المرآة؟

- ولماذا أقبل طيفاً يتراءى عبر الزجاج؟

- أنا قلت: تقبيل امرأة.. لا تقبيل طيف!

- وهل هي امرأة في مرآة؟

- تماماً!

- فهي، إذاً، ليست بشراً.

فضحكت ضحكتها المختنقة قائلة للصفراء:

- هل سمعت؟ زينغا المشتعلة حياة وفتوة! زينغا السكرتيرة!

أنا أقول: امرأة.. ويقول: طيف! لن ننتهي إلى شيء.

- وهو لم يرد إلا المحاورة والمزاح.

وقبلتني الصفراء بشفتيها الحارتين مضيفة:

- بات ليلته معي تحت غطاء واحد!

فحذرتها الحدباء باصبعها على فمها المتبسم ابتسامته اللاصقة:

- لن تغتفر زينغا هذا لك.

- هي التي أرقدته على فراشي.

- ألم يكن مرهقاً، نائماً؟

- وظل نائماً بعدي لا يدري بشيء.

- كل شيء، إذاً، كما ينبغي.

وقبلت الصفراء فمي قبلة حارة كما يقولون في القصص وقالت كالهامسة ويدها الدافئة تتلمس يدي:

- فمي حار ويداي باردتان.. أتذكر؟ أما الآن فشفتاي باردتان وضحكت: إنها تمزح ويداي حارتان! لم تزل المرأة منذ ليليث الزوجة الأولى تتقلب من حال إلى حال كما تتغير الطبيعة والأشجار!

قالت الحدباء كمن يخاطب نفسه:

- زينغا لا تتغير!

ورفعت قدحاً ممتلئاً بالمياه المعدنية:

- زينغا نقية مثل صورة في الماء الصافي!

ما الذي يجعلها تفصح وتغالط؟ أهو تغيير في "المشروع"؟ ألم تكن غنوصية، غامضة من قبل؟ ألم تكن "محايدة"؟ أم أننا نقترب من الحافة؟ وكنت أرى الثريات تتوهج حيناً وتخفت حيناً آخر.

ثم أقبلت السكرتيرة! أقبلت زينغا في ثوب سهرة آخر.. أكثر بهرجة وغلواً في إبراز مفاتنها وتعريتها! حيتنا بصمت وجلست صامتة، متتبعة عينيّ أينما تطوفا تطف عيناها الذهبيتان المشتعلتان. وكنت أترقب التفاف حاجبين أبيضين في وجه هذا النادل الهرم أو سواه..

أترعت لها قدح شمبانيا وقدمته.. أخذته دونما كلمة ورفعت نخباً صامتاً لم أدرِ أنا، في الأقل، من أجل من؟ في صحتنا أم في صحتها هي؟ ولم ترتشف منه، بل لامست القدح بشفتيها ملامسة كما لاح لي وأعادته إلى المائدة غير منتزعة نظرتها عن عيني المترقبتين.. بينما الصفراء تملأ لها صحناً تدري أنها لن تأكل منه. رفعت الخبيرة قدحها مقترحة:

- نخب الأنوثة الملائكية.

قلت مذكراً:

- إنهم ينعتونها بالأبدية.. الأنوثة الأبدية!

- هي هكذا عند الفلاسفة المتصوفين الأوائل كما تفضلت. أما أنا فلم أقصد إلا طفولة زينغا التي لم تفتأ هالتها الزحلية طائفة بوجهها، محيطة به كما تحيط الحاشية بالمتون من المجلدات المبهمة!

وكنت ناوياً الإطاحة بخطة الحدباء الماكرة كما صورها لي ذهني المرتبك المشوش من دون سكر.. فقد كنت حذراً في الدنو من كأسي هذه المرة بالرغم من تتابع الأنخاب. كنت أمس الخمرة مساً بفمي آخذاً أقل رشفة يمكنني أخذها منها. وأطلت الحديث متقصداً عن فتنة زينغا الأرضية.. عن جمالها الجسدي الطاغي كما يقول الكتبة، واصفاً بإسهاب تعلقي الآدمي بها، ونظرات الإعجاب الحائمة من حولها كما يحوم المتشردون الطاوون بجيوبهم الخاوية وأعينهم الشرهة حول مطعم فاخر تفوح روائحه الشهية، وتلوح ألوان أطعمته خلف زجاج النوافذ العارية حيث تمتد الملاعق وتزدرد الأفواه ويجيء الخدم بالصحون. أثناء هذا جاءت المشرفة مرتين هامسة في إذن زينغا.. قلقة، طالبة منها الرجوع كما اتضح من رد زينغا المتأفف:

- لن تزهق أرواحهم إذا شربوا بدوني.

أتذكر أننا انتظرنا السكرتيرة عند السلم المرمري الأشهب. لم تلبث معهم إلا دقيقتين والتحقت بنا. ارتدينا المعاطف الخريفية وانا أصغي متنبهاً: لا وقع غير خطى الأقدام الهابطة على السلم.. فإلى متى يبقى العكاز الأبيض صامتاً؟ ولم أهب

شيخ المشجب، هذه المرة، إلا منحة صغيرة: كان حاجباه خفيفين اعتياديين مثلما هما في واقع الأمر كما يُقال.

الرياح مرذة، باردة برودة منذرة بالصقيع المبكر والسماء متجهمة. أركبت الحدباء سيارة ما ودفعت أجرها. بعدها عبرنا نحن الثلاثة النفق المضاء عن جانبيه بالمصابيح البيضاء الكبيرة. كنا نريد أن نتجول، بعد المطعم، على رصيف الشارع المقفر إلا من بعضهم حتى المخزن.. ولم يكن بعيداً. وحين مر موكبنا بالواجهة توقفت أنا متريثاً، ناظراً إلى المانيكان المرتفعة برأسها المتكبر إلى الوراء.. يداي في جيبي معطفي وعيناي عالقتان بعينيها وهي تكاد تحرك رأسها أو تهزه بإشارة ما.. بتحية ما.

دخلنا الشقة وفي نيتنا أنا وزينغا ألا نمكث غير دقيقة نتناول فيها قدحاً أخيراً من الأشربة القوية المتبقية لدى الصفراء.. بعد برد الشارع ورذاذه! فجأة، ونحن ننزع المعاطف، لم تعد السكرتيرة إلا خشباً يتحرك! أما الصفراء فقد ظلت، طرية غضة، حارة بوجهها الآسيوي الملامح وذراعيها التواقتين. وكانت الشقة معطرة دافئة.

كان الشراب قوياً جداً.. غير أنه خالٍ من اللذعة المعهودة في مثل هذه الأشربة المقطرة تقطيراً خاصاً. ذهبت السكرتيرة إلى التلفون وعادت قائلة:

- سينتظرني التكسي بعد دقائق عند المخزن.

قلت متلمساً يدها الخشبية:

- إلى أين؟

- كيف إلى أين؟ إلى أمي.. أمي متوعكة منذ أيام.

- هي نائمة الآن.. والوقت متأخر.

- كلا. وعدتها ولن أخلف وعدي.

- طيب. سننتظر التكسي معاً. بعد أن أوصلك سأذهب به إلى بيتي. هيا أجلس. ودعينا نكمل أقداحنا.

رأيت القنينة فارغة تماماً، وكانت نصف ممتلئة قبل لحظة. قمت إلى المطبخ لأجيء بغيرها.. وحين جئت كانت الصفراء عائدة من الباب:

- أخذت معطفها وانهزمت.

فتحت الباب وهبطت السلم مسرعاً. لا أحد في الطريق الليلي النائم إلا عابراً أو عابرين، ولا سيارة عند المخزن. وكانت المانيكان، في الواجهة المضاءة، تضحك ضحكة الشارع هازئة بي. وكنت أرتجف برداً فأسرعت إلى الشقة.

- ألم تجدها؟

- لم أجد إلا المانيكان.

- ألا تشبهها؟

- شبهاً تاماً!

فجأة أخذت الصفراء تتثاءب، بل هي تكاد تسقط من النعاس! مدت يدها إلى معتمدة عليّ وهي تقول، ووجهها على كتفي، متهدجة النبرة:

- أبق الليلة هنا.

وكنت أريد أن أصل إلى آخر الشوط هل تبقى الصفراء طرية دافئة بين ذراعي؟ وأضفت متسائلاً أيضاً مطوقاً خصرها الشهي أم تتحول إلى خشب؟ ذهبت بها إلى غرفة النوم.. وتركتها ريثما تنضو أثوابها. وعدت فوجدتها غارقة في نومها. هززتها فلم تتحرك أو تنطق بحرف. كانت نائمة كطفلة. التففت بمعطفي وخرجت إلى الليل.. إلى الشارع المقفر!

8

انقضى يوم.. انقضى يومان وأنا لا أغادر الشقة إلا إلى المطعم الصغير المجاور أتغدى فيه بعد الثانية عشرة.. أو إلى المطعم الساهر عند المترو أتعشى فيه. طيلة النهار وأنا أترجم.. أو أتجرع البيرة الألمانية الباردة مراقباً الصورة الصامتة في إطارها الأصفر الباهت هل هي راضية عني فلا تغمز ولا تضحك؟ وعبر النافذة تبدو الحديقة بأشجارها العالية العتيقة عارية تقريباً.. تحت السماء المتلبدة الواطئة، والريح تهز الشجر المتجرد مسقطة آخر أوراقه الميتة، والزجاج يظل ندياً طيلة الوقت بالرذاذ تنثه السحب الثقيلة، ويندى به الشجر والطرقات. الليل يهبط رطباً منذراً بالمطر.. يهبط مبكراً وأنا أترجم الصفحة تلو الصفحة تزجيه للوقت! ويدق التلفون فلا أرد خوفاً من أن تكون هي زينغا المترصدة هنا أو في تالن من يدري أين؟ فتضرب موعداً قرب المترو أو مدخل المنزل! وكانت علب البيرة موشكة على النفاد فلم أرَ بداً من الخروج وابتياع غيرها.. فأزود الثلاجة بما ينقصها فلا أبتعد عن مداري خلال أسبوع أو أسبوعين! من يعلم ماذا سيجري؟ عدت مثقلاً بحوائجي من المخزن العائم. أوقفت التكسي عند المدخل وأنزلت الصناديق الكرتونية والأكياس وقبيل أن أدخل فأدعو المناوبة إلى إعانتي بنقلها إلى المصعد.. انفتح الباب عن دنيا:

- أنا لم أحضر إلا لأسأل المناوبة عن صحتك.

- فإذا كنت مريضاً.. ألن تصعدي؟

- كنت سأصعد بالطبع. أما في غير هذا الظرف فلن أصعد أو أعود ثانية فأسأل عنك. ما بك؟ أنت شاحب.

- لا شيء غير الإرهاق.

- وتكلف نفسك هذه المشقة؟

- مهمة لا بد منها.

- هيا ننقل حمولتك إلى المصعد.

- انتظري عند المصعد وسأنقلها أنا.

- كلا نحملها ونصعد بها. إنما قل..

- ماذا؟

- أهناك من ينتظر فوق؟

- كلا.. أي شيء إلا هذا!

كل شيء في موضعه الاعتيادي في الثلاجة أو المطبخ.. وأنا أقبل وجه دنيا الناصع ويديها النقيتين وهي تتمنع متدللة ضاحكة العينين:

- أنت لا تسأل عني ولا تتصل.. حتى في المطعم لم نعد نراك. أصبحت تتجنبه. حقاً أنا لم أحضر إلا لأسأل عن صحتك. وأمي قلقة أيضاً. بل هي التي أقنعتني ودفعت بي إلى السؤال عنك.

- تعالي نجلس أولاً.

- كلا. لن أجلس. إنما. ما بك؟ هل كنت مريضاً؟ يدك حارة

ووجهك شاحب.. هل هو الإجهاد و.. الترجمة.. ولا شيء آخر؟

- لا شيء غير التعب. تعالي.. سأعد المائدة بنفسي.

- دعني أتلفن أولاً.. وأنا أهيئها.

ذهب التوجس والبلبلة وانطوى الاضطراب مذ دخلت دنيا الشقة، وصفا الذهن وراق! كان معطفها معلقاً على المشجب كالحارس الأمين عند الباب! وخطوتها في المطبخ أو الممر.. وإعدالها الستائر المهملة، وصوتها الدافئ الودود يمنح الشقة الراحة والهدوء! وكنت أحس حقاً بالرضا والارتياح! لم تعد الصورة إلا ذكرى ربيع قديم. وكانت الرواية الجديدة التي بدأت أترجمها منذ يومين منفتحة فوق المكتب بين المنفضة الصقيلة والأوراق المرتبة.

- أتدري؟ لقد قرأتها قبل أشهر.

- فكيف هي في رأيك؟

- بين بين.

- قبلها أنجزت ترجمة العودة إلى البيت.. هل قرأتها؟

- ألم أستعرها منك؟

- حقاً! أنت أخذتها من هنا.

- وصرت تنسى أيضاً!

وقبل أن أغلق الباب مسرعاً إلى لقائها ساعة الغداء رنَّ التلفون، وكانت النفس مطمئنة راضية، فرفعت السماعة كما يرفعها الناس.

- أنا مناوبة.

- تفضلي..

- هنا فتاة تود أن تتحدث إليك.

- أنا قادم بعد لحظة.

وهبطت فلم أجد غير المناوبتين.

- أين هي الفتاة؟

- قالت ستنتظرك على مصطبة الحديقة.

وفي الحديقة لم أرَ من ينتظرني لعبة من ألعابها وقبل أن أنعطف في اتجاه المطعم خرجت المناوبة صائحة بي:

- تلفون لك.

- ومن يلتفن لي هنا تحت!

- ربما هي موظفة الجوازات.

فعلاً هي موظفة الجوازات! إلا أنها لم تتحدث بشيء يخصني أنا، بل بما يخص صاحباً لي لم تعرف بعد تلفونه الجديد.. ولم أكن أتذكره. فاعتذرت وذكرت لها عنوان الدار التي انتقل أخيراً اليها. ولم أكد أصل الباب لأفتحه حتى دق التلفون فتوقفت منتظرا من دون أن أشعر.

- أجل. إنه لك. تفضل.

هذه المرة لم يكن المتحدث إلا صاحبي نفسه! إنه يدعو صحبه إلى عشاء لا ينسى محتفلاً بانتقاله إلى شقة أفضل. أخبرته بسؤال الموظفة عنه واعتذرت عن تلبية الدعوة متعللاً بموعد لا يؤجل فلم يقتنع وانبرى يصف لي ما ينتظرنا من طيبات.. حتى

هددته جاداً بإغلاق التلفون إن لم يكف عن هذيانه فضحك قائلاً:

- يبدو أن موعدك الحافل قد بدأ منذ الآن.

- ولماذا تطلبني من هنا؟

- لم تكن في شقتك، وأحببت أن أضع بطاقة دعوتك بين أيدٍ أمينة، فاتصلت بداركم فأعطوني هذا الرقم.

أعدت السماعة ساخطاً وخرجت. ابتسمت دنيا هازة لي يدها كمن يتساءل: أين كنت؟ وهي بين صواحبها والمائدة مزدحمة بهن. فجئت بطعامي إلى أقرب مائدة منهن. وكنت أقول لنفسي: ليس هذا إلا قصاصا لا يؤبه له. ترى أي خطة تحوك الآن يداها العازفتان؟

تخلفت دنيا متريثة عن العاملات المسرعات والريح الباردة تتخافق بأروابهن، فلحقت بها وسرنا معاً حتى المعقد الحجري.. واتفقنا أن نلتقي قبل العاشرة عند سينما الحي. وعدت والرذاذ في وجهي غير متعجل إلى البيت. لم تزل في الإبريق بقية من شاي الصباح فأشعلت عين الموقد الصغرى.. متأهباً للترجمة! وكانت الصورة هادئة، مصغية، كما بدا لي، إلى المطر المتسارع عبر النافذة المنكشفة. وقد بقي التلفون صامتاً، هادئاً. وفي الثالثة سمعته يرن رنيناً اعتيادياً كأيما تلفون! إنما لا.. في الرابعة تماماً سيمر صاحبنا المستشرق على المكتبة آملاً أن تسنح دقائق زائدة من وقتك فتعرج متفضلاً عليه دخلت المطبخ تائه الخطوة، متكدراً قليلاً ما الذي يدور الآن في الأروقة السفلية؟ وهل سنلتقي هناك بين الرفوف الراقدة بأثقالها رقدة المدافن

السرية.. فتشم رائحة الأزمنة الغابرة والأغلفة الجلدية المهترئة؟ فتحت علبة بيرة لي.. وفتحت غيرها، وكنت أرى البيرة تتفقع مزبدة فاترة في القدح الطويل، والريح الخريفية تحرك الأشجار في تراخٍ كالمرأة المرهقة النعسى لا تكاد تهز المهد إلا تذكراً.. مادة إليه يدها المكدودة من دون أن تصله أحياناً، وقد شردت بها أفكارها المختلطة المظلمة أو هوم بها النعاس واغمض أجفانها، وهي بين الحين والآخر ترفع رأسها المثقل بالكرى من سقطة ستهوي به ثانية من دون أن تدري.

كدت اضحك ضحكاً حالما أبصرت به! استقبلني الكهل متهللاً، ناشراً على منكبيه عباءة وبرية صفراء مطرزة بالذهب، محملاً رأسه عمامة خضراء هائلة الحجم، قابضاً بيده على مسبحة صفراء طويلة تذكرني بالمسابح التي تباع عند أفواه الأزقة المنحدرة عن أكتاف الطريق الشرقي السياحي وهو أعجف طويل، أصفر الوجه أيضاً. وكانت الحدباء آتية ذاهبة، هذه المرة، مشغولة كما لاح لي. سقتنا من ابريقها وفتحت الكوة لأدخن دونما تحرج.

أخرج المعمم من حقيبته السوداء الثقيلة كراسة مجلدة، وانبأني أنه نقلها بخطه هو من مخطوطة موغلة في القدم لم تُنشر بعد، سمح له بالاطلاع عليها صديقه الشيخ اليماني المعتكف في صومعته بعيداً عن أعين الفضوليين الغربيين وأقلامهم المغرضة، المحرفة أحياناً...

- سأعيرك إياها بالطبع.. تأخذها معك أو تقرأها هنا. لن تغلق المكتبة أبوابها، كما تعلم، إلا بعد ساعات! وأعترف لك أن

ما دفع بي إلى اختيارها من بين دفاتري وأوراقي الأخرى هو حاجتي الملحة إلى معرفة رأيك فيها أو هوامشك التي يعن لك تسجيلها أثناء القراءة.. إضافة، بالطبع، إلى رغبتي في التعرف بحضرتك. أنا شخصياً لم يتهيأ لي بعد أن أركن إلى حكم عادل أخير بشأنها. فإذا ارتأيت التفرغ ساعة لها هنا.. سأتركها بين يديك وأعود بعد فراغك منها. سأقوم بنزهة تنعش الذهن الراكد بين رفوف الأقبية.. مترحماً على الموتى، داعياً للأحياء.

- ما رأيك بكأس كونياك رائقة تتلهى بها في البوفيه قبل هبوطك الاختياري إلى عالم المكتبة السفلى؟

- أفضلها بعد صعودي من الظلمات!

تفرغت للكراسة في غرفة القراءة الخاصة معتزلاً بها.. مع أن الغرفة لم تكن خالية في هذه المرة. في الزاوية من المنضدة الطويلة تجلس صبية ضريرة تتلمس الصفحة بأصابعها وتقلبها بسرعة.. فتذكرت عوراء المكتبة الأجنبية وتطير زينغا منها.

ومثلما قال المعمم الغربي لم أصرف مع الكراسة من وقتي إلا ساعة أو أقل. وكانت الكوة مفتوحة والريح تهب منها باردة كالزجاج المتجلد!

هممت بإغلاقها قائلاً لنفسي: لعل الصبية لا تنتظر إلا من يغلقها فإذا بي أسمعها تقول محمرة الأنف، مرتعشة برداً:

- أتركها مفتوحة من فضلك.

- سأجعلها نصف مغلقة.

وبيدين حذرتين أغلقتها كلها دونما صوت. لم تقل الصبية

شيئا إلا أنها ما انفكت، بين الحين والآخر، تتلفت صوب النافذة الموصدة غير راضية.

تحكي الكراسة رحلة أمير تائه. نفرت عنه دابته وهو نائم على رمال الصحراء الليلية المقمرة كالغجري في لوحة هنري روسو المعروفة باسم الغجري النائم وقبل أن يهلكه الظمأ في الظهائر اللافحة الطويلة اتخذ قراراً غريباً. لن يصل إلى الماء إلا من خلال السراب. وتطول المطاردة بين الأمير والسراب من ظهيرة إلى أُخرى.. فجاة يدخل الأمير أمواج السراب كما يدخل الجبليون الغيوم المنتفشة في الطبقات العليا من الجو! من هنا تبدأ العجائب والأهوال مكتنفة الفتى زاحفة إليه من الجهات الأربع.. بينما الدابة لم تزل منتظرة عند آخر الطريق السرابي، وتحت خفها تنبثق عين الحياة بدفقها اللؤلؤي. وهنا يكتشف الأمير أن الدابة ليست إلا الأميرة المفقودة! وبعد محاورة أفلاطونية طويلة بينهما عن الفكرة والظل، عن النصف الباحث والنصف الآخر الضائع لم يزل الأمير متشككاً في أنها نصفه الآخر. فتقترح عليه رحلة إلى المجرة السابعة بعد الألف يحتكمان فيها إلى مجمعها الأكاديمي. وتتم الرحلة وقد التفا معاً بغلالتها الليلكية صاعدين إلى هناك صعود كونفشيوس من بعدهما بزمن طويل! و هناك تبدأ الحكاية التي تصمت عنها الكراسة! تخلى الأعجف الطويل عن عباءته وعمامته قائلاً للخبيرة:

- سأبقيهما هنا عندك. لا يصح أن أدخل البوفيه متنكراً بهما.

فقلت معيداً الكراسة إليها:

- دعي فهارسك برهة وتفضلي معنا.

- كم كنت سأبتهج. غير أن اجتماعاً ينتظرني.

وأرجعت الكراسة إلى الأعجف قائلة:

- هو أولى بها.. لا أنا.

كان البوفيه مزدحماً فتجرعنا الكونياك واقفين.

- واضح أنها لم تعجبك.

- الخمرة؟

- كلا.. أعني الكراسة.

فقلت متأملاً خطوط راحتي:

- لي جدة تقرأ خطوط الكف مثلما نقرأ نحن جريدة أو حكاية خيالية. وما يؤرقني كل ليلة هو أنني لم أتعلم هذه القراءة منها.

- ألم تذكرك الكراسة بشيء آخر.

- المحاورة الطويلة بين الأمير وأميرته تذكر أي قارئ بشيء من الأفكار الأفلاطونية محرفاً أو مطوراً.. في ما أظن.

- وتلك الصفحات الأخيرة عن المجرات والسفر في ما بينها؟

- ألم تُكتب في عصر متأخر؟

- بل في عهود أُخرى.. قبل أيامنا وأيام أفلاطون.

- أهي من.. أقاصيص أطفالهم؟

- هو ذا ما كنت أبحث عنه!

لم يعوزه تلك اللحظة إلا عباءته تنبسط عن جانبيه كجناحي خفاش! قلت وقد اجتذبت نظرتي الصبية العمياء بوجهها المليح وعينيها الصافيتين البديعتين.. تبتسم لي وتغض طرفها:

- سأطلب قدحين آخرين.

- لا.. لا.. وأنا أشكرك.

- ستفرغ هذه الطاولة.

- كلا. أجلس أنت. إنها تبتسم لك.. لا لي.

وضحك مصافحاً يدي:

- أتمنى لك صحبة مؤنسة أكثر تسرية عنك من صحبتي الجادة كحقيبتي التي لا تسر عيناً أو يداً بصرامتها وثقلها.

جئت بقدح كونياك.. وقدح شمبانيا:

- أتسمحين؟

- ولماذا لا أسمح.. ولا طاولة خالية غيرها؟

- أيهما يروقك؟

- كنت تشرب كونياكاً.. فدع الشمبانيا عنك.

- كنت جارك في الصالة.

- أنت لم تختر إلا أبعد كرسي عني.

- لم أرد مضايقتك.

- أهي كراسته؟

- وما الذي ألهمك أنها قد تكون له؟

- كان يتصفحها قبل حضورك.

- ربما يهمك مضمونها؟

- سمح لي بتلمسها فحفظتها.

- وأنا كنت..

- كنت تظن أنني مكفوفة.

- أرجو المعذرة.

- ولماذا تعتذر؟ لقد رأيتني أتلمس بأناملي.

- ولا تقرئين إلا بها؟

- أنا أقرأ بعيني.. وأحفظ بأناملي.

- ألم أزعجك بإغلاق الكوة؟

- نصف إزعاج..

- أي مثلما زعمت أنني سأغلقها نصف إغلاق؟

- لم أقصد هذا كما تتصور. لم تكن الريح مؤذية لي.

- كنت محمرة الأنف ترتجفين برداً.

- أحببت أن اذكرك بقصص الجنيات والثلوج!

- ولم تؤثر الريح اللاذعة بك؟

- حين أتلمس الكتب لا أشعر ببرد أو حر.

- فلماذا قلت نصف إزعاج؟

- انزعجت بانزعاجها هي. فمالي إلا النصف منه. ألم تتحدث الكراسة عن النصف الباحث عن نصفه الآخر الضائع؟

- فمن هي نصفك الآخر؟

- ألم ترها؟

- كلا. لم أرَ أحداً غيرنا في الغرفة.

- عندما أغلقت الكوة.. ألم تلح لك؟

- لم أرَ غير اليمام الطائر أو اللائذ بأفاريز المبنى.

- لعلها أقبلت فوجدت النافذة موصدة.

- أتحبك الحمائم هكذا فتزورك في الغرف؟

- أحياناً.. وأنا أتلمس الكتب!

- مسي يدي بأناملك.. فقد أحظى بلطف من بركتك.

- كنت تتحدث عن جدة تقرأ خطوط اليد.

- هي جدتي.. وفاتني أن أتعلم منها.

- أتريد أن اقرأ كفك؟

- من فضلك!

- ساقرأها بعد أن تفرغ من قدحك.

- أنت لم تقربي الشمبانيا إلا تذوقاً.

- لا أحب الخمرة والدخان.

- لنخرج من هنا إذن.

- بعد أن اقرأ كفك.

وأردت أن أطفئ لفافتي.

- لا تطفئها. أنهم يدخنون بكثرة هنا.

- هكذا الأمر في كل مقصف.. ألم تعرفي هذا من قبل؟

- لم أحضر إلا من أجلك!

- من أجلي؟

- رأيتك وحيداً وحزيناً.. فأحببت أن أخفف عنك.

أنهيت قدحي فأخذت يدي برقة طفلة بين يديها:

- أنا لا أقرأ إلا خطاً واحداً تقريبا. لم أتعلم بعد قراءة الخطوط كلها. مع هذا فأنا أستدل به قليلاً.. في طرقات الراحة ومنعرجاتها الخفية. احذر الزوبعة الثلجية. أنا لا أراها في وضوح. هذا الخط الوسطي الذي أقرأه لا يقود إليها.. فما هي في طريقه، بل إلى جانبه.. في الدائرة أو السهل الذي يشقه

الخط لا أرى الشجر واضحاً أيضاً. لا أدري ما نوعه في الليل العاصف!

وكنت أُحدق إليها صامتاً، فنهضت قائلة:

- لقد تأخرت.. لنخرج من هنا.

قلت ونحن في الطريق إلى المترو:

- أعرف مقهى لا يدخنون فيه. هلا تفضلت معي إليه؟

- اعتذر.. وأنا آسفة حقاً!

- لماذا؟

- أمي وحيدة.. وبيتي بعيد.

- هل أراك ثانية في المكتبة؟

- إذا أسعفنا الحظ.

أوصلتها إلى مدخل المترو فصافحتني بمودة واختفت في زحمة أول الليل كالفراشة الحائمة تحط مصادفة على كتفك غير خائفة منك وأنت في الحديقة أو الممشى من البولفار.. وترافقك آمنة، مطمئنة إليك وأنت سائر غير مدرك تماما أي أعجوبة اختارت كتفك فحطت عليه في المنتزه المزدحم بالناس، وتطير، وأنت ناظر إليها، وتختفي بين الأشجار.

سرت طويلاً في الطريق إلى الفندق الرمادي الغائم.. تحت أشجار الرصيف العارية والسابلة تمر في اتجاهين أنا أعرف الف مقهى في هذه المدينة..

فلماذا أنا سائر إلى المقهى الجانبي الصغير لا إلى مقهى آخر؟ ربما هو الاعتياد والبونش الجيد والوجوه التي أعرفها وتعرفني دونما كلام أحياناً. لم تزل نوافذ الشقة مظلمة بالطبع

فالمخزن لم يغلق بعد. أشحت بوجهي بعيداً عن الواجهة سائراً في طريقي دونما توقف. لم أسمع ضحكة ولم أرَ بائعة تلحق بي ترى أي فتاة بكرت اليوم إلى المنزل طالبة من المناوبتين رؤيتي؟ لم تكن زينغا بالطبع إنهما تعرفانها. فمن هي؟ ولماذا اختفت وأين؟

وتلك النداءات الصباحية المتتابعة.. لم يرن بها تلفون المدخل إلا بأمر من زينغا! فهل حضرت الفتاة بأمر آخر منها؟ أنا لم اسأل من هي، ولم تقل المرأتان إلا أنها فتاة. فهي، إذن، لم تذكر اسمها ولم يسألها أحد عنه. وفاتني لحظتها أن أسأل عن وجهها. وماذا ستقول المناوبة عنها أكثر من أنها شقراء طويلة الشعر أو قصيرته مثلاً؟ ولماذا لم تضحك زينغا؟ هل ثمة فخ لم يكتمل إعداده بعد عند الواجهة؟ هبني اتصلت بها بتلفون إلى تالن الآن؟ سأسمع صوتها أو من يؤكد لي أنها في النادي أو المقهى. فإذا دخلت المخزن فلن أرى عند المدير الطويل الأعجف سكرتيرة غيرها!.

لا مائدة خالية في المقهى إلا واحدة.. تتصدرها عاهرتان رائعتا الحسن متحفظتان أعرفهما مذ كنت طالباً. ولم يجر بيننا إلا المصافحة المرحبة والجلوس إلى مائدة واحدة وقد سألتاني، مرة، عن سر عزوفي غير المتوقع عنهما وأنا الصديق الودود.. فقلت معتذراً: "اعتدت أن أركب السفينة الهادئة البطيئة.. أما أنتما فطائرتان ضاجتان منطلقتان!" فضحكتا قائلتين: "كنا نظنها مركبة فضاء!" قلت: "من هي؟" قالتا: "ذات العينان الذهبيتان!" حييتهما مصافحاً قائلاً:

- أنا سأحتسي البونش.. وأنتما؟

- أي شيء فاتر..

- قولا ماذا تحبذان؟

- لم تبدأ السهرة بعد. فلا مانع من كأس شمبانيا.

- وشوكولا!

- سنرافقك لإحضار القهوة.

أثار تساؤلي أن أحداً لم يقترب من الكرسي الرابع هل هو محجوز لزينغا أو صاحبتها أو من تبعث بها إليه؟ فيم كان صمتها الخشبي عند مروري بها اليوم؟ ومن هي تلك الصبية المليحة.. تحذرني من الزوبعة الثلجية، وأنا لا أعشق من الزوابع إلاها وانفتال الريح بالورق الخريفي اليابس! هل تعني أغنية زينغا أم تعني الزوبعة الثلجية ذاتها؟ كل شيء هادئ، كما يقول ريمارك، على السلالم المرمرية الشهباء غير الخطى الصاعدة منذ الآن! ألن يصعد الأعجف الطويل، بعباءته وعمامته، متأبطاً ذراع الحدباء؟ بعد التاسعة تضاء الشقة وترقص زينغا رقصتها الخشبية! من يقرع الطبل الليلة؟ صفراء المخزن أم بائعته المتحذلقة؟ رغماً عنهم سأشتري من هناك أروع ثوب يرتدى في ليلة المهرجان الكبير وأضعه بين يدي دنيا! لا عكاز يخفق ولا حاجب أبيض يلوح! أين هو الطريق إلى النور كما يقول أيوب؟ وأين هو الحمار الأبيض الصغير؟ أتروق الخبيرة هذه القهوة المرة؟ لا شجرة عبر النافذة، ولا طير غير الخفاش!.

- منذ عامين وأنت تدعونا وتؤجل.

- إلى المطعم؟

- أي جديد في دعوة المطعم؟

- فإلى أين؟

- إلى شقتك!

وضحكتا في سرور:

- لن نشترط غير تقديم البيرة!

- أين سهرتكما الليلة؟

- حتى هذه الهنيهة ثمة ثلاث دعوات.

- أنا قلت: أين؟

- في المطعم الفضي وفي المطعم الذهبي.

- والثالثة؟

- في شقة مدير مصرف ما..

- وهل اخترتما؟

- السابق الثاني منهم.

- فلماذا ليس الأول؟

- تدللاً عليه.

- وتهملان الثالث.

- تأديباً وعقاباً على تأخره.

- أعرف بروفيسوراً متعمماً ذا شأن وأُبهة.

- لا شيء في حقائبهم المنتفخة غير غبار الكتب!

- ومتى يبدأ السباق؟

- في التاسعة؟

- في التاسعة أيضاً!

- هل لديك موعد في التاسعة؟

- كلا.. أنا قلتها هكذا. وهل تنتظران هنا؟

- في بيت إحداهن. وعليه أن يتلفن أولاً.

في عهدهما الأول كنت أراهما مع هذا الرجل أو الرجلين في المقهى.. ومع غيرهما في مقهى آخر بعد أقل من ساعتين.

ثم ارتفع السلم بهما إلى المطاعم الفاخرة لا توافيان الراغب إلا بعد اتصال منه وتحديد منهما. بيد أنهما ظلتا، بين الأحيان المتباعدة، ترودان المقهى الفندقي الصغير أو بوفيه الطابق الرابع تبسطاً وتغييراً للنزهة! اقترحتا مرة عليّ بعد لقاء متأخر في البارك أن أخذهما معي إلى الشقة: لن يحوجنا فراش ثان. سنرقد نحن الثلاثة معاً في سريرك وأنت بيننا! وحين أبديت تبرماً ضحكتا مني.

وفيما كنا نتذكر أيام المقهى الرياضي الصيفي المنفرد بين الشاطئ والملعب.. حيث كنا نلتقي مصادفة طلباً للسباحة والتجذيف.. دخلت صاحبة زينغا آمرة مرافقها أن ينتظر عند السلم الأشهب. صافحتني قائلة:

- هل تسمح لي بلحظة؟

قمت معها إلى الفسحة المنبسطة بين المشجب والمقهى الآخر.

- اتصلت زينغا بي البارحة من تالن.. تصور: في منتصف الليل! هي عاتبة عليك جداً.. عتاباً خطراً كما تقول: لم يكلف نفسه ويرفع سماعته وأنا أدير رقمه وأدير.. وهي غاضبة عليّ أيضاً.. ولا أدري بأي حق؟ لماذا لم تطرقي بابه الأصم؟ أتيت اسأل عنك وفررت خجلاً منك.. ما دمت لا تريد أن تتصل بها فلماذا أتدخل أنا؟ قولي له إنني قادمة بالدابة نفسها هل تعني الطائرة؟ إنني قادمة بالدابة التائهة في البرية ولم تذكر متى

بالطبع لا عكاز معي إلا ساقي، ولا مسبحة إلا قلائد المخزن بربك.. هل تفهم شيئاً من هذا؟ هل يدرك أحد ماذا تعني؟

- من المؤكد أنها كانت ثملة.

- كلا. ربما كانت تهذي محمومة.

- طيب. سأتصل بها.

تساءلت الفتاتان معاً حالما عدت:

- ما بك؟ أنت شاحب تماماً.

- لا شيء.

- كلا. وأنت ترتجف أيضاً.

- سآتي لنا بكونياك.. وتنقشع الغمامة.

- جيء بكأس واحدة لك.

- وأنتما؟

- ألم نقل لك؟ لم تبدأ الأحصنة الركض بعد!

إنها تعلن عن أسرارها إعلاناً. ألم تكشف الحدباء أستارها عن النافذة من قبل؟ ألم تفتح أبوابها إلى الأقبية.. إلى عالمها السفلي الأصفر؟ واعترافها في المطعم متأرجحة بين المكاشفة والتمويه؟ كل ما يدور حولي سائر في اتجاهين:

الساق الخشبية إلى زينغا، والعكاز الأبيض إلى دنيا! إلى الأقبية أو إلى خيمة جدتي! إلا أنني لم أزر جدتي في خيمتها إلا من خلال نافذة الخبيرة.. نافذة الأقبية! هل كانت رحلة متوهمة بخيمتها وأتانها؟ فمن أين جاء هذا الخاتم إلى يدي؟ ومن أتى أيضاً بالخاتم الأزرق إلى يد دنيا؟ لماذا لا أقترن بدنيا؟ فقد تقترن قوة خاتمها بي أيضاً، ألم يقترن الحرفان

الأولان من اسمينا باشتباك القوى الخفية وتداخلها؟ ما أدراني بقدرتها على السريان والتسلل كالماء في أعماق الينابيع؟ ألم اكتشف الصبية المليحة، طفلة الحمائم، في المكتبة نفسها حيث التقيت "الخفاش" وحيث تتحرك الحدباء وتحرك الخيوط المتشعبة؟ لماذا لا أتحرك أيضاً فأقترن بدنيا؟

- أتريد أن نبقى معك؟

- أنتما مشغولتان.

- لن نذهب إلى أحد. ليست هي المرة الأولى.

عبر الواجهة كان المطر ينصب انصباباً.

- هات كونياكاً.. ودع لنا تفريج الغمة عنك.

سأمسي ثقيلاً، بالطبع، على دنيا بقلقي وهواجسي المظلمة. ثم من يذهب تحت هذا الوابل قاطعاً الشوارع إلى سينما؟ ولماذا أخرج دنيا من وكرها الدافئ إلى الأزقة المبتلة المقرورة؟ سنؤجل مشاهدة الفيلم إلى اليوم الآخر؟ .

- وبعد المقهى.. إلى أين تودان؟

- إلى شقتك!

- ألا نصعد إلى المطعم أولاً؟

- كلا، نتزود من مخزن الفندق بكل شيء.

- طيب. سأعتذر عن حضور فيلم من تلفون المقهى.

أبقيتهما عند المدخل محتميتين به ريثما أوقف سيارة. وسرعان ما انطلق التكسي المغلق الدافئ يتهادى بنا تهادياً تحت أمطار الليلة الخريفية المطبقة. وقبل أن تنعطف السيارة إلى

الشارع العريض الآخر حيث أسكن.. لاح كشك زهور. أشرت على السائق بالتوقف ملتفتاً إلى الفتاتين:

- سأعود بباقتي أزهار.

على جدار الكشك ينفرش إعلان عن الفيلم الذي تعرضه سينما الحي. تأملته قليلاً غير مكترث به تحت المطر وفي مهب الرياح الباردة. وعدت ضاحكاً قائلاً لهما:

- الليلة يعرض فيلم عنكما.

- عنا نحن؟

- هذا ما يقوله العنوان في الأقل.

- وما هو؟ لا يبدو واضحاً من هنا.

- قد تطير الفراشات في الليالي الممطرة.

- فعلاً! ألسنا فراشتين ملونتين تطير بنا سيارة تحت المطر؟

أضاءت الفتاتان مصابيح الشقة، وأوقدتا الثريا المتدلية من السقف.. فتلألأ البهو تلألؤاً. زرعتا الزهور في المزهريات المنتصبة هنا أو هناك، ثم جاءتا إلى المائدة بالقناني والأقداح، وبعدئذٍ اكتملت الصحون بأطعمتها. صدحت الموسيقى عالياً فخففت منها.

- ومن يسمع غير المطر والرياح في هذه الليلة؟

- لم يشك جيراني مني إلا عزلتي!

- دعهم يشكون الليلة من صخبك وضجيجك!

- ليكن.. بم نبدأ؟

- بالبيرة.. وبعدها لا يدري إلا الشيطان!

وأخذتا تتجردان..

- ستبردان.

- في هذا الدفء الخانق لا يبرد حتى القطب المتجمد!

الصورة صامتة في إطارها الأصفر الباهت غير ناظرة إليّ. لم يجر لي ببال، حتى هذه اللحظة، أنها قد تضحك أو تسخر، بل لم أتذكرها هي نفسها مذ أبدت الفتاتان رغبتهما بمرافقتي والتسرية عني ما الذي أنساني أمرها أو من؟ هل هي زينغا؟ ومن غيرها! فأين هي، إذن، غيرتها وتلصصها؟ ألن تغار إلا من دنيا؟ ولعلها هي التي دفعت بالفتاتين دفعاً إلى المقهى الجانبي في هذه الليلة الماطرة. ودفعت بي إليه، وأبقت المائدة خالية إلا منهما حتى جئت من هي ميديا مقارنة بها؟.

- ماذا تنتظر؟

- سأقلب الاسطوانة.

- لا تتغاضَ. تعرَّ وابقِ ورقة التين إذا أردت.

وكشفتا عن النافذة متطلعتين إلى المطر.

- أسدلا الستارة من فضلكما.

- لن يغضب منظرنا أحداً.

- والعقلاء.. الثقلاء؟

- هم أكثر الخلق تضوراً إلى جسد عار!

ثم قلت وقد انتشرت العلب الفارغة في البهو:

- ألن تكفا عن البيرة؟

- ليس بعد.

- وهذه القناني بأنواعها؟

- لن يبقى منها إلا أنخاب الصباح!

وكنت أسمع المطر كلما سكتت الموسيقى، وأصغي إلى الرياح وهي تهز أشجار الحديقة العارية هزاً تحت النافذة، ولم ينقطع المطر ولم تهدأ الرياح إلا في اليوم التالي، وقد ذهبت الفتاتان بعد الغداء في مطعم السهم الذهبي وهو غير بعيد عن سينما الحي. فاتجهت ماشياً إليها، منتوياً اقتطاع تذكرتين لليلة. وكانوا بدلوا الفيلم وعلقوا إعلاناً عن فيلم آخر. دسست البطاقتين في جيب المعطف، وانثنيت أسير عابراً الشارع. وكان أحد الصبيان، في الحدائق المنفسحة بين المنازل، يلهو بفراشة ورقية تطير وتسقط.. فسمعت صبياً آخر يصيح وهو راكض: قد تطير الفراشات.. فالتمعت في ذهني، فجأة، فكرة لم تبرح غير واضحة منذ البارحة ألم تكن لي أنا أيضاً فراشة.. جاءت طائرة إليّ من النافذة كحلم؟ فهل تطير فراشتي في الليلة الممطرة كفراشات الفيلم؟ ربما كان موعد دنيا موعداً معها هي أيضاً.. فأضعته متخلفاً عن الحضور بحجة المطر؟.

9

أسبوع مشمس دافئ تتمطى شمسه من نومها متكاسلة كل صباح، وكل شيء هادئ في الشقة والمدينة! غير أن الأشجار عارية، والربيع لا يتنفس إلا بعد شهور! ولا أوراق إلا أوراقي المترجمة متجمعة على المكتب. النافذة منفتحة للشمس والريح الرخية، والمطبخ يعبق برائحة القهوة. أنجزت المنظفة أعمالها مبكرة فأهديتها زجاجتي خمر تزين بهما مائدة ميلاد ابنها الجندي العائد. كل شيء هادئ: الميموزا تتفتح في الزاوية، والحديقة، تحت النافذة، تنتظر أرديتها البيض كما انتظرت دزدمونة ثوب زفافها.

اتصلت بي دنيا من المخزن المركزي تريد أن أصحبها في نزهة صباحية بديعة غير متوقعة تحت الشمس الكسلى: انبأتني زميلة لي أنهم يبيعون هنا اليوم ملابس شتوية للأطفال، ملابس رائعة لم يشهد السوق مثلها منذ أعوام! انتزعت إجازة من المصنع وها أنا أتلفن لك من الأكشاك القريبة من المخزن. أسمع.. سأقف عند المدخل الجنوبي إلى المخزن بعد نصف ساعة، وهي مدة من الزمن كافية وتزيد.. فلا تتأخر من فضلك.

تجولنا طويلاً بين القصور الملكية وحدائقها، وسرنا بعدها على امتداد الكورنيش.. تحت الزيزفون المتجرد والصنوبر الملتف بخضرته القاتمة.. ثم انحدرنا إلى المركز.. عبر الساحة

الرحبة المبلطة بالجرانيت الأحمر الداكن. وكنا جائعين عطشين بعد مسيرة متعرجة لم نتوقف أثناءها عند مقهى أو كشك.. احتفاظاً بجوعنا لمائدة مريحة، ممتعة نختار مطعمها اختياراً.

ابتعت باقة طازجة تتفتح فوق المائدة زينة للأعين، وفي نيتي التوجه إلى مطعم الصفصافة. فاجتزنا شارعاً عتيقاً لا يقطعه من المركبات إلا ترام أثري متمهل. ودخلنا المطعم المنزوي تحت مظلته.. حيث لا يقدم إلا النبيذ المعتق منذ عشر سنين فأكثر والطيور البرية، ولا تعزف جوقته الصغيرة غير موسيقى القرن التاسع عشر أو ما قبله.. ومع قائمة الطعام تضع النادلة بين يديك منديلاً تذكارياً أبيض مطرزاً بصور أشهر الفنانين والأدباء الذين انتجعوا أركانه. وعلى الحوائط صور أهداها رسامون قدماء.

- لم تخبرني مرة خبر هذا المطعم.

- ألم تدخليه من قبل؟

- كلا.

- أنا لم أتذكره لا لحظة رؤيتي بائعة الزهور.

- ولماذا بربك؟

- رأيتها أكثر من مرة هنا.

- أكنت من المترددين عليه؟

- أحياناً.

- وهل رأيت بعضاً من هذه الوجوه الشهيرة؟

- مرتين كما أذكر.

- هل هم ممن تقرأ لهم و.. تحب كتاباتهم؟

- أحدهم كان شاعراً اجنبياً، قضى في سجون حكومته خمسة

عشر عاماً. افتعلوا، بعد الإفراج عنه، تهمة جديدة ليشنقوه.. ففر.

- وهل حصلت على توقيعه؟

- خرجوا قبل أن أزمع أمري.

- لماذا ترددت؟

- كنت أكره مضايقته ساعة ارتياحه.

انطوى النهار المشمس بين أيدينا ونحن على المصطبة بعد أن أفضت بنا الأرصفة إلى الحديقة الصيفية. المتنزهون يمرون أزواجاً أو جماعات، والفندق الرمادي الغائم قائم عبر الساحة. الريح ترتجف، واليمام يحط متواثباً ويطير بين المبنى والمعرض النباتي.. والسماء المائلة على المدينة تصطبغ بالحمرة الكثيفة الزائلة عما قريب.

ركبنا التكسي متجنبين زحمة المترو ساعة المساء. وعند المدخل إلى بيتها، وقد ازداد البرد شدة والرياح هبوباً، ضمت يدي بين يديها النقيتين الدافئتين قائلة:

- ألن تدخل؟

- كلا. هل يمكنك الحضور؟

- بعد الثامنة.

عبرت البولفار، بين أشجار الممشى العارية المترنحة في مهب الرياح، ويداي في جيبي معطفي.. مثلما اعتدت وضعهما هكذا وأنا أسير منفرداً في الأمسيات الباردة تحت أشجار

الشارع أو في الطرقات المنعزلة. وقبل أن أفتح باب المصعد أقبلت المناوبة من المطبخ حاملة قدح شاي، قائلة:

- جاء الأعرج برسالة أُخرى لك.

- الشيخ ذو العكاز.

- هو نفسه.

وجدت الشقة مضاءة، فتذكرت أنني أضأت بعض أنوارها قبل أن أسرع إلى المخزن المركزي.. كانت الرسالة خالية من أي حرف تماماً. لم تكن إلا فراشة ورقية بيضاء.. انفلتت من بين يدي طائرة وخرجت من النافذة المفتوحة. تابعتها بعيني وهي تبتعد تحت أضواء الطريق والحديقة، ورأيتها ترتفع عالياً في الرياح الهابة وتختفي بعيداً.. كما تختفي طيارة الطفل اللاهي في منفرج بين البيوت، وقد انقطع بها الخيط الناحل المديد، فانطلقت تحملها الريح العالية فوق السطوح.. بعيداً إلى حيث لا تصل عيناه الباحثتان عنها بين الحمائم الحائمة، فيقف يائساً، مدحوراً ولا شيء في يمينه إلا البكرة وبقية الخيط الخاذل.. وأما أنا فلا خيط يتدلى من يدي، ولا بكرة أطبق أصابعي الخائبة عليها.

وكنت أعلل نفسي قائلاً: كلا.. ليس هو الشيخ الأبيض، لن تبعث جدتي بفراشة تخدعني وتختفي! لم يكن الأعرج إلا رسولاً من زينغا.. أرسلته حاملاً فراشته الزائفة تضليلاً وسخرية كما أرسلت الغربان رسولها المنتوف الأجنحة إلى البوم. ليس من الصعب عليها اصطناع لعبة على هيئة الشيخ الطيب وترمي بها في طريقي! هو شيخها المزور العابث لا شيخي أنا. أجل!

ليس هو شيخي ذا الحاجبين الأبيضين. انتهى الأسبوع الصافي! انتهت راحة البال!

أشحت بوجهي عن الصورة الصامتة وأنا أقول لنفسي: فإذا كان هو الشيخ نفسه، وقد اكتسبته زينغا إلى صفها مغررة به؟ لا أحد يدري إلا جدتي، وهي لم تبعث بعلامة تحذرني بها منه، أليس في مقدورها أن تدخل شقتي فراشة أُخرى مثلما أدخلت زينغا جيبي فراشتها الورقية؟ ثم ما أدراني فأحكم وأستدل؟ هل عرفت حقاً ما تعني هذه الفراشة الجديدة وقد زارتني للحظة؟ ربما جاءت حاملة إنذاراً أو بشرى.. وعليّ أن أفكر ملياً وأستنتج وأتهيأ، إن ما يحيرني هو طبيعتها الورقية، هو أنها لعبة كأي طيارة بين أيدي الصبيان!.

وفتحت علبة بيرة أتسلى بها قد تكون المخدوعة هي زينغا، ألم يخدع قبلها الخفاش بابنة الحمائم فلم تثر شكوكه رغبتي بالجلوس إليها؟ وعلى أي حال فاللعبة لم تتم بعد ولم تتضح "القضية" كما ينبغي لها أن تتضح! ما المعنى الكامن في فراشة ورقية تأتي مرسلة إليّ هاربة، متوارية عني؟ أنا لم أشاهد الفيلم مع دنيا معتللاً بالوابل الهتون.. فهل ثمة خيط بين الفيلم المفقود والفراشة الفارة؟ خيط أضعته إلى السينما فلم أمسك به؟ ولربما كان هذا عقاباً أنزلته الأقدار بي جراء استخفافي بالموعد القدري مع فراشة جاءت طائرة إليّ، تلك الليلة الممطرة، ولم تجدني! إلا أن أحداً لم ينبئني غير إعلان الفيلم الغامض.. وكان علي أن أفسره وأتحرى كل شيء عنه! ربما لم تسر الأحداث، ولم تجر الأمور إلا هكذا!.

ظللت أتساءل وأجيب.. أستكنه وأتشكك مجترعاً علبة البيرة تلو الأُخرى، سائراً بين المطبخ والبهو: لم تقل إنها عائدة. قالت: أنا قادمة! فما الفرق؟ ولربما هي تهدد وتتوعد! فمتى تقدم أو تعود؟ أوليست هي ها هنا خلف الصورة وفي المخزن.. وعند كل خطوة أخطوها؟ لن يجري المجرى إلا كما ينبغي له أن يجري! سأطرق باب الصفراء، وأتنقل بين أجنحة المخزن.. بل سأدخل غرفتها، غرفة السكرتيرة صامتاً، وأحدق إلى عينيها الذهبيتين تحديقة طويلة، وأخرج صامتاً، تاركاً على مكتبها علبة سجائر! فإذا جاءت صاحبتها الآن موفدة منها إحراجاً لي ولدنيا لن أعدم شرحاً أو أيضاحاً. أما إذا كانت الضيفة هي الحدباء نفسها فلن يتطلب الأمر تعليلاً!.

وطرق الباب طرقة دنيا غير المتعجلة. أخذتها بين يدي مقبلاً وجهها الناصع، المتورد برداً، ويديها النقيتين، وعيناها تضحكان بهجة. أفزعتها علب البيرة الفارغة مصفوفة على مائدة المطبخ.

- فما الذي ستشربه معي؟

وأبعدت العلب إلى السلة القابعة في الركن قائلة:

- علبة واحدة كانت ستكفيك.

- كنت أتسلى.. ولم أعدها.

- عدها في المرة القادمة من فضلك.

- طيب. ماذا سنفتح الآن؟

- بعد هذا المقدار كله؟

- أنت لم تشربي بعد.

- سأكتفي بقدح نبيذ.

- هل أوصتك جدتي خيراً بي؟

- أوصتني أمي.

- وجدتي؟ ألم تزرك في الحلم؟

- أنت ذكرتني.. قل لي: هل كتبت لها عن إهدائك الخاتم لي؟

- إنها تعرف قبل أن أكتب. إنها شيخة حكيمة.

- مع هذا. أكتب لها وبلغ إليها مني السلام.

10

قال البروفسور:

- واضح أنك ذاهب إلى المكتبة.
- وأنت آتٍ منها.
- استعرت سفراً لم يصلهم إلا قبل يومين.
- وأنا سأقرأ ساعة قبل أن أبدأ جولتي.

وأضفت، وكانت محطة المترو غير مزدحمة بعد:

- ألن نجلس على المصطبة دقيقة؟
- لا أمتع من الإصغاء إلى متتبع!

مددت يدي إلى جيبي وأرجعتها، فلا تدخين هنا وقلت:

- مخطوطة الشيخ تلك.. التي نقلت عنها الكراسة.. ألم يخطر لك أن تحصل عليها مصورة كلها.. أو على جزء آخر منها مثلاً؟ لقد امتدحتها لي امتداحاً ما انفك يشوقني إليها ويثير فضولي بل صرت أتخيل أجزاءها الأُخرى وأتصفحها في ذهني.
- في الواقع هي أخبار متفرقة كأغلب الكتب التراثية الشبيهة بها. غير أن ما يمنحها نوعاً من التفرد هو طابعها المستقبلي، ولعل الكراسة هي درتها أو لؤلؤة غواصها المكنونة كما يقول عنوان أحد الكتب.. في تقديري الشخصي بالطبع أو هو ما بدا

لي ساعتها وأنا منطوٍ على صفحاتها انطواء الرضيع على صدر أمه الخصب في لوحة بيكاسو الأم والطفل كما تذكر! وقد تسنح الفرصة فألتقي الشيخ ويسمح مشكوراً بتصويرها، وستكون أول من أعيره إياها.

واختطفت نظرة ألقتها امرأة ما علينا:

- هذه الملتفة بالفرو الليكي الم تذكرك بأوصاف الأميرة؟ إن لها النظرة المشتعلة والملامح نفسها.. كما يخيل لي!

- ربما.. وتذكرني بغادة أُخرى أيضاً.

- من الكتب.. أم من ربوعنا هذه؟

- من هنا. وهي الني عرفتني بالخبيرة.

- وتتردد على المكتبة أيضاً؟

وظل متابعاً المرأة بعينيه حتى صعد بها السلم واختفت. وأضاف بعد التفكير مومئاً إلى الصور المرسومة على الحائط الرخامي:

- الظل على الجدار.. والفكرة على أرصفتها الخفية.

- أو في مملكتها البنفسجية

- تماماً كما تقول الحكاية.

وتنحنح قائلاً:

- مع هذه المرأة أرحل رحلة الأمير إلى المجهول!

التقيت الحدباء ساعة غدائها في البوفيه فأرشدتني إلى مجموعة من الكتب في السحر الأصفر.. فأخذتها غير مصغ تقريباً إلى شروحها وانزويت في الغرفة الخاصة متلفتاً، بين

الحين والآخر، إلى الباب ألن تدخل الصبية المليحة مصادفة مثلما دخلت ذلك اليوم قبلي إلى هنا؟ من أجلسها في هذه الغرفة وهي ليست للعامة من القراء؟ ربما هي إحدى جاراتها من الموظفات في هذه المكتبة! كم من أسئلة سأسأل، وكم من أجوبة أستوضح! أتعبني السير بين الناس وهدوء الصورة في الشقة! ما الذي تخبئه الشفة الملكية الممطوطة؟ ومن الشقة إلى أقبية الحدباء، ومن المقهى إلى المطعم وأنا أردد: أين هو الطريق إلى النور؟ وأين هي طفلة الحمائم؟.

بين المكتبة والشارع التقفني إعصار لم تدم ثورته الهائجة الدوارة إلا برهة، وتعالى متوارياً في السماء المتكاثفة سحباً، مختطفاً قبعتي مثلما اختطف جوبيتر غانيميد. فاضطرت إلى ابتياع قبعة جديدة. كانت الحافلة عند الموقف. ركبتها ونزلت قبالة الفارس المجنح. المانيكان كالصورة هادئة غير ناظرة إليّ. لم أبقَ أمامها إلا لحظة وانعطفت مع السابلة المتسارعين إلى المخزن، وسرت بين أجنحته المتلالئة بألوانها وأنوارها متجهاً صوب جناح الصفراء. ابتسمت لي مصافحة شادة على يدي بيدها الغضة الحارة وأدخلتني مبتعدة بي بين الفراء والمعاطف الشتوية الدافئة. أعطتني برتقالة كبيرة ريانة مقتربة مني اقتراباً بقوامها الشهي المترجرج.

- كلها يا صاحبي. إنني فرحة بك. وإليك هذا المنديل الورقي أيضاً. لا تقل إنك قادم من أجلها. إنها مجازة. ما الذي جعل الأمور تجري معكوسة في ما بيننا؟ أخرج أنا وأنت نائم وتخرج أنت وأنا نائمة.

- لن نغفو الليلة أو نصحو إلا معاً.

- لم تزل التاسعة بعيدة.. فإلى أين أنت؟

- إلى حيث تقودني قدماي. وبعدئذٍ انتظرك عند الواجهة.

- كلا ليس هنا.

- ولماذا؟

- إنهن يحتفلن الليلة بعيد طلاق بائعة، سيلمحنك حالما تخرج ويتشبثن بك. سأجلس معهن نصف ساعة وأغادر مسرعة إليك. قل في أي مقهى ستنتظر وأنا أجيء. لن أتأخر عنك. لماذا لا تأكل؟ إنها طازجة.

- قلت عيد طلاق إحداهن؟

- وأي فرق؟ ألن يحتفلوا بأعياد الزواج، فإذا أصبحت الواحدة منا حرة، نافضة عنها غبار زواج خائب.. لماذا لا تحتفل بذكرى طلاقها عندما تحل أو بطلاقها حين تدخل البيت وفي يدها تلك الوريقة الميمونة؟

- أنت محقة تماماً!

- قل أين ستنتظر قبل أن..

وقبل أن تكمل هتفت بي إحدى البائعات مادة رأسها من بين المعاطف، ضاحكة ماسحة خدها بالفرو الناعم في دلال القطط.

- لن تخرج قبل أن تعدني وعد فرسان!

همست الصفراء هازة كتفيها:

- ألم أقل لك؟

اتفقنا أن يلحق بي بعضهن إلى المقهى الجانبي الصغير،

ومن هناك نركب أسرع سيارة إلى الحفل! قبل كل شيء سأشتري باقة أزهار طالباً من البائعة اختيار النوع واللون. وسأملأ بالطبع حقيبة بالقناني والمعلبات الفاخرة من مخزن الفندق الرمادي الغائم وأتركها عند شيخ المشجب في انتظار الركب الأصفر؟ وكنت أسير إلى المقهى خفيف الخطوة كما سار من قبلي إلى حانته سيرغي يسينين في أزقته الملتوية.. كما يقول! حضر الحفل المخزن كله تقريباً.. بمديره الأعجف الطويل والنائبة عن سكرتيرته. ولم يتخلف من البائعين والبائعات غير الشيوخ والعجائز كما قلن.. أو غير الرصناء المتزوجين كما فهمت.

لا أدري كم كان عددهم! كانت الشقة مكتظة.. وكان أغلبهم واقفاً. ثم فتح الباب أخيراً فتجمع بعضهم خارج الشقة. لم يبقَ المدير إلا ساعة وانصرف متبوعاً بفتاته ووكيله والمرهقين من المرضى بالضغط والقرحة، كانت النوافذ منفتحة، والريح اللاذعة تندفع فلا يكترث بها أحد.

ثم جاءت كهلة ما لم أرها أنا حاملة رداء زفاف أسود وثلاث زجاجات شمبانيا هدية من السكرتيرة.. من زينغا. سألت: لماذا ثلاث؟ فقيل لي: لم تدم حياة المحتفلة الزوجية إلا ثلاثة أيام وكانت الصفراء تشق دربها إليّ، بين الحين والآخر، هامسة في أذني: كلما امتلأ الزمان فرغ المكان وكنت أقول لنفسي: ربما هي تعني العكس فلم أعر حكمتها اهتماماً. ثم سألت نفسي ضاحكاً: وماذا يعني العكس؟ فلم أعثر على جواب مقنع في الحالتين. أمسكت بذراعها وهي تهمس عباراتها للمرة الرابعة متسائلاً إلى عينيها الآسيويتين:

- ماذا تقصدين؟

- لا أعني إلا شيئاً بسيطاً.

- هلا أوضحت.

- ألن تمتلئ الساعة تماماً عندما ينطبق السهمان على آخر الأرقام وأكبرها.. على الثاني عشر وبعدئذٍ تبدأ الدورة ثانية من أصغر رقم؟

- أجل. من أصغر رقم.

- فهي، إذن، عند الثانية عشرة ممتلئة تماماً. قبل الثانية عشرة يتفرق الناس إلى بيوتهم.. غداً يبكرون إلى المخزن. ولن يمكث أحد منهم تقريباً عند الثانية عشرة فيفرغ المكان. كم الساعة من فضلك؟

- الثانية عشرة إلا ربعاً.

- فانظر من حولك يا صاحبي، ألم ينقص عددهم كثيراً منذ الآن؟

- تماماً كما تقولين.

- سترى الشقة فارغة بعد قليل.

وكما قالت الحكيمة الشرقية لم يبق في الشقة بعد الثانية عشرة إلا صاحبتها المحتفلة وصديقها بالطبع وأنا والصفراء. اقتربت المحتفلة مني متهللة الملامح، رافعة قدحاً جديداً:

- الآن يبدأ الحفل الثاني!

قلت ناظراً إلى الرداء الأسود المعلق راية فرح غريبة:

- وأنتِ؟ ألن يسألوا عن تغيبك غداً؟

- منحت إجازة أَستحقها بعيد طلاقي!

- وصاحبتي؟

- هي أذكى من أن يفوتها استرضاء نائبة سكرتيرة فلا تجاز!

كانت مائدتنا المطبخ والطاولات العديدة بعضها من الجيران مثقلة بالصحون المنظفة المرتبة أكواماً، وبالأقداح المغسولة المتلامعة.. والمنافض خالية مصقولة منذ لحظة أفرغتها ونظفتها البائعات قبل المغادرة لا غلاف حلوى ولا قشر فاكهة على الأرض، والشقة تتلألأ سروراً! مع الدقتين الاثنتين، الآتيتين من ساعة المطبخ قالت الصفراء الحكيمة:

- آن أن تأوي الطيور المتأخرة إلى أوكارها!

اعترضت المحتفلة ماسكة بيدي بمودة:

- كلا.. لا تخرجا الآن.

قلت ناظراً إلى رداء الزفاف الأسود:

- هي ليلة زفاف مقلوبة.. لن نثقل عليكما أكثر.

- اتصلت زينغا بي مهنئة قبل ساعة.. وأنت أدرى منا بمزاجها المتقلب وتصرفاتها. أخشى أن تجدها في سيارة أمها عند المخزن.. أو أن تدق الباب بعد دخولكما في أي لحظة، لا لشيء إلا لتشربا معها آخر قدح. وقد تأتي سكرى متعبة فتزداد سكراً، لن تبقى معكما بالطبع مهما تتوسلا وتخرج مخمورة فتؤذي نفسها بحادث. الأفضل إلا تخرجا.

- قلت متعمداً.

- زينغا في تالن.

- عادت اليوم من تالن من دون أن تكمل إجازتها.
- وما أدراها أنني هنا؟
- المخزن كله يعلم.. ولا تعلم زينغا؟
- سنذرع الليل كما يقول أبو شبكة إلى آخره في سيارة أجرة.
- ستبقى عند المخزن عناداً ومكابرة.
- لن يصعب عليها دخول الشقة.. أو دخول المخزن نفسه والتلفف بالفرو الناعم الدافئ.. والجلوس إلى مكتبها قبل أن يحضر أحد منكم.

فضحكت قائلة صريحة الوجه:

- وما بك؟ المخزن مقفل منذ التاسعة.
- سأمضي، إذن، بصاحبتي إلى شقتي.
- الأفضل ألّا تخرجا.
- ما الفرق بين بقائنا هنا والذهاب إلى بيتي؟ ستبقى منتظرة عند المخزن. كما قلت، في كلتا الحالتين.
- لن تذهب إلى هناك قبل أن تتصل بي وتعرف. ولا أريد أن أكذب عليها. لا يمكنني. لن تخفى على مثلها كذبة صغيرة كهذه.
- فلماذا لا تأتي إلى هنا؟
- لا أحد يدري إلا زينغا!
- قد تطرق الباب الآن.
- كلا.. قالت إنها لن تأتي.. فلن تأتي.
- أخبريها أننا ذاهبان إلى شقتي.

- سأخبرها، ولن تتبعكما إلى هناك.

والتفتت إلى الصفراء مازحةً كالجادة:

- لن أقف بينك وبين نظرتها الغيرى المشتعلة.

فردت الصفراء مازحة كالجادة أيضاً:

- أنا لي آلهة تحميني.. لم تزل منتصبة الآذان فوق أسوار التتر والمغول!

وأضافت مومئة إلى الرداء الأسود:

- هذه البدعة من السكرتيرة لن تفيدكما، سآخذه وأهديك عوضاً عنه رداء عرس أصفر.. أجمل ثوب تحلم به عروس! أوقفت الصفراء سيارة بعد أول خطوة إلى الشوارع النائمة. وكانت يدها الغضة الحارة بين يدي طيلة الطريق. قلت ممازحاً:

- غداً تشتعل الواجهة غيرة وحنقاً!

- بل يشتعل المخزن كله.

- كنت أخشى أن تجزعي فتنكصي.

قالت مازحة أيضاً:

- أنا أجزع.. من غيرة سكرتيرة؟

- إنها زينغا!

- وأي فرق؟ نحن صاحبتان!

وكنت أسمع وقع الحوافر المتسارعة من خلفنا، وأرى الخيول الصفر تتقدم مالئة الشارع بفرسانها المجنحين، الصائحين صيحات اندفاع قصيرة، ووجوههم منحنية على أعناقها. قال السائق معجباً بسرعة الخيل:

- إنها تسبق السيارة.

أوضحت الصفراء قائلة:

- إنهم يخرجون فيلماً.

دخلنا الشقة الدافئة فتخففنا من المعطفين. فجأة انفتحت نافذة المطبخ بقوة وتدفقت الرياح الباردة منتهبة غطاء المائدة، طائرة به فأسرعت لأُغلق النافذة، غير أنني لم أكن في المطبخ.. كنت أغلق نافذة غرفة القراءة الخاصة المفتوحة بقوة الريح منذ لحظة، ودوي انفتاحها ملء أذني. كنت في المكتبة. أعدت الكتاب الأصفر إلى الموظفة وخرجت متلمساً قبعتي الجديدة خوف أن يطير بها إعصار آخر. لم تزل المانيكان هادئة، صامتة، والمخزن يتلألأ بألوانه وأنواره، وكان مزدحماً بالناس في تلك المغربية المبشرة بالصقيع والشتاء! دعتني الصفراء إلى جناحها غير مبالية بكثرة الزبائن، عيناها تتألقان ووجهها يضحك:

- لففت الرداء الأسود ونسيته، في شقتك، في آخر لحظة شغلتني المنظفة بحديثها الشيق. القهوة التي أعددتها بعد نهوضنا المتأخر طيبة جداً.

وأضافت ممتدحة:

- شقتك أوسع من شقتي!

- لن أحتجزك عن زبائنك. غداً أمر عليك.

- هنا.. أو قرب الفارس المجنح ساعة الغداء.

وأومات برأسها إلى الطابق الثاني:

- إنها فوق.

- ألم تغضبها زيارتك لي؟

- نحن صديقتان! ألن تصعد؟

- هي أيضاً مشغولة.

وكنت أقول لنفسي وأنا في التكسي: قبعتي جديدة حقاً. لكن من يدري؟ فإذا وجدت الثوب الأسود غير طائر من شقتي مع الرياح والخيول المجنحة.. فهذا يعني أنني مكثت في المكتبة يومين ونهاراً بدون أن أخرج أو أنني عشت حقاً هذين اليومين والنهار الثالث متنقلاً بين الأمكنة وأنا في المكتبة! وكما قالت الصفراء.. كان الرداء الأسود منتظراً على الأريكة، وقد لف بورقة كبيرة من أوراق المخازن! نشرته متأملاً روعته، وحملته بين يدي كامرأة نعسى إلى غرفة النوم ومددته فوق غطاء السرير الأبيض، أغلقت بابي بإحكام وهبطت إلى الشارع والليل.

كنت عطشاً إلى البونش والقهوة.. فأنهيت تجوالي الطويل بين الواجهات والناس وقصدت الفندق الرمادي الغائم. المقهى الجانبي في أوج زحمته إلا أن ثمة من ينتظرني حاجزاً كرسياً لي.. كانت زينغا وصاحبتها تتحدثان في ما بينهما جادتين غير منتبهتين إليّ عندما دخلت، فانثنيت إلى النادلة طالباً حاجتي، قارئاً أنواع القناني المصفوفة خلفها على الرفوف.

ابتدرتني زينغا قائلة:

- ألن تغير مطلوبك في هذا المقهى؟

- متى عدت من تالن؟

- قالت البائعة إنها أخبرتك.

- من تعنين منهن؟

- صاحبة الدعوة.. المحتفلة بطلاقها!

- ولماذا لم تتلفني لي؟

والتفتت إلى صاحبتها قائلة:

- هل سمعت؟ كم من مرة اتصلنا فلم نجده؟

- طيب. تكهني من أين أنا قادم!

- لا أسهل منه على متكهنة مثلي!

- فمن أين؟

- من المكتبة.. فمن المخزن. ولم تكلف نفسك ارتقاء السلم إلى غرفتي. حقاً كنت مشغولة كما قلت أنت للتترية. هي نفسها أبلغت اعتذارك إليّ. غير أن تحية صغيرة لا تقدم أو تؤخر من مهام سكرتيرة!

- آن أن نصعد إلى المطعم.

- كلا. ليس هنا.

- وأين؟

- في مطعم البرج.

- لن نجد مائدة شاغرة.

- حجزت مائدة هناك قبل يومين!

وكنت أردد مقطعاً من أغنية غنتها هي بعد انصرافنا من سهرة هناك، وقد أحببنا أن نقطع جانباً من الطريق سيراً على أقدامنا:

- لا أحد يرقص في البرج.. لا أحد يدخن!

وتبسمت بشفتها الممطوطة الرائعة:

- لن أدخل المطعم إلا وأنا في رداء العرس الأسود!

وحدقت إليّ تحديقة خاصة:

- أخبرتني التترية أنه عندك.

وهنا تدخلت الفتاة الصامتة المتحيرة محتجة:

- ما بك؟ هل جننت؟

فقلت غير معترض على ارتدائها الثوب:

- سيحملنا التكسي نفسه إلى الشقة والبرج.

لم نبق في المطعم غير ساعتين.. فلم يدر بنا البرج العالي إلا دورتين وقد أثار الثوب الفاضح الدهشة والنظرات المتسائلة ساعة دخولنا.. سريعاً ما انصرفت الأعين عنه، وقد فسرت كل مائدة البدعة كيفما أمكنها اجتهادها. ولم تشأ زينغا أيضاً أن تفتتح السهرة إلا بالشمبانيا احتفالاً بزفافها الأسود. وقد بقيت الفتاة صامتة متحيرة.

كانت سيارة أمها متوقفة في انتظار.. جاء بها السائق في اللحظة التي حددتها زينغا أوصلته إلى بيته، وانحدرت بنا جائبة الليل، وقد ابتعدنا عن المدينة في الطريق الريفي المتوغل بين الغابات.. بعدما انعطفت إلى السهل محاذية السكك. وهنا نطقت صاحبتها النشوى قائلة:

- لا تزيدي السرعة وسيري أينما ترغبين ويحلو لك! فقلت مذكراً الفتاة خاصة:

- ألن تعملا غداً؟

أوضحت زينغا:

- تطوعت رئيستها المترهلة بمنحها عطلة.

- وأنت؟

- أقنعتهم بالتخلي عني غداً.

لم يسألها أي منا أين تنتهي رحلتنا الليلية المبتكرة.. غير أن الأضواء القليلة المتجمعة، الدالة على محطة وقرية ما.. والدرب الصاعد إلى القرية.. والمصلى ذا البرج الناحل الطويل القائم في الطرف منها.. ذكرني بفلاحة انقطع بها الطريق فأوصلناها، في رحلة ريفية لنا، إلى كوخها القريب من البرج ذي الأجراس!

قلت معترضاً هذه المرة:

- لن توقظي المرأة في هذه الساعة المتاخرة.

- كلا. لن أطرق بابها بالطبع. كل ما أردته هو أن نلقى نظرة على البرج القروي في الليل، ونرجع على أعقابنا. وفي طريق العودة نعرج على كوخ أمي الصيفي.

- وأين نعثر على مخزن لم يزل مفتوحاً في هذا الريف؟

- لا يخلو كوخنا من بغيتك.. فلا تقلق. أهلي وصحبهم يترددون عليه بين أسبوع وآخر. لن تكتمل الجولة بلا رشفة نتدفأ بها!

اكتفت الفتاة الوسنى بقدح كونياك وانسلت إلى الفراش. أما أنا وزينغا فلم نغمض أجفاننا الساهرة إلا ساعة تبلج الفجر الشاحب الضامر. لم تحضر الغليون معها، بل أبقته في غرفتها الزرقاء كما أخبرتني، فكانت تدخن من لفائفي دونما انقطاع تقريباً وقد فتحت العلبة الثانية لها، وكنت أحملها في جيبي تحوطاً مثلما اعتدت.. بحثت لي عن سجائر في المطبخ وفي غرفة النوم فوجدت بقية من علبة مهجورة فوق طاولة ما. كانت

القرية هادئة، غارقة في النوم.. إلا أن الصهيل يرتفع بعيداً، مقترباً بين الحين والآخر، والخيول المتراكضة تدنو من القرية وتنأى عنها بصيحات فرسانها القصيرة الشبيهة بصيحات الشراكسة على خيولهم كما سمعتها في فيلم عن قصة ليرمنتوف قلت متسائلاً:

- ألن يصحو الناس على الهتاف والجلبة؟

- لن يسمعها أحد غيرنا.

- والفتاة؟

- لن تسمع.

- لقد سمعها السائق.

- تلك كانت مزحة من التترية.

- وهذه الخيل المستنفرة.. أليست مزحة؟

- كلا. إنهم الأسكيف يتدربون!

- ويأتمرون بأمر الصورة؟

- ما هم إلا حشم وحراس. لن تأمر الصورة إلا أباطرة.

- ويمتثلون لها.. على أرضنا هذه؟

- ومن هم هؤلاء؟ تيمور الأعرج نفسه لن يستأهل أمراً منها.

فقلت ضاحكاً:

- وأنت بالطبع لن ترتضي ديدو القرطاجية عبدة لك!

اشتعلت عيناها الذهبيتان اشتعالاً لم أكن أتوقعه. اشتعلتا لهباً وبرقاً كاد وجهي أن يحترق بهما حقاً! وتلألأ صدرها، وقد انفرج الرداء الأسود عن نهديها بأكملهما، تلألؤ الكوكب

الصباحي.. تلألؤاً ثلجياً أوشكت أن أتجمد به. ثم هدأت وهمست جادة تماماً، وقد ستر صدرها الرداء:

- ألم تقتنع بعد؟ أنا لم تهبط بي العربة العشتارية إلا بحثا عنك!

قلت هامساً أيضاً:

- متى الرحيل؟

- بعد أن ترتضي صحبة الدابة إلى هناك، وتنجز المهمة.

- إلى أين؟

- إلى حيث هي ذاهبة.

- التفافاً في الغلالة الليلكية؟

- أنت تتذكر الحكاية جيداً.

- ما هي المهمة التي ينبغي أن تنجز؟

- كل شيء في حينه وموضعه!

- أنا لم أرك في الغلالة إلا مرة أو مرتين.

- ثمة ألف غلالة عندي أجمل منها.

- فإذا لم أقبل.. أترغمينني؟

- لن نتأرجح بهذه الأرجوحة الآن!

- وصاحبتك النائمة؟

- ما لها؟

- هل تصحبك أيضاً.. إلى هناك؟

ضحكت زينغا ضحكة خافتة بهيجة.. لا ضحكة الصورة أو المانيكان الساخرة الشارعية، وامتدت يدها المداعبة إلى حنكي

ضاربة بأصبعها المقصوصة الأظافر عليه.. ثم أخذت الزجاجة الفارغة إلى المطبخ، وعادت بأُخرى غير مفتوحة. صبت الخمرة الوردية الرائعة ملء كاسين، وأوقدت لفافتين:

لي ولها، وسألتني في حبور:

- أتريد جارية ثانية؟

- هل هناك جوارٍ أيضاً؟

- جوارٍ وملكات..

- فمن هي الجارية الأولى؟ الصفراء مثلاً؟

ضحكت، هذه المرة، ضحكة طويلة ضحكة امرأة خالية البال تماماً، ذكرتني بضحكتها أيام الربيع الفردوسي.. وقد نهضت نصف نهوض معتمدة ذراع المقعد، وانتثرت بضع قطرات من قدحها المترع على الأرض، فوضعته على الطاولة، والتقطت لفافتها آخذة منها أنفاساً. وابتسمت لي بشفتها السفلى الممطوطة، بعينيها الذهبيتين ووجهها الطفولي:

- لم أقصد إلا نفسي.

- ما أنت بجارية.

- على كرتكم الأرضية الصغيرة هذه..

- على كرتنا؟

- دعني أُكمل.

- تفضلي!

- على كرتكم هذه.. أليست الملكات جواري أيضاً؟ أليست الملكة جارية بعلها أو عشيقها؟ فكر ملياً وتصور وقل لي:

هل هي أكثر من جارية في المخدع؟ هل هي أكثر رفعة من أي امرأة بين يدي رجل تحبه؟ هي جارية لا أكثر ولا أقل من أي جارية تُباع وتُشترى.

- وعلى كرتكم؟

- على كراتنا.. أنا ملكة الملكات. أنا الملكة الأبدية!

- ألك بعل هناك؟

- ما بك؟ ألم يعثروا علي طفلة في سيارة مقفلة؟ لم يكن الرجل زوجاً إلا على الورق. فعلاً.. لا تضحك. سنوقظ الفتاة النائمة بضحكنا. أنت لم تجبني بعد. هل تريدها جارية؟ لن أقف بينك وبينها. أذهب إليها الآن إذا شئت قل لها إنني نائمة.. ستفرح الفتاة فرحاً غامراً!

- لم أرد إلا أن أعرف.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- قلت هل في نيتك اصطحابها هي أيضاً؟

فأجابتني متهربة:

- كل شيء في حينه.. وفي موضعه.

أصغيت إلى الصهيل المحتدم هياجاً في السهل العاري بين أحراش الصنوبر والسكة، وإلى القرية النائمة فلم أسمع إلا صياح ديك يجاوبه ديك آخر مؤذناً مثله باقتراب الفجر. وخطوت إلى النافذة وأزحت الستارة جانباً. فرأيت الخيول المتسارعة تعدو غادية رائحة بين الغابة والمحطة.. غامضة لا ترى في

وضوح كافٍ، فتبدو كالأطياف في العراء الليلي المنبسط تحت الضوء القمري المضبب الواهن. قلت ملتفتاً اليها:

- ألن يكفوا وقد صاحت الديكة؟

- ما هم بأشباح فينذرهم صوت ديك بالفجر.

- ألم تقولي إنهم الأسكيف؟ أليس الأسكيف أمواتاً؟

- كنت أشبههم بهؤلاء.. توضيحاً لك.

- فهم في تقديرك أحياء مثلنا!

- فكيف يتحركون في تقديرك إن لم يكونوا أحياء؟

- فمن هم؟

- لا تسأل ودعنا نشرب أو ننم!

السماء صاحية إلا نتفاً مبعثرة من الغيم تجري بها الرياح. وأنا في حديقة الكوخ المشمسة بين الأشجار العارية النحيلة، والفتاة تدعوني من نافذة المطبخ إلى القهوة، عيناها الصافيتان في مثل زرقة السماء الناعمة، وقد شبعت رقاداً، تضحكان لي. وزينغا لم تزل نائمة. الساعة هي الثانية عشرة تقريباً. أنا لم أصحُ إلا قبل دقائق مع أنني لم أنم إلا قليلاً. اغتسلت بالماء الدافئ قبل أن أدخن أو أحتسي القهوة المرة. وأردت أن أوقظ زينغا فمنعتني الفتاة ممسكة بذراعي قائلة:

- هيا نتريض ماشيين تحت الشمس. لن تلوم زينغا أحداً غيري إذا ايقظتها أنت: لماذا بكرت كالدجاج فأطرت نومي بتغريدك؟.

الفتاة تثرثر أو تتغنى فرحة بالنهار المشمس، والريح باردة

في وجهي، وأنا أقول لنفسي: هل هناك أحراش مثل هذه وحقول وشمس؟ أم هو فجر أبدي لا حر فيه ولا برد؟ أنا لم أسألها البارحة إلا بضعة أسئلة لن تصعب الإجابة عنها على امرأة كالصفراء مثلاً. ما أسكتني فلم أستوضح عن الصورة وأحاجيها. عن الغليون المفضض وأخيلته الراقصة؟ ألن يتحركوا هناك إلا راقصين طائرين؟ انتهى الليل واختفت الخيل وأنا لم اسأل إلا بضعة أسئلة! ثم ماذا تعني بالعربة العشتارية؟ هل هو تشبيه آخر؟ وعلى أي حال فاللغز كله في عيني الحمار الأبيض الصغير الذي فقدته وأنا صغير مثله! لن يهدأ لي بال إلا برؤية الحمار الصغير. بل لن أرحل إلا بعد أن يؤكدوا لي أنني ملتقٍ به.. هنا أو هناك. لا رحلة بلا شروط. الفتاة تمرح لاهية لا تدري. ليت الغلالة الليلكية تتسع لنا ولها! لا لشيء إلا لنزهة صباحية مثل هذه! ندع الملكة على عرشها تصرف الرياح، كما يقول المتنبي، بيديها العازفتين.. ونلهو. أنا وهي، كطيور السماء من روضة إلى أخرى.. ومن ساقية إلى ساقية. كم سيحلو العيش ويروق مع فتاة مثلها هناك! ولن نتجرع إلا البيرة الألمانية الباردة! تخضر الشموس وتصفر هناك كما أظن.. وتتلون السماء ألواناً شتى. لا تغذية إلا بالرحيق، ولا هجعة إلا على أجنحة الطير. قد ترضخ إذا اشترطت أيضاً صحبة الفتاة، لن تعوزها حيلة أو غلالة! لم تتهرب عندما سألتها إلا تكتماً. لن أرحل إلا ويدي بيد الفتاة! سيسرني كثيراً اقتياد الحمار الصغير إلى الحقل مع فتاة مثلها لا تشتعل عيناها استنكاراً أو غضباً فتكاد تحرق وجهي! منذ ساعة وهي تغني عابثة كالأطفال. لا يدور في ذهنها إلا الشمس ومطعم البرج!.

بعدنا عن القرية والمحطة مسافة شاسعة، فاقترحت أنا أن نعود! فأحبت أن نستريح دقيقة قبل أن نستأنف السير. التجأنا إلى كومة هائلة من الأعشاب المجففة على جانب من الطريق الزراعي، وجلسنا خلفها مستقبلين الشمس بوجهينا. الفتاة تتقرب مني لائذة بي من الريح الباردة أين أجد هناك بين العائمين في السماء الليلكية فتاة دافئة كهذه؟ لن تغدو الملكة هناك بالطبع إلا خفيفة خفة الهواء مثلهم، فهل أقبض بيدي على الهواء؟ هل أعانق ظلاً أو خيالاً من أخيلة الغليون؟ أمسكت يدها فتركتها لي مسرورة. كان وجهها متورداً من الريح والتجول، فرحت أُلاطفه براحة يدي. ثم أخذت أضمها إليّ مقبّلا وجنتيها وفمها وهي تقول:

- أين كنت حين كانت زينغا في تالن؟

نفضت عنها الأعشاب اليابسة.. عن ثيابها ومعطفها، ونفضت هي عني ما علق بي من الأعشاب. وعدنا ماشيين في الطريق الزراعي نفسه لم تعد تثرثر أو تتغنى. كانت هادئة، محمرة الوجه.. مبتهجة! وكانت الساعة هي الثانية عندما دخلنا الكوخ الصيفي. لم نجد زينغا نائمة أو في المطبخ فتلبثنا نتحدث في الحديقة. وها هي تلوح آتية، حاملة الغداء من حانوت القرية! حين انضممنا إلى المائدة وقد انتزعنا المعاطف ورأيتها في ثوبها الأصفر القديم.. تذكرت موعداً قرب الفارس المجنح. فسألتهما النصيحة. قالت الفتاة:

- اعتذر إليها.

قالت زينغا:

- سأتلفن الآن للمخزن.. وأطلب منهم أن يبعثوا أحداً إليها.. ينبئها بتأخرنا هنا ويقرئها تحيتك واعتذارك. فإن لم نفعل ستبقى التترية منتظرة عند التمثال في الساحة المعرضة للرياح القارسة، وتفوتها ساعة الغداء!

طيلة الطريق إلى المدينة وأنا أشرح أسبابي التي تقتضي اصطحاب الحمار الصغير والفتاة في الرحلة إلى هناك.. ملغياً من حكايتي صفحة الاحتكام إلى مجمع المجرة الأكاديمي، مؤكداً أنني سأصافح الشيوخ ممتناً شاكراً! ولم تزل الفتاة منصرفة إلى أغنيات مذياعها الجيبي! قالت زينغا بعد تفكير:

- واضح أنك متشوق إلى رؤية الجحش. لا شيء أسهل من استحضاره! ستراه بين الفئة المرحبة في المطار. أما في ما يخص البنت..

- البنت رفيقة نزهة لا بد منها مع الأبيض الصغير.

- لن تجدا هناك أكوام قش تتشمسان خلفها.

- بل نجد بيادر من الليلك.

- وما أدراك أنها ترتضي الرحلة؟

- اسأليها.

فجاة قالت الفتاة:

- عن أي رحلة تتحدثان؟

أجابتها زينغا في غموض:

- عن رحلة ما.

- أهي في مثل بداعة هذه الرحلة الريفية؟

- بل أبدع وأروع!

- أنا، بالطبع، أكره أن أكون متطفلة، بيد أن الجولة معكما مغرية. فهل تسمحان، أن لم يكن صعباً عليكما، باصطحابي في الرحلة القادمة؟

- فإذا اعترضت الوالدة؟

- أنا فتاة شابة عن الطوق!

- أتذكرين خبيرة الكتب القديمة؟ صحبتك مرة إلى مكتبتها.

- الحدباء؟

- الخبيرة! إذا شغلت عنك اتصلي بها وستنبئك بالموعد.

فأضفت تحذراً:

- أو اتصلي بي.

- وهو ما سأفعله.

11

فتحت دنيا عينيها وأنا أحاور وطواطاً في غرفة النوم. طيلة الليل كان عالقاً بنتوء برز فجأة في السقف ووجهه الواضح إليّ. ولعله كان في الشقة طيلة الوقت وأنا لا أدري. يبيض أو يلد ويأكل بيوضه أو فراخه. ليس هو منهم. ما دامت دنيا نائمة في الغرفة، ما دامت دنيا في الشقة فهو ليس منهم. ربما جاء إلى الشقة وعشش فيها قبل أن أسكنها، أو هو حل مقصورته ساعة حلولي الشقة. منتقلاً إليها معي فوق قبعتي أو في جيب معطفي]. أنا لم أره ولم أشعر به إلا هذه الليلة. ولستُ متطيراً منه تطيّر بايرون من الخفاش والثوب الأسود: دنيا نائمة.. لا تدري ولا يخطر لها ببال. غداً الأحد. وقد رجعنا من المسرح متأخرين، وشربنا قبل أن نأوي إلى المخدع، شربنا زجاجة نبيذ مر على تقطيره أحد عشر عاماً.. أو شربتها أنا. لم تشرب دنيا إلا قدحاً واحداً مكتفية به بعد بونش المسرح أنسللنا، بعد الفصل الثاني، إلى البوفيه، وكنا عطشين، فشربنا البونش، ودخنت أنا في ركن يتسارع إليه المدخنون بين الفصل والآخر كانوا يمثلون هناك الخال فانيا.. تقول دنيا إنهم لم يجددوا أو يغيروا شيئاً في إخراجها، فأقول: بل بدلوا قليلاً ولم أقل أكثر من هذا. وهل أقول إنني كنت أتفرج على مسرحية أُخرى؟ كنت أشاهد بروميثيوس مقيداً بينما الناس يشاهدون الخال فانيا!

الفجر قريب وهو عالق بلعبته.. وعيناي عالقتان به. الساعة تدق عالياً في شقة الجيران.. أو هذا ما يخيل لي.. أخيراً أفرد جناحيه وجال جولة وعاد إلى مدرجِه. نظر إلى النافذة وتفوه قائلاً :

- غداً الأحد.. فإلى أين؟ إلى المقهى أم إلى ساحة التزلج مرافقاً دنيا إلى البارك كما وعدتها قبل أسبوع أو أربعة أيام؟ صرت لا أتذكر المواعيد مثلك .

- وماذا سأفعل هناك غير التفرج؟

- وهل التفرج على امرأة تحبك شيء هين في رأيك؟ تقف خلف الحاجز ناظراً إليها وهي ترقص متزجلة كالطائر على موجته.. تبتعد عنك وتقترب منك سعيدة، باسمة لك، عارفة أنك واقف من أجلها هي، منتظراً نظرة منها أو تلويحة يد، غير مبالٍ بمرور الدقائق، وهي دارية أنكما عائدان معاً إلى البيت.. لا عائدة مثل هذه أو تلك من النساء الراجعات إلى المنزل من دون ذراع صديقة تمتد يدها إليها في الطريق.

- قد لا تذهب.

- وهل أنبأتك هي أنها قد تشغل بشأن من شؤون الطفلة أو الشقة؟ أم أنك تأمل أن تشغل فتتلفن لك قائلة إنها مرغمة على البقاء في البيت؟ فتشعل أضواءك مكدراً عليّ عزلتي، متعباً عيني بالنور.. وتهرع من دون إبطاء إلى المترو ملتفاً بمعطفك التفاف بايرون بمعطفه على ساحل البيون الضبابي.. غير آيب من نزهتك ألا بعد إيصاد المطعم!

- وما الذي يبقيني هنا وأنا منجز أعمالي كما ينبغي لها أن

تنجز؟ أأظل متنقلاً بين المطبخ والبهو، فاتحاً كل مرة علبة بيرة.. متحدثاً مع الصورة دونما كلام أو بكلام، أو قابعاً أمام الشاشة المضجرة؟

- بل تؤكد لها. بعد أن تصحو. أنك لا تنتظر شيئاً اليوم غير ذهابكما معاً إلى بارك النورس والتمتع بمنظرها وهي تتزلج في الساحة هناك!

- ومن أنت حتى تذكرني بما ينبغي عليّ أن أفعل؟ من نصبك وصياً عليّ؟ من وظفك هذه الوظيفة الفضولية البغيضة؟

- فعلام، إذن، تحديقك إليّ أرقاً، متابعاً حركاتي منذ ساعتين؟ نامت أمرأتك وأنت صاح.. تدخن في المطبخ وتحتسي البيرة، وتعود إلى الغرفة باحثاً في السقف والزوايا عني، مترقباً ظهوري!

- أنا لم أرك من قبل ولم أعرفك. هذه هي المرة الأولى التي أكتشف فيها تلصصك ودخولك مهاجع الناس وهم نيام!

- لست لصاً أو مخبراً. أنا في بيتي. فإذا أردت.. دع هذا المسكن واستأجر سواه. إذهب إلى حيث تريد.

- صر عاقلاً وانقلع من هنا في هدوء. قبل لحظة لم تكن إلا ضيفاً وها أنت تطرد صاحب البيت من بيته. ما أنت سوى غراب.

- أنا غراب ولا أدري؟

- غراب أدغاربو!

- الزمرة الضالة!

- أنت تعرفه. فامض واختبئ في لحده المنخسف.

- ظننتك تحسبني علامتك الأعجف.

- هو في الأقل لا يدخل غرف النوم، ولا يزور قبل أن يتلفن!

- هل زارك هنا وأنا لا أعرف.

- وما يعنيك أنت؟

- كنت سآخذ حذري.

- لا أظن أن مفكراً مثله تهمه خفة جناح واهن هجين كجناحك، أو يصرفه عن تأملاته وتأليفه جرذ متنكر يتعلق بأسقف غرف النوم.. متحِيّناً إنحدار الغطاء عن صدر سيدة شابة نائمة ملء جفونها كما يقول المتنبي!

- لم أعد أعرف.. هل أنا جرذ أم غراب؟ كل ما أردت هو أن أنبهك وأنصحك، مع أنك، منذ زمن طويل، لا تسمع نصحاً ولا تتقبل إيماءة صديق لا يريد لك إلا منفعتك. ثم ما هذه التهم والتقولات؟ متى تحجبت النساء عن أعين الطيور؟ لقد شبهت الأمور والكلمات عليك يا مترجماً يعمل في بيته، فأخذت تخلط بين رغبتك الشخصية ورغبات جرذ أو غراب! وتتحدث عن الأعجف الطويل مثلما تصفه أنت.. حديثك عن صاحب أو رفيق نصوح متناسياً شكوك فيه وبغضك إياه. كل شيء منقلب لديك!

- فما بقاؤك معي؟ ألم تمل أنكماشك في السقف؟

- أنا حر في سقفي.. أنكمش أو أطير.

- طر، إذن، الآن وانطلق من الكوة ما دامت منفتحة، سأغلقها

بعد حين، وأطاردك بالمكنسة.. ولن أرمي بها ألا بعد أن أرمي بك إلى الحديقة طعاماً للقطط والغربان. ألم تتحرك بعد؟ أتحدٍّ هو أم صمم منك؟

- لست أطرش فلا أسمع من ينصح ولست متحدياً أطرق حفلات المخازن الموصدة ليلاً إلا عن الفوارس المجنحات!

- قل ما يبدو لك. أنا ذاهب إلى المطبخ أتمتع بعلبة بيرة باردة، وابق أنت هنا. لا قطرة ماء عندك، ولا هوام بين يديك.

- ومن يمنعني عن اللحاق بك إلى المطبخ؟ أنت؟

- ومن غيري؟

- فامضِ وابحث في سقف المطبخ كما بحثت هنا.. فإن لم تجدني معلقاً لا تنظر في وجهي ولا تخاطبني بعد اليوم! اعتبرني نسياً منسياً. أنا نفسي سأخجل من نفسي إن لم أُثبت لك أنني في بيتي.. أنتقل بين غرفه غير مستاذن أحداً.

- سترى!

فتحت دينا عينيها متقربة بدفئها ووجها مني:

- متى صحوت؟

- منذ حين.

- كم الساعة من فضلك؟ إنها على الطاولة قربك.

- السادسة.

- ألن تعاود النوم؟

- لا أظن.

- ما الذي أيقظك مبكراً هكذا؟

- حلمت بفصل من الأخوة كارامازوف.

- حلمت برواية؟

- نحن لا نرى في النوم إلا قصصاً.

- وأين ألقت بك الرؤيا من الرواية؟

- حيث يزور الشيطان إيفان.

- أما أنا فحلمت بالتزلج في البارك

- كالنورس على موجته؟

فضحكت مازحة.

- من هنا جاءت تسمية البارك بالنورس!

- وهل أنت ذاهبة إلى هناك اليوم؟

- وهل في نيتك الذهاب معي إلى البارك؟

- لا شيء يعدل مصاحبة امرأة مثلك إلى التزلج؟

12

ثم جرى الأمر مجرى آخر تقريباً. هجرت زينغا المخزن غير عائدة إليه أو هكذا قيل لي فأنا أميل إلى أنها لم تدخله يوماً إلا شارية أو متفرجة وارتحلت مع أمها إلى الجنوب. تتزودان من الشمس والدفء زاداً يكفيهما طيلة الشتاء الطويل. وكنت ألتقي دنيا مرة أو مرتين كل أسبوع. أحياناً تزورني الفتاة، وقد شغفتها البيرة الألمانية الباردة. أنا أيضاً لم يعد يستهويني شراب غيرها... في الشقة بالطبع.

أما في المقهى الجانبي فما زال البونش والقهوة صاحبي المحببين! خفّفت مرة ولم أُفلح، خفّفت من ارتيادي المطاعم الليلية المتفرقة! أتغدى، أحياناً، مع دنيا في المطعم المجاور، ونتعشى في المطعم الساهر قرب المترو، فأعربت دنيا عن رأيها ناظرة إلى علب البيرة الفارغة: مع أنني لا أحبذ العودة إلى البيرة.. إلا أنني لا أفزع منها كثيراً فهي أخف. الأفضل كما تعلم هو التقليل والتمتع بعلبة أو علبتين. وأنا مسرورة سروراً لا حد له باكتفائك، في السهرة معي، بقنينة النبيذ. لا أدري أنا أي مقدار أو أي نوع تتناول مع أصحابك! أنا أحكم على ما أرى، وهو ما أرضاني تماماً في الأيام الأخيرة... فقلت لها صامتاً بالطبع: طارت الفراشة الورقية وتخلى العكاز الأبيض عنا، فما الذي سنفعله أنا وأنت، ونحن أعزلان، وقد غزتنا في عقر دارنا

جحافل الصفراء المجنحة، وانطرح الرداء الأسود على سرير زفافنا؟ مذ جئت بالعاهرتين الطيبتين إلى شقتي وفررت من الفيلم المبارك.. وأنا قشة تدور بها رياح زينغا!.

يقول الأعجف الطويل:

- ألم تتعب من الترجمة بعد؟

فأقول وأنا أتابع امرأة عابرة:

- إنها مطواعة. إنها تمشي بلا عكاز.

- وهل يبقى من الوقت متسع للقراءة؟

- وقتي قنينة خمر.. قدح أو قدحان للترجمة والباقي لي. عندي بطاقتا اشتراك أدخل باحداهما المكتبة الأجنبية، وبالأخرى أدخل المكتبة العتيقة حيث تشرف صاحبتنا الخبيرة على العالم السفلي منها.. كما تعلم. وهو، في ظني، مكتبة لا تعد لها أهمية غير المكتبة الأشورية أو العباسية.. أو المكتبة التي أحرقها ابن سينا بعد فراغه منها.. استئثاراً بعلومها له وحده في ما تزعم الروايات التأويلية المريبة.

- ومن تقرأ من الفلاسفة الآن؟

- سقراط الأفلاطوني.

- أو أفلاطون السقراطي.

وأضاف متابعاً هو أيضاً امرأة عابرة:

- ومن الجدد؟

- هذه الهوامش المبعثرة على صفحات المجلد الإغريقي لم تستوقفني طويلاً. قرأتهم كما تقرأ جريدة معاصرة لا تحشو

أعمدتها إلا بسقوط طروادة أو بابل.. وبأخبار نبوخذ نصر والملاهي النيرونية. أردت أن أصاحب بيرديائيف وكامو مرة أُخرى فسئمت! ما رأيك بدعوة سيدتين إلى مطعم؟

- أنا محتفظ بقواي لجارية وعدوني بها.. في ما بعد.

- مع هذا.. فالجلوس على كرسي المطعم خير من القبوع على مصطبة اليولفار الباردة هذه. الريح شرقية محملة بأنفاس السهوب والصحارى التترية، والليل موشك أن يطبق كما قال شاعران من شعرائنا.. أحدهما يخاطب الدجى والآخر يصف الليل، وبيننا وبين الفندق الرمادي خطوتان.. فهلم بنا إليه. فقد تدلنا النادلة على مائدة محجوزٍ نصفها لغانيتين!

- أتنازل لك عن ريع المائدة بنفس راضية.

- الصقيع يكتنفنا يا شيخ فهيا نتدفأ بزجاجة كونياك.

- كنت سأذهب معك ممتناً مسروراً في ساعة فراغ.. إلا أن محاضرة الغد تنتظرني في بيتي، وعليّ أن أضيف إليها وأغير منها.

- ألم تنته من الشعر الأموي بعد؟

- بل عائد إليه مرة أُخرى.. وقد طار بي طائره إلى الأندلس.

- وهل عكفت، بعد المعلقات، على ترجمة جديدة؟

- أنا الآن موشك أن أطبق على اللزوميات، وعلى هامش ترجمتي لها سأنشر بحثاً عن تفاؤلية أبي العلاء.

- ولا تنس القنطرة الذهبية بين المعري والخيام!

- أشار العديد من الباحثين إلى الطعم الذي حظيت به طيور

الحكيم الفارسي بين يدي الحكيم العربي، وسأحاول أن أضيف شيئاً إلى الموضوع. الريح تهب في وجهينا ولا أريد أن ألهيك أكثر مما ألهيتك.. فقد تنفر قبرة من حولك إذا خلا الجو بينك وبينها. فتدعوها إلى تناول شيء من القرطم في مطعم ما كما دعا توفيق الحكيم عصفورة ظل يحاصرها طويلاً بنظرات العاشق الشرقي الصامت، عبر شباك تذاكر الأوديون!

- سأخطو معك حتى المترو.. وأنحدر إلى المخزن.

- لن يحوجك، في هذه الحالة، طعم ترميه أو نادلة تشير إلى مائدة معينة.. القبرات في المخزن يرتمين عليك ارتماء الفراشة على النار.

- صدق، إذن، من سماه عصفورة النار!

المصابيح مضاءة منذ حين، والناس يدخلون المترو ويخرجون منه أفواجاً، وأنا أسير ويداي في جيبي معطفي! الواجهات تشعشع والخطى تتوقف أو تتسارع. حييت المانيكان بإنحناءةِ رأسٍ خفيفة فانحنت برأسها مبتسمة لي. وانعطفت إلى المدخل الأصفر. أدخلتني الصفراء إلى جناحها وتوارينا بين الفراء والمعاطف الأُخرى. أحسست بصدرها ينسحق على صدري وهي تشدني إليها شداً. ثم أخرجت منديلاً ورقياً ناعماً تمسح به آثار القبلات عن وجهي.. واتفقنا أن تمر على المقهى الجانبي بعد إغلاق المخزن.

قضيت ساعتين أخريين في غرفة القراءة الخاصة قارئاً ترجمان الأشواق بينما الكتاب هو خطابة ارسطو! وفي الطريق إلى المقهى الجانبي خيل لي أنني لمحت الصبية المليحة غير

أنها لم تكن هي. وسمعت زينغا هاتفة باسمي فالتفت فلم أرَ غير المانيكان تدعوني إلى دخول المخزن مرة ثانية. دخلته فرأيت الصفراء هابطة من الطابق الثاني. سحبت من فتحة القميص برقية مرسلة إليّ.. جاءوا بها إلى المخزن قبل لحظات. وأعلمتني كمن يهمس بسر خطير:

- إنها من زينغا.

- ولماذا على عنوان المخزن؟

- تكهناً منها. مرت بأصابعها على البيانو فأخبرتها الدندنات أنك مار هنا ساعة وصول البرقية.. وقد نؤخرك نحن بسهرة ممتعة.. فلماذا تظل برقيتها منتظرة هناك عند المناوبة إلى الصباح؟ ألم تدعني إلى المطعم وبعدئذٍ إلى شقتي؟ إذن هي دقيقة تماماً في حدسها، وها هي البرقية بين يديك لحظةَ وصولها! تعال معي واقرأها في جناحي!

أنت تقرأ وتترجم أكثر مما تكتب! لا تهمل الكتابة يوماً واحداً.

سأفاجئك من حيث لا تدري طالبة منك أوراقك. بل آخذها أخذاً. لن أبتعد بها عنك. سأقرأها على مكتبك بعيني ناقدة.. وسيجري قلمي بملاحظاته! قلل من السير على الأرصفة وأركب التكسي. الشمس ساطعة والريح دافئة هنا. قمت بجولة في مركب خالٍ إلا مني. سمحوا لي بقيادته بعد أن أقنعتهم أقوالي وخبرتي! إذا جف قلمك واحتجت غيره سأبعث لك أقلاماً. قبل التترية قبلة هواء. لا تضحك قبلها إذن خلف المعاطف. قبل البائعات واحدة فواحدة تحت أنوار المخزن الفاضحة!.

أضحكت البرقية الصفراء فجرتني جراً إلى أقرب بائعة لأقبلها. أخبرتني أنها تلفنت للنادلة وحجزت مائدة كنت أعرف أنك ستنسى فلا تحجز سأدعو بائعتين إلى المطعم احتفاء ببرقية زينغا!.. من هي الدجاجة التي تبيض ذهباً في جيبي وأنا لا أدري؟.

ارتقينا السلم المرمري الأشهب إلى المطعم حالما جئن لا وقت للبونش. وجدنا المائدة مثقلة في انتظارنا. وفوقها باقة ليلك فواحة حملتها إلى النادلة بائعة زهور ما وقبل أن نرتشف أول رشفة من أقداحنا فوجئت بغولة المطعم متجهة إليَّ. طالبة مراقصتي.. إنها المرأة السكرى التي ابتليت بها من قبل في مطعم آخر: هي مزحة من زينغا بالطبع! حركتها نحوي مداعَبةً وتلطيفا منها للجو إلا أن المرأة لم تعاود الطلب مرة ثانية أنت بين ثلاث أوانس فلن أُرهقك برابعة وعوضت عن الرقص معها بزجاجة شمبانيا جاءت بها النادلة قائلة:

- تقول السيدة إنها باعثة إليكم بعصارة روحها بدلاً من أن تثقل عليكم بحضورها الجسدي.. مهنئة الفارس الشاب بسهرته المضمخة بأنفاس الأوانس الليلكيات العذرية. إنها تصف الفتيات بهذا الوصف نسبة إلى هذه الباقة التي بعث بها أصحابكم!

قالت الصفراء موضحة!

- أظنها من الخبيرة فقد دعوتها واعتذرت.

فقلت مازحاً:

- أو من زينغا. طيرتها برقياً من الجنوب.

وأضفت رافعاً قدحي:

- نخب اليد التي قطفتها لم يزل الندى عالقاً بها كما ترين!

وكنت أقول لنفسي: إبيضت الأشجار! إبيضت الحدائق والطرقات! فأين هو العكاز الأبيض؟ أين هي الفراشة البيضاء؟ بل أين هي مسبحة جدتي البيضاء الطويلة؟ هل هزمها الرداء الأسود وأطاح بخيمتها؟ لا ريب أنها غضبى مني وحدي.. فما انفك الخاتم الأزرق مطوقاً اصبع دنيا. من الذي ألهاني ونفرني من الفيلم الممطر؟ لا بد من أنه إهمال مني وتراخٍ! أنا رجل مترجم: عن شمالي البيرة أتجرعها، وعن يميني الروايات أترجمها.. فما الذي ألقى بي إلى هذه الساحة حيث يتصايح الصفر المجنحون والأسكيف المتدربون؟.

طالما البيرة في الثلاجة فأنا أترجم بلا مللّ لا شيء ينتظرني اليوم! لا موعد في المترو، ولا برقية إلى زينغا.. أبرقتُ آخر مرة مساء أمس! وتحدثنا طويلاً في التلفون أيضاً.

الشقة دافئة تماماً والبيرة باردة! الصفحات المترجمة تتكاثر، الصفحات غير المترجمة تتناقص! هل أبقت الرداء الأسود في غرفتها أم أخذته معها إلى المنتجع الجنوبي؟ المساء يدنو هادئاً كامرأة عائدة من المصنع إلى البيت رخية الخواطر، غير متعبة إلا قليلاً.. بعد ساعة تتزين دونما استعجال وتنظر إلى نفسها في المرآة متفحصة، ترتدي ثوب السهرة وتكتسي بالفرو، تطرح على التسريحة منديلها المخملي الأبيض في اعتناء، وتهبط إلى الشارع متمهلة الخطى، قاصدة مدخل المترو القريب حيث يقف الشاب العاشق منتظراً! الريح هادئة في الحديقة،

والمصابيح تتوقد. سأمر على المخزن الكبير وابتاع حاجتي من الفاكهة. أومأت لي البائعة فاقتربت منها. أخبرتني أن لديهم صنفاً جيداً من النبيذ فانثنيت نحو الصف المتحرك ببطء إلى كشك أمينة الصندوق. كانت دنيا واقفة في الصف تبتسم لي. ملتفة بمعطف عمالي قصير:

- تشتري.. أم تتجول؟
- أتجول وأشتري.
- ما قولك في أن تتعشى معنا في البيت؟
- ما قولك في أن نتعشى في المطعم؟
- عندنا ضيفة.. طالبة من الأقارب.. من مدينة أُخرى، تدرس ها هنا في الجامعة.. الصف يتحرك ولا يتحرك.
- الأمينة وصاحبتها تتهامسان. لا تشتري نبيذاً.
- كيف لا أشتري وعندنا ضيوف؟
- دعي هذه المهمة الصغيرة لي.
- لن أقول لك أي نوع سأبتاع.
- حجزت آخر قنينة في المخزن!
- إنني أرى بغيتي من هنا. أنت آتٍ معي كما آمل.

أوصلتها حتى المدخل إلى بيتها واعتذرت عن الصعود. المقهى أوسع للمدخن، والبونش أمتع بقشته وبقايا الثلج فيه! كان المقهى الجانبي عاجاً بروداه وبمجموعة من السياح المحليين. شربت القهوة والبونش واقفاً متحدثاً مع النادلة، فاتحاً لها علبة سجائري التي تفضلها. قطعت الأزقة الهادئة القديمة إلى

المكتبة الأجنبية سأجدها ملأى بطالبات الآداب! غير أني شغلت بتاريخ القياصرة الاثني عشر لمؤلفه الروماني غاي سفيتوني ترانكفيل، وعدت ذارعاً الأزقة نفسها إلى المقهى بعد التاسعة! الصفراء والمتكبرة تنتظران.. والمائدة محجوزة في المطعم.. جاءتنا برقية من زينغا مساء اليوم. تلفنا لك فلم يرد أحد. قلنا ربما نجدك ها هنا منفرداً تتذكر أيام السكرتيرة!.

- ماذا تقول البرقية؟

- التحية والتذكير بزيارتك، نحن غداً حرتان. غداً تصليح في المخزن.. وسنكمل السهرة في الشقة. سهرة مختصرة لا ينقصها إلا السكرتيرة! قلت مصححاً.

- السابقة.

- بل السكرتيرة الأبدية.. في المخزن أو غيره!

انحدرنا بعد المطعم إلى شقة الصفراء تحت الثلوج الليلية الناعمة، وكانت خضراً وصفراً.. تحت الضوء وبعيداً عنه، ولا أدري لماذا؟ وقبل أن أصعد معهما السلم قلت محملاً المتكبرة المؤونة، مقبلاً وجهها الرائع:

- إسبقاني وهيئا المائدة. سأتمشى وأعود.

لم تبرح الثلوج تنهمر خضراً وصفراً، وأنا أخطو متمهلاً ويداي في جيبي معطفي، متوجهاً إلى الساحة والتمثال المجنح. وقفت بين يديه أستنطقه، والقلائل المتأخرون من الناس يظنونني سائحاً يهمه الفن النحتي القديم و تؤرقه تفاصيله في هذه الساعة من الليل.

- خبرني أيها الفارس المجنح.. ما الذي يجعل الثلوج تتساقط

خضراً وصفراً؟ أنا لست ثملاً أو سائراً في نومي.. وفي الشقة تنتظر أوبتي امرأتان.؟. أنت تعرفهما أيضاً. طالما مرتا من هنا ساعة الغداء إلى المطعم المغلق الآن. لا تخشَ صيحة فزع تنتزعها كلماتك مني.. لن أضطرب ولن أفاجأ. سمعت قبلك المانيكان وتأبطت ذراعها إلى المقهى، وسهرت مع النساء الخشب! لن تطاردني في الشوارع كفارس بوشكين، ولن تجرني إلى الهاوية كفارس من دون جوان! أجبني وعد صامتاً مثلما هو أنت. لن أدعوك إلى النزهة أو صعود السلم. فأنا رجل غيور. فانطق ولا تُطِل وقفتي فهما تنتظران. ولك مني إلا أُخبر أحداً ما حييت!

فتح التمثال فاه وقال:

- دع القافلة تمر..

كانت مجموعة المقهى السياحية تجتاز الساحة إلى أحد الفنادق متضاحكة غير مهتمة بي أو به.. فحثثته قائلاً:

- لقد ابتعدوا.

- إنني أرى.. أسمعني ولا تعد إلي مستجوباً مرة أُخرى. فلن أتلفظ بكلمة واحدة بعد اليوم. لا سر في اخضرار الثلوج أو اصفرارها. زينغا راجعة مع أمها من المطعم إلى المنتجع معطفها أخضر وقبعتها صفراء.

وصمت صمته الحجري غير آبه لي! فعدت أدراجي إلى البائعتين. إلا أنني لم أعد وحيداً. معي يسير على الرصيف آخذاً بذراعي كامرأة سائرة إلى جانبي رداء العرس الأسود ساحباً ذيله على الثلوج.

صعدنا السلم معاً، ودققت أنا الباب، ودعوته إلى الدخول قبلي.. ضحكت بائعتا الثياب وتلمستا حريره، واهتمتا بخياطته وزركشته!

- أين وجدته؟

- قرب فندق ما.

- واضح أنه يخص مسافرة ما سقط منها وهي عائدة إلى الفندق مثقلة بأكياسها مستعجلة.. لِم لم تسأل عنها استعلامات الأونيل؟

- إنها الآن نائمة. غداً مبكراً أعيده إليها.

تراخى الرداء، في هذه الأثناء وفقد القوة على السير. وكانت المائدة في الانتظار. طرحت المتكبرة الثوب على احد المقاعد وطفقت تصب.

- أتريد إحداكما ارتداءه؟

قالت الصفراء مازحة كالجادة:

- أنا لا أحبذ أردية الزفاف إلا صفراً.

فالتفتت المتكبرة إليه قائلة:

- لن نتركه مهملاً على أي حال.

تأتلق العينان الكبيرتان، عينا الصورة، ذهباً وناراً.. مثلما هما في وجه زينغا صبيحة كل ليل معي! أتذكر أول مرة أدخلتها المخزن العائم معي.. أو ربما هي المرة الرابعة.

لم أعد أتذكر في وضوح، وكانت مرتدية قميصاً أبيض وربطة عنق حمراء. اشتعلت عيناها بنظرة خاصة إلى قميص

بنفسجي. تلمسته وعافته: إنه زائف أتذكر الصباح والرذاذ عند مترو الأبراج. وكانت دونما قبعة و الريح في وجهها والرذاذ على شعرها، طالبة مني أن أُسرع معها إلى التكسي الذي جاءت به، كان واقفاً عن قرب مشغلاً ماسحتيه.. الشقة دافئة جداً والبيرة باردة وأنا أترجم. ما الذي يبقيها هذه المدة كلها في الجنوب؟ ربما هي أمها! تلفنت لي دنيا اليوم من المصنع قائلة إنهم يعرضون فيلماً جيداً في سينما الغابة.. في المركز لن تبقى بطاقة واحدة إلى المساء. هل يمكنك إرجاء بضع صفحات وتتجول في التكسي إلى هناك، فتقتطع أربع تذاكر، لي ولك.. الأخريان لصاحبتين لي. إنهما تنظران الي الآن وتقرآن أسارير وجهي وتعابيره. فدعني أُعبّر لهما عن قبولك راضية مرضية! سأقتطع خمساً. الخامسة لمن؟ استفهام؟ من الأطيب.. البيرة أم البونش؟.

تتعلق الفتاة بذراعي مفتونة وأنا أجرها من المقهى إلى المطعم، تمسح وجهها بأكتاف معطفي متحببة كالقطط، وتطعمني بيديها السخيتين.. وأزور الحدباء في بيت عنكبوتها مسربلاً بالنسيج المخادع. أتجرع قهوتها وأتمرغ بالكتب الصفر منتظراً انفتاح النافذة عن الحمائم البيض، وانفتاح الباب عن عذرائها المليحة قارئة الكفوف، فلا يدخل أحد غير الخفاش في معطفه الأسود الطويل كمعطف غوغول أعني تمثاله وأقف وقفة أوديب العارف، في الطقس البارد المتجلد أمام الفارس المجنح مجيباً عن أسئلته الصخرية الصامتة بأجوبة اجتررتها مراراً. لا سر بين شفتيه البكماوين ولا غموض في عينيه المحفرتين! وأرى المانيكان في ردائها الأسود الجديد خرساء متكبرة.. فلا أستفسر

ولا أستفهم. أركب المترو فلا ينكسر البيض، وألمح الحواجب البيض فوق أعين الشيوخ فلا ألتفت ولا أبحث سقط الأعرج وطمرته الثلوج!.

أخطائي عديدة اليوم عدت من السهرة منفرداً في التكسي إلى الشقة الفارغة إلا من الصورة. تأخرت في المطعم طويلاً، ولم أتأخر نصف ساعة آخر فأصحب النادلة المتحببة إلى شقتي. التلفون صامت كالقط الأسود الجاثم لا تدري بم يفكر أو يحلم. بمن أتصل أو من يتصل بي غير زينغا النائمة الآن في مدينة أُخرى والساعة تسير وتسير متجاوزة الواحدة غير عابئة بي؟ راقصت امرأة في المعطم ولم أشكرها. شربت الفودكا وكنت راغباً بالكونياك لونه ذهب أحمر في الأقل. ركبت التكسي ولم أركب المترو من يدري؟ قد التقي امرأة من صواحبي مصادفة ألم تحدث هذه اللقاءات في القصص، لم أدخل المخزن العائم وكنت أتسكع قريباً منه على أن أذهب غداً إليه وأعود منه! لم يبق في الثلاجة غير أربع علب بيرة، لم أتمشَ إلى المكتبة الأجنبية فأخرج منها بطالبة الآداب إلى المطعم تعرفت بواحدة منهن أخيراً وتخلفت في المقهى الجانبي آملاً بخفقة عكاز! دخلت مطعم الفندق الرمادي ولم أدخل غيره كان من الجائز، في مطعم آخر، أن ترمي المصادفة عليّ بامرأة أعرفها، ألم يحدث هذا أيضاً في فيلم شاهدت بعض لقطات منه في التلفزيون؟ أعطيت النادلة الأُخرى لفافة واحدة وكانت العلبة ممتلئة. مسحت المرأة الآثورية حذائي في كشكشها ولم أسألها عن زوجها الحبيس.

لم أشرب شاي المناوبة، وأنا عائد، وهو شاي طيب طالما

تلذذت به! لم أدخل المخزن وكنت ماراً حياله كان من الممكن جداً أن تتهادى الصفراء إليّ بعد التاسعة! وفي المقهى الجانبي لم أتعب نفسي خطوة إلى التلفون فأتصل بالفتاة.. قائلاً لنفسي: من يدري إذا كانت في البيت! ذنوبي لا تغتفر وعثراتي لا تحصى! أبرقت إلى زينغا مهنئاً بسبع كلمات أغنية جديدة من تلحينها سجلت حديثاً ولم أبرق بعشر كلمات. احترق نصف اللفافة الآن ولم أرفعها إلى فمي فضاع النصف عبثاً. وعلام أعدد زلاتي وأتذكرها.. وهي غزيرة غزارة التفاح في أشجار حديقة الكوخ الصيفي، كوخ أم زينغا.. الخريف الأسبق؟.

- الصفراء تتلفن في الثانية عشرة!

أخبرتني المناوبة وأنا عائد من المخزن بطبقة بيض أصفر.. في الثانية عشرة ساعة امتلاء الساعة نهاراً. فما الذي جرى اليوم بين التتر والمنغول؟ أي بشرى ستزف وأي حفل تقيم؟ أعصابي منهكة وأفكاري تتعثر! سأقلل من الخمرة وأعوض عن الفرق بالبيرة! لن يتحرك الفارس المجنح ولن ترقص المانيكان في الساحة إلا بإذن منها! الليل يطول وأنا أشبع قلقاً حتى الصبح لماذا أتذكر هذه العبارة التوراتية ونحن في وضح النهار؟ تمخض التلفون كما يقال فولد عنزاً: في المخزن تتوفر الآن أفخر أغطية الرأس الشتوية! فراء لم تشهد المخازن مثيلاً لها من قبل. بعدها تتغذى في مطعم الساحة. وفي الليل قد تعثر على رداء عرس آخر ترتديه المشرفة.

اختفى الثوب الأسود! طار! أم أنك أعدته إلى الفندق مبكرا ونحن نائمتان كما وعدت؟ أعدته أنت! لن تحزن المتكبرة

ولن تأسف. سنشتري لها رداء عرس من المخزن لا تضحك. إنها الوجه الآخر مني. وجهي الأوربي! قد لا نعثر في طريقنا على ثوب.. من هي التي ترمي بأثوابها الجديدة كمن تبيض على السكك كما تقول الأمثال؟ حتى الأطمار لا يُلقى بها اليوم في الأزقة. اللهم إلا إذا سرنا، أنا وأنت، صائحين في الطرقات صيحة التاجر التتري القديم: شرم برم أي من عنده خرق بالية للبيع؟ كلا؟ لن نلبس المتكبرة خرقة. أنا أمزح. طيب. انتظرنا في الثانية تماماً عند المطعم أو قرب التمثال.. متمعناً في عينيه المجنحتين كما يقول الشاعر بلوك!.

ومن المطعم إلى المكتبة قد تأتي الحدباء فيلتئم الشمل ويكتمل بها الحفل الباخوسي الليلة. وقد لا تأتي. لن تدور الحدباء إلا في الفلك الزينغوي! أولسنا في الفلك نفسه؟ فلماذا لا تحضر كما أظن؟ ربما ترضيها فكرة العشاء في مطعم المهرج الطروب إثباتاً لترفعها وعصمتها من التلطخ بالشبهات وقد تروض المتكبرة للقراءة. فتطيح بها فريسة طرية بين أنسجة الأقبية العنكبوتية.. وتغار البائعات فيستعرن الكتب، وتعم المخزن رائحة القدم والرطوبة، وتؤرق مديره الأعجف الهموم فيبعث ببرقياته متوسلاً عودة زنيغا؟.. فتردع المتعطلات وتقهر التسيب والفوضى الكوة منفتحة للريح والفراشات لا تطير تحت الثلوج.

رجعت البارحة وحيداً أيضاً إلى البيت في الرياح الثلجية العاصفة.. للمرة الثانية تتلوى الزوبعة الثلجية في وجهي وأنا خارج من المترو.. فتحت امرأة ما باب التكسي فأسرعت ممسكاً به قبل أن توصده، ودخلت آخذاً مكاني إلى جانبها لم تتفوه المرأة بكلمة، وظللت أنا صامتاً طيلة الطريق. بعد أكثر من ربع

ساعة طلبت المرأة من السائق الوقوف ودفعت هي الأجرة. لم أعد بعد خروجها إلى السيارة ولم أتبعها. عدت بسيارة أُخرى مصغياً إلى أغنية من أغاني زينغا الفردوسية يتغنى بها الكاسيت أو المذياع.. لا أدري، وخرجت للريح تذرو في وجهي حبات رمالها الثلجية، الحديقة مقفرة متجمدة برداً.. المناوبتان تتلهيان بلعبة الأحمق الورقية وتحتسيان الشاي الحار. أترعتا لي قدحاً أتدفأ به وأنا أفكر بزينغا.. بدراجتها النارية اشترتها وباعتها في الأسبوع نفسه وتمنعي من الركوب رديفاً تابعاً لفتاة طائشة.. وكنا آنذاك في الضاحية، وكانت المدينة خضراء والصيف في أوج خضرته. سأحمل معي علبة قهوة جاهزة.. طعماً استدرج به الحدباء إلى مكنونها، فقد تزيح الأتربة عن هيكل عظمي استنطقه.. عن اسكندر مقدوني ما أو كونفشيوس آخر. الريح تتسكع في الطرقات والقطط تموء في شقة الجيران. فعلاً تستاهل المشرفة ثوبها! البارحة، في المطعم، تراءى لي أنني لمحت الخفاش والحدباء يرقصان رقصة الساحر والعذراء المسحورة. استفسرت من النادلة عنهما فقالت إنهما نقيبة الصيادلة ومستنبط العقاقير المعروف! السير مع الفتاة في الشارع مجلبة للتأفف، والعودة إلى البيت دونما امرأة رحلة مملة... دخلت القاعة الوسطى وأنا لا أتذكر في وضوح وجه الآنسة طالبة الآداب. حييت الموظفة السنجابية تحية شاملاً بها القاعة، فردت الآنسة، كما أتضح بعد قليل، تحيتي قائمة نصف قيام منحنية برأسها، فخيل لي أنها تتبرقع بأوشحة القرن التاسع عشر. شرحت لي تفضيلها كيتس على بايرون والشعر على النثر. فترجمت لها أنني أبوئ الترجمة ذروة تعلو السفوح الشعرية والنثرية. قالت: لماذا؟

قلت: الترجمة هي الأصل قالت: العكس هو الصحيح قلت: المفتاح بيد الترجمة والقفل بأيدي الشعر والنثر، والقفل يفتح أو يكسر! قالت: من تقرأ من الشعراء؟ قلت: السفهاء منهم والمجان قالت: ومن الروائيين؟ قلت: كتبة السيناريو والقصص البوليسية قالت: لا ريب أنك تتفكه قلت: هل قرأتم في الكلية افلوطين؟ قالت: سمعت به ولم اقرأه بعد قلت: والأعجف الطويل؟ قالت: لم يطرق سمعي اسمه قلت: هل تسمحين لي أن أنقل اليك بعض أنبائه السارة؟ قالت: ولم لا؟ واضح أنها فتاة ظريفة إلا أن أمثالها لا يزرن الشقق إلا بعد المسرح والسينما والجولات الليلة تقطع بها المحطات موصلاً إياهن إلى أبوابهن.. وترجع غانماً حفنة من القبلات! في المقهى الجانبي كنت صامتاً تقريباً وهي تتحدث لم تسأل عن الأعجف ولم أذكرها به. أوصلتها إلى المشجب قائلاً إنني مار بالمكتبة غداً وبعد غد! وقلت للنادلة منتظراً إعدادها البونش: ما أوحش المائدة بلا فتاة! قالت: فلماذا تركتها تذهب؟ قلت: غداً عندها امتحان قالت: ما أكثرهن هنا! قلت: إنهن من القرن العشرين قالت: انتظر، إذن، حتى ينتهي هذا القرن قلت: بل انتظر حتى التاسعة قالت: ما أسرع ساعتك يا صاح! ساضع علبة القهوة ها هنا كيلا أنسى. فإذا جاءت الصبية المليحة إلى المكتبة وقرأت خطوط يدي.. هل أبدو لها سائلاً تمثال الساحة أم ماداً ذراعي إلى رداء سائر على الرصيف؟ حذرتني من الزوبعة الثلجية.. وأين من الزوبعة المفر؟ وهي كالليل الذي هو مدركي كما يقول النابغة! أينما أتجه أجدها! هل أبقى في المترو إلى ان تهدأ الرياح. فإذا لم تهدأ طيلة الليل، وهم لن يسمحوا ببقاء أحد بعد

إغلاقه؟ فإن هبت بغتة وأنا في الساحة فهل أقطع المسافة راكضاً إلى المخزن أو المقهى؟ لا مفر من لقائها ها هنا أو هناك. ولعل الصبية الطيبة لا تعني زوبعة غير الأغنية. أما الأشجار التي تراءت لها في غير ما وضوح.. فهي في كل مكان: في الحدائق والساحات وعلى الأرصفة، بل هي تحت نافذتي نفسها!.

أقتطع من أوراقي عصافير وفراشات بيضاً وأرمي بها من النافذة. النقود تتكدس في محفظتي من أين؟ فأرتدي معطفاً جديداً كل يوم وأتلفع بقبعة جديدة. وأسير متلصصاً على خواطري وأفكاري كالمخبر السري الخائب. خذلته التقارير وضحك في وجهه المنشور السري الملتصق بالحوائط كل ليلة، وسخر منه رؤساؤه، وتنكر له صحبه.. يعود مدحوراً إلى حانته منكساً رأسه: تزور الأوجه عنه بعيداً ويتجاهله الندل، يحدق إلى قعر قدحه الفارغ باحثاً عن السبب، ويخرج تائهاً مثلما جاء، مكفهر النظرة، خاسراً سهرته.. تتبعثر به الطرقات وتلمه الخرابة حيث تصرخ امرأته العصبية ويلح أطفاله بطلباتهم. أين هو الطريق إلى الصبية المليحة؟ أين هو الطريق إلى النور؟

أحياناً أسأم من نفسي ومن الفتاة. أفتح لها بيرة ورواية عاطفية ضخمة، تتلهى بهما وأنصرف أنا إلى الترجمة أو التفكير! أتمعن في الصورة الصامتة في إطارها الأصفر الباهت.. وأتذكر اشتعال العينين الذهبيتين وتلألؤ الصدر في الكوخ الصيفي وصهيل الخيول! ويطول جلوسي إلى المكتب فتنعس الفتاة وتتمدد على الأريكة.. وتغفو في انتظار هزة يد مترفقة مني. وقد يهرب النوم عن جفونها كما يقول المعري.. فتظل تقرأ

متجرعة البيرة حتى أضجر أنا من الجلوس وتصفح المجلات، فأشاركها البيرة بعد كونياك المطعم فنسعى مترنحين إلى الفراش!

وقد أمضي النهار كله في غرفة القراءة الخاصة آملاً ماداً النظرة إلى رفرفة الحمائم بين الحين والآخر، وأركب المترو في اشتداد زحمته إلى محطة الفندق الرمادي.. وأسأل شيخ المشجب، أسأله هو يائساً من التفاف حاجبيه بالشعر الأبيض. عن الفتاتين الطيبتين محملاً إياه قصاصة لهما جاءتا مرة أو مرتين إلى المقهى الجانبي، وسهرنا السهرة نفسها وارتشفنا أنخاب الصباح، أضيف القهوة إلى البونش، أحياناً، خفية عن الأعين، وأشرب قالت لي جليسة ما: النادلة تعدُّ لك بونشاً مركزاً! الصورة هادئة وأنا أترجم!

- لماذا لا تمطر السماء يا جدتي وهي غائمة الآن؟

- إنها تنتظر لمعان السيف وصيحة الجواد الأبيض.

- لماذا تلتمع عينا دنيا في الظلام كعيون القطط؟

- لأن أمها ولدتها ليلة اكتمال البدر.

- لماذا تبيض الدجاجة بيوضاً بيضاً وهي سوداء؟

- لأن الديك يصيح مؤذناً بانبلاج الفجر.. والضوء أبيض.

- لماذا لا نرى النجوم بعد سقوطها على الأرض في الليل؟

- قبل أن يبكر الرعيان بقطعانهم إلى المراعي الخضر.. تلتقط الساحرات النجوم ويبعنها قلائد وخواتم تتزين بها النساء.

- لماذا تصبغ المرأة شعرها ويديها بالحناء قبل أن تنام؟

- أحياناً ينزل الملائكة الصغار من السماء إلى الأرض، والناس

نائمون، فيدخلون الخيم، والملائكة الصغار يعشقون رائحة الحناء الطيبة.. رائحة العيد. فإذا شموها في الخيمة وطابت نفوسهم رفعوا أصواتهم بالدعاء قائلين: يا رب أرزقها طفلاً إذا كانت المرأة متزوجة ولم تلد بعد.. فإذا كانت غير متزوجة فهم يقولون: يا رب أرزقها زوجاً صالحاً.

- لماذا خلق الله الذئاب وهي تأكل خرافنا؟

- قبل الآف السنين كانت الخراف ذئاباً. وكانت الذئاب خرافاً ترعى في البرية، فهي تأكلها الآن مثلما أكلتها الخراف من قبل.

- والرياح؟ لماذا تعوي الرياح في الليل؟ هل كانت ذئاباً أيضاً؟

- الرياح لا تعوي. الرياح تغني. أما صياحها وشكواها في الليالي المظلمة فهما الحنين الحزين تبعث به ريح الشمال إلى ريح الجنوب، وتبعث به ريح الجنوب إلى ريح الشمال. وحين تلتقيان تصحو السماء وتخف حدة البرد.

- لماذا تنامين بيني وبين دنيا؟

- لأن يدي اليمنى قوية.. فهي تمنحك القوة فتكبر وتغدو فتى قوياً وشجاعاً. ويدي اليسري رقيقة.. فهي تمنحها الرقة فتكبر وتغدو فتاة رقيقة وجميلة.

- وهل تعرفين لماذا تصفرُّ الشمس عندما تغرب؟

- قبل أن تغوص الشمس وتختفي في بحر الظلمات.. تنحني على قبة الإمام الذهبية خشوعاً وتبجيلاً.. فتصطبغ بلونها الذهبي.

- وأحلامنا؟ من أين تأتي أحلامنا في الليل؟

- أحلام الصغار من النول الأخضر، وأحلام الكبار من النول الأصفر، أحياناً تتعب ناسجة الأحلام وتكف يداها عن الحركة.. فلا نرى شيئاً في النوم.

- تقول دنيا إنك تسمعين سقوط الندى.. فهل هذا صحيح؟

- المسبحة هي التي تسمع فتقول. وأنا أسمع المسبحة.

- أين وجدتها يا جدتي؟

- جمعتها حبة حبة من أرض لم تنبشها الديكة. بعضها جاء من الجبل الأبيض مع السيول. وبعضها كان في حوصلة هدهد الحكيم سليمان.

- أعطيني حبة منها يا جدتي.

- إذا انفرطت تبعثرت.. وحين تتبعثر تلتقطها الغربان.

- وخاتمك الأزرق هذا.. ألم تعدي دنيا به؟

- هو أكبر من أصبعها بكثير!

وضمتني جدتي إليها قائلة:

- سأعطيك رمانة.

- ولماذا واحدة؟

- لا تجمع بين رمانتين!

الفئران تلد أم تبيض؟ سألتني زينغا مرة فأجبتها كيفما اتفق. لم أعد أتذكر إجابتي. أتردد على المقهى الجانبي يومياً، مرتين أحياناً في اليوم. وقد أدخل السينما فأنام، وأعرج على المسرح فلا أشاهد إلا الفصل الأول. الشارع أهدأ من المقهى، والمقهى أدفأ من الشارع! مطعم البرج يدور كل ساعة دورة واحدة..

الأرض تدور كل أربع وعشرين ساعة دورة واحدة. فمن الأسرع منهما: زينغا أم الأرض؟ أقول: زينغا. وتقول الفتاة: الأرض! فإذا رجعنا إلى المنطق الصفراوي وجدنا مطعم البرج أكثر امتلاء زمانياً وأقلّ فراغاً مكانياً، والأرض أقل امتلاء زمانياً إنها بطيئة وأقل فراغاً مكانياً إنهم يتكاثرون كما يقول آخر إحصاء قرأته البونش ألذ من القهوة.

سجا الليل كما يقول الجواهري، إلا نغماً يتشكى به أكورديون ما.. سريعاً ما يبتعد السكران ويتلاشى! الفتاة نائمة. غداً تصحو مبكرة. الساعة الثانية عشرة تدق في شقة الجيران، قبل ساعتي، بعيدة، غامضة كأنما هي تدق خلف الحدائق والمحطات.. في الجانب الآخر من المدينة! غداً السبت، سأحمل الترجمة المنجزة منذ ثلاثة أيام إلى الدار وأعود بتكليف آخر لا شيء أخف من إتمامه وأسهل! مرة فرغت من جهد أسبوع بأكمله في يومين! سجا الليل كما يقول الشاعر.. والصورة في إطارها الأصفر الباهت تتململ وأنا أتجرع البيرة وأدخن. يمكنني أن أصل الدار في أي ساعة من النهار. أحتسي القهوة الثانية وأخرج إلى الطرقات التي أحبها!

كنت متوقعاً خروجها من الصورة. إلا أنها لم تخرج منها. انفتحت الكوة المواربة بقوة الرياح، واندفعت الثلوج إلى البهو، أسرعت إلى الكوة فرددتها والثلوج تتراقص في البهو ملتمة، آخذة هيئة عمود. سريعاً ما ظهرت القدمان واليدان من بين الثلوج الدائرة في البهو، واتضحت العينان الذهبيتان في الوجه، والشعر الليلكي على الكتفين! إنها ترقص عائمة في الهواء كالطيف أو الرؤيا في غلالتها الليلكية.. لا تتأثر بالمادة أو

الأشياء، بل تخترقها كما يخترق الظل المياه! كان من الممكن دخولها أو خروجها من خلال الحائط والزجاج.. غير أنها لم تشأ، كما اتضح لي، إلا أن تمثل فبرزت على المسرح بثلوجها ورياحها وسط ديكور جاهز لم يتطلب غير انفتاح كوة! الإطار خالٍ منها، وأنا أحدق إلى عينيها دونما وجل أو تهيب. ذهبت إلى المطبخ وعدت بعلبتين كيلا أبتعد ثانية عن البهو لم تكن الفتاة النائمة تعني لها أكثر مما تعني الطاولة أو المنفضة مثلاً، وكأنما هي لا تراها مع أنها ترى كل شيء في الشقة! لم تقل شيئاً ولم تفعل غير رقصتها الدائرة سابحة في الهواء. لا تلمس شيئاً ولا يمسها شيء.. بل مددت يدي إليها فلم تقبض إلا على هواء. واختفت فجأة بديكورها كما تختفي الصورة من شاشة التلفزيون بانقطاع التيار! وفي اللحظة نفسها ظهرت الصورة في إطارها.

أسرعت أتفقد الفتاة النائمة. كل شيء هادئ. الضوء خافت مثلما كان والفتاة غافية. المخدع دافئ وعبر النافذة تحتدم الرياح والثلوج. قبلت وجهها النائم وأغلقت الباب من ورائي في هدوء.

شيء واحد أثار تساؤلي وحيرتي: على مكتبي وفوق الترجمة المنجزة فإن فاتتني رؤيته اليوم لن تفوتني غداً ظرف كتب عليه اسمي وعنواني. فتحته فوجدته ورقة سوداء خط عليها بالحبر الأبيض: كنت تنتظر فراشة بيضاء.. آسفة! الفراشة السوداء تطير تحت الثلوج أيضاً لم يكن هذا هو كل شيء بالطبع. ها هو الرداء الأسود جالس أمامي على المقعد كما تجلس السيدة في حدادها! فتحت علبة بيرة وملأت القدح

الطويل ووضعته على طاولته. نهض الثوب وسار فتبعته. كنت أخشى أن يدخل غرفة النوم فأسرعت إلى بابها ووقفت حاجزاً بينه وبين الرداء السائر. لم يقترب الرداء من الباب.. بل اكتفى بالوقوف أمام إحدى المرايا المثبتة على جدار الممر، وحرك ذراعيه إلى وجهه كامرأة تصلح زينتها ترتب شعرها، وعاد إلى الجلوس في البهو.

وكنت أقول لنفسي: أيبقى جالساً إلى الفجر؟ فإذا صحت الفتاة.. ما الذي سأقوله؟ وكنت أنظر إلى ساعة الحائط قلقاً فقد تنهض الفتاة وتجيء. لم تكن ثملة تماماً عندما غفت فتغرق في نومها. هل أرمي به من النافذة؟ كلا.. سيطرق الأبواب والنوافذ وتعم الفوضى الجيران. لا مزاح مع هذه القوى الخفية! هي أدرى بغدوها ورواحها! وضعت اسطوانة هادئة خافضاً الصوت، مغلقاً باب البهو. وانحنيت جاداً أمام الرداء طالباً مراقصته. فنهض ماداً ذراعيه وأكمل الرقصة مثلما ينبغي أن تكمل.. سرت مرافقاً إياه إلى المقعد كما ترافق السيدة بعد الرقصة وانحنيت شاكراً تلبيته دعوني. غير أن الوقت يمر وأنا انظر إلى الساعة. أخيراً وقف الثوب وسار في اتجاه الممر. فتحت باب الشقة فخرج منه. إلى أين؟ إلى حيث تقوده قدماه كما يبدو. فتحت علبة بيرة وأطللت من النافذة على الليل والحديقة. المصاطب تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد البيضاء والريح تعصف بالشجر وتتلوى في الطرقات. وفوق الطريق المغمور بالثلوج رأيت الرداء الأسود سائراً نحو الحديقة. لا تهزه ولا تنوشه الثلوج المنهمرة! وعلى المصطبة نفسها حيث وجدت زينغا نائمة في انتظاري مرة جلس الرداء الأسود إزاء

نافذتي كامرأة تنتظرني في هذه الساعة الليلية العاصفة! كيف خرج من المنزل من دون أن يلمحه أحد؟ لم تزل إحدى المناوبتين يقظى كما أعرف، وقد يدخل أحدهم عائداً متأخراً. هل نزل في المصعد؟ من يدري! إنه جالس الآن ينتظرني. يبدو أنه لن يتحرك من هنا قبل أن آتي بسيارة له! لم تحن ساعتي بعد.. سأهبط إليه.

ابتسمت المناوبة وقد رأتني ملتفاً بمعطفي وقبعتي الفرائية الجديدة اختارتها الصفراء بيديها الخبيرتين. يدي الصيادة والراعية.

- وللناس في ما يعشقون مذاهب!

أجبتها بغموض السحرة وتضبيبهم.

- فمنها التمشي والرياح غوضب!

أشار الرداء بكمه الطويل إلى المصطبة طالباً مني الجلوس. الحديقة مقفرة إلا منا والطريق خالٍ، والريح تذرو بأذيالها الثلوج الناعمة وأنا أقول:

- لن أمكث معك الليل كله كما تظن. أنا شخصياً لا أكره النزهة في مثل هذا الطقس الذي يذكر بقصص الجنيات كما قالت، مرة..، صبية مليحة، وقد شهد هذا المكان وغيره جولات مماثلة لي منفرداً أو مع امرأة، أما مع رداء فهي المرة الأولى كما أعلم! الروايات الخيالية كما يصفونها.. وقبلها ألف ليلة وملاحم الأوائل ملأى بالغرائب. إلا أنني أحبذ النزهة في الطرقات الليلية مع امرأة.. في الصحو أو تحت انهمار الثلوج. فإذ عنّ لك مرة هذا الخاطر... أو هذه الفكرة فلا تزرني

فارغاً، زرني ممتلئاً بامرأة.. بالمتكبرة مثلاً.. فقد ارتدتك تلك الليلة إكراماً لي ولك.. بعد أن اصطحبتك إلى شقة الصفراء بنفسي، مع أنك أتيتني سائراً على قدميك.. فإن لم تصادف المتكبرة أو وجدتها مع رجل آخر.. ضع نفسك على غيرها ما أكثرهن! كما قالت النادلة الجانبية مرة، واخترها مقبولة رجاء.. لائقة بجودتك وأناقتك! لا أنصحك بالصفراء. لن تقبل. لن تكسو قوامها الآسيوي في عرسها إلا بالأصفر. دعنا نتجول قليلاً قبل أن أعود إلى بيتي، المصطبة متجلدة والجلوس يزيدنا تجمداً. من هنا من فضلك، هكذا أفضل في هذا الممشى وبين هذه الأشجار.. ونحن سائران كعريس عائد بعروسه من الحفل إلى المخدع. لا أدري كم هو الوقت الآن. أنت لا تحمل ساعة كما أرى وساعتي أنا هناك.. على المكتب. أظن أنها الواحدة، سأرافقك إلى الشارع وأشير إلى سيارة تنقلك إلى حيث تشاء. وسأدفع الأجرة كما يقتضي العرف! كلا؟ فيم رجعوك بي إلى الحديقة؟ لا تريد أن تركب؟ لن أرغمك. أنت حر! عُد ماشياً إلى منزلك ما دام قريباً من هنا كما تحاول أن تفهمني.. لن أجلس ثانية ولن أوصلك أبعد من العقد الحجري. لا معطف يحوجك ولا غطاء رأس، ويداي مقرورتان وهما في القفاز الجلدي المبطن بالفرو! من هنا من فضلك. هو ذا المطعم حيث أتغدى.. وها هو العقد وأمامك البولفار. جل تحت أشجاره الثلجية ساعة إذا حلا لك! لا أحد يستوقفك ولا سكير يدنو منك. وأنا ذاهب فعليك مني السلام كما يقول ابن المقفع في إحدى قصصه! عبر الرداء الأسود الطريق الأبيض، ولوح لي بكُمِّه

مودعاً فلوحت له بقفازي تلويحة قصيرة، واستدرت عائداً غير ملتفت إليه، لا أعرف إلى أين انتهت به خطوته فبات ليلته. لن تخلو حديقة من مصطبة يلجأ إليها إذا ما أتعبه الطواف!

قريبة هي ليلة المهرجان الكبير! ونحن نتساءل أين سنحتفل بها؟ وكيف؟ نخطط ونقترح البرامج ونحدد الأمكنة وأسماء الضيوف؟

تقول دنيا:

- سنذهب بالطفلة إلى مسرح الدمى أولاً. بعد المسرح نحن مدعوان في بيت صاحبتي. بعدها إلى بيتنا في انتظار الضيوف. وبعدئذٍ إلى شقتك.

تقول زينغا في برقيتها:

- قد نرحل قبل الليلة الكبرى. فإذا تقرر القيام بالرحلة بعدها.. انتظرني في الشقة ولا تخرج طيلة النهار.. وستعرف أين وكيف سنحتفل!

تقول الصفراء:

- سيحتفل المخزن كله في شقتي.

تقول المتكبرة لي.

- أنا في مطعم البرج أولاً.. أنت دعوتني فلا تنسَ!

- وبعد البرج؟

- أينما تشيروا أذهب.

أقول أنا لنفسي.

- أنتظر زينغا حتى المغرب فإذا جاءت لن تلبث إلا قليلاً

وتلتحق بأمها وزوجها كما اعتادت ومن الشقة إلى البرج فمن البرج إلى حفل الصفراء لن أبقى إلا ساعة واحدة بين البائعين والبائعات وسيبقى لدى متسع من الوقت يكفي للحاق بدنيا في شقة صاحبتها، ونكمل الليلة مثلما خططت وأرادت تقريباً.

تقول الصفراء ضاحكة:

- أول اسم في قائمتي هو اسم خبيرة الكتب الصفر! ستصلها بطاقة الدعوة قبل أن يتسلمها مدير المخزن سأحجزها منذ هذه اللحظة.

تقول المتكبرة:

- لن نتأخر عنكم. لن يدور البرج بنا غير دورتين.

أقول أنا متذكراً:

- الفتاة مدعوة أيضاً.

تقول الصفراء:

- لن تضيق الشقة بطفلة طروب!

تقول المتكبرة:

- مائدة البرج لأربعة شخوص. فمن تدعو للمقعد الرابع مع الفتاة؟

أقول أنا:

- الحمار الأبيض الصغير!

تقول المرأتان ضاحكتين.

- أهو اسم تطلقه الفتاة على أحد أصحابها؟

أقول أنا:

- بل هو اسم صاحب لي.

تقول المرأتان:

- فهو مدعو أيضاً إلى الحفل.

أقول أنا.

- ابعثا بطاقة باسمه إلى زينغا.

تقول المرأتان جادتين:

- وهل تعرف زينغا عنوانه؟

أقول أنا:

- وتعرف اسمه.

تقول المرأتان جادتين أيضاً:

- لقد ذكرت اسمه أنت. لم يبق إلا عنوانه.

برقية من زينغا: أحياناً تمطر وأحياناً لا. البحر عن قرب! لا أقرأ إلا في الأحلام. ساعة الغروب تنحدر الشمس وجهاً أحمر مصاباً بالزكام الحاد. ماذا تترجم؟ أهي القصص التربوية نفسها؟ يقال إن الأرانب الثلجية تتكاثر بتأثير من البقع الشمسية التي تعاود الشمس كل عشر سنوات وستة أشهر وتقل باختفائها. البارحة عزفت، على بيانو المنتجع، السوناتا الرابعة عشرة! ألن تغار؟ لا تهمل الأطروحة يوماً واحداً. مزيداً من الكتابة كما طلبت من قبل. أعرف أنك تكتب أُطروحة عنا. حفظتها قبل أن تكتبها.. قبل أن تحفظها الصبية المليحة.. أكتب الحقيقة ولا تخجل! عملت مرة موظفة بريد.. أتذكر؟.

برقية أُخرى:

العينان المشتعلتان رغبة في الحافلة.. الوجه الشاحب المريض حباً.. قبل أن نلتقي بعامين.. أتذكره؟ أنا هما العينان.. أنا هو الوجه! الشعر الكستنائي القصير والشفتان المنفرجتان! الرياح تذر الرمال في وجهي، والنسور تراودني أنا غانيميد الراعي.. أنا سافو الايولية! شعري ذهب ونار في مهب الرياح... من المجنون الذي يفر من امرأة تطارده؟ الأنثى تفاحة والرغبة نكهتها الصباحية! طعمك على فمي ألصق من أحمر الشفاه! أزورك في الحلم وأنثني خجلاً منك!.

برقية على عنوان المخزن لماذا؟ حملتها الصفراء إلي وأنا في المقهى الجانبي أحتسي القهوة واقفاً، مؤجلاً البونش، المقهى في أوج زحمته:

لا تكتئب! لن نرحل إلا مع الفتاة. أبرقوا لي إيجابياً من هناك.. استحضر الجحش وسرح إلى المرعى. المرفأ في انتظار القارب وعيناي تترقبان. قل للخبيرة: قهوتها متغيرة الطعم فمن زودها بها؟ أنت؟.

قالت الصفراء وبين يديها قائمة الطعام:

- لن تأتي المتكبرة إلى المطعم إلا بعد ساعة، إنهم يودعون المدير في المطار، رحلة صيد قصيرة.. أبرمت حبالها زينغا قبل رحلتها الانتجاعية.
- فراء وجلود أُخرى؟
- من الغابة إلى المخزن؟
- أيحزنك قنصها وفي عينيك تتوقد نيران الرعاة والصيادين؟
- كانت جدتي صيادة وجدي شيخ قبيلة.

- ها هو جدك بحاجبيه الأبيضين.

- ما هذا إلا بياع أقمشة.

- أتعرفينه؟

- هؤلاء العجزة كلهم من مصنع الأنسجة القطنية.

الفراشة تطير والعكاز جوار المائدة القطنية. ستحط بعد ساعة فراشة المخزن الملونة: أجنحتها فرو أبيض وشفتاها قرمزيتان.. تقرب القدح مني وتمسح الوهن عن أصابعي المتبعة!.

- هل عينوا سكرتيرة جديدة؟

- ما انفكوا يترصدون عودة الطيور المهاجرة!

- ألم يلمحوا طائر السنونو بعد؟

- وهل لاح لك بعضها عائداً قبل انتهاء رحلته الجنوبية؟

- لعل العاصفة هي التي طوحت به إلينا.

- وفتحت الكوة وآويته؟

- دللته على المتكبرة فقد تعتني به.

- لا أظن. إنها مولعة بكتاريها الذي أتحفتها أنت به.

- لم يبقَ إذن له غير الحدائق المتجلدة والفارس المجنح.. يلوذ به كما لاذ من قبله طائر سنونو أوسكار وايلد بتمثال الأمير السعيد محتمياً من المطر والبرد!

- ذكرني غداً.. وسأرمي له ما يأكله بعد العودة من المطعم.

- فإذا صحبني من الساحة ساحباً ذيله الطويل على سلمك؟

- لن يصعد إليّ وقد أهملته مرة للمتكبرة!

رسالة من لا أحد:

جاري العزيز:

أقول جاري وأنا لست من فتيات المنزل الذي تسكنه، أنا من المنازل القريبة. ليس بيننا إلا انفراج أشجار حديقة عن ممشى.. فأنا أراك في وضوح تام! عندي وسائلي واغفر لي: منظار أحتفظ به منذ طفولتي لن أصوبه إلى نوافذك بعد هذا الخطاب فلا تقلق. أنت لا تعرف اسمي، وقد لا تتذكر وجهي حين تلقاني مرة أُخرى، أما أنا فأعرفك منذ عامين رأيتك مراراً سائراً في الحديقة.. أو جالساً على إحدى المصاطب. ورأيتك في المخزن وسينما الحي. بل كنت جالسة إلى جانبك في الحافلة مرتين. ولماذا أعدد الأمكنة التي جمعتنا معاً وأنت لم تكن متنبهاً إليّ آنذاك أو ناظراً إلى وجهي نظرة اهتمام؟ مع أنني من الجميلات أو هذا ما يقوله الناس عني في الأقل! اهتممت بي مرة ولن أقول متى وأين.. ونسيت أن تسألني عن اسمي فلن أذكره، لا أنكر أنني أحببتك حالما رأيتك أول مرة ووددت كثيراً أن أصاحبك.. أما الآن فلا أحلم ولا أحاول. لماذا أجعل من نفسي رقماً بين الأرقام، وتلفوناً يضاف إلى القائمة؟ وما دمت لا تعرف اسمي فلا ضرر من أن أسال. وعسى إلا تزعجك أسئلتي!

فيم هذه الرغبة المحمومة باصطحاب السيدات إلى الشقة؟ كل ليلة مع امرأة وأحياناً امرأتين!

لا أنكر أيضاً أنني سألت عنك ولا أقول من، وعرفت كل شيء تقريباً. إنك تجيد لغتين قراءة وكتابة غير لغتك وأنت مترجم

بارع حاذق يُقال إن أشهر شعرائنا وكتابنا الشباب يعرفونك وينتظرون ترجمة منك! غير أنك لا تترجم إلا ما يتطلبه العمل اليومي.. لا شيء خارج البرنامج! وسألت أيضاً عن إبداعك الشخصي فما أراحني الجواب: لا ندري فيم انصرافه عن تنمية موهبته الأدبية الرائعة، واكتفاؤه بالترجمة.. ولربما هو يكتب ونحن لا نعلم فهو عزوف عن النشر، ميال إلى العزلة والصمت!

لماذا؟ ألم تهززك غربتك وتجاربك وذكرياتك فتكتب عما تضطرب وتختلج به دخيلتك، ويرتعش به خيط وجدانك الرفيع؟

لا تغضب إذا تطرقت إلى الحمولة التي تعود بها كل أسبوع من المخزن العائم! ماذا تجني منها غير الصداع وإضاعة الوقت في ما لا ينفع؟

انتصف الليل وأنا أكتب إليك. أرى الآن امرأة جديدة في مطبخك أنت لا تسدل الستائر على نافذة المطبخ إلا نادراً.. بل تكره إسدالها على النوافذ الأخرى نهاراً وأراك واقفاً إلى جانبها غير ناظر إليها... وجهك إلى الحديقة وفي يدك قدح اعذرني ثانية من فضلك لم يكن هذا مني إلا فضولاً، غير أن هوى قديماً أرغمني وأنا أرى نافذتك منكشفة للآخرين على أن أطيل نظرتي إلى وجه طالما أثار اهتمامي ورغبتي بصداقته!

ستقول عني إنني فتاة رومانتيكية امتلأ رأسها بالروايات... تسدد منظارها إلى النوافذ وتكتب رسائل من فتاة مجهولة! أنا أحب كيتس ولا أحب بايرون كثيراً. ما الجدوى من التقلب بين العشرات من النساء؟

رب صورة على إناء إغريقي تفتح إلى الجمال المفقود أبواباً

لا تفتح باباً واحداً منها أذرع المجموعة البايرونية كلها. مجموعة الصبايا المحتشدات على موائد البونش في المقهى الجانبي!

لم يكن اهتمامك العابر بي إلا رغبة بتزجية ليلة. غير أنك كنت كريماً معي والحق يُقال.. أوصلتني خطوتين ولم تحاول الصعود بي إلى المطعم.. إلى العالم المتلألئ الصادح فتدعوني بعد الرقص وتعدد الأنخاب إلى الشقة. ولماذا أطيل؟ كنت سأصعد معك إلى المطعم وانتظرك عند باب السينما أو المسرح بعد دعوة منك.. ألست فتاة كغيري؟ إلا أنني كنت انتظر منك أن تفتح لي نافذة على عالمك الداخلي فأراك بعيني أنا لا بأعين الآخرين. وقد ظللت صامتاً طيلة اللقاء تقريباً. لم تسأل إلا عن أعجف طويل لم يتح لي بعد أن أقرأ كتاباً من كتبه. لم تسأل إلا ساخراً ولم تجب عن أسئلتي إلا ساخراً أيضاً. وقد احتملت منك فكاهتك وغموضك وسرت معك في الطريق وقبلت دعوتك إلى المقهى وانتظرتك في المكان الذي قلت أنك مار به غداً أو بعد غد. ولم تحضر! وأين هو وقتك الزائد فتصرفه مع فتاة لم تقرأ بعد افلوطين والأعجف الطويل؟ كنت آمل أن تصبح معي جاداً في اللقاء التالي وتعرفني مزيداً من المعرفة.. فتقصر المسافة ونلتقي في بقعة ما بين كيتس وبايرون!

قد تذكرك هذه الرسالة بوجه ما.. رأيته في مكان ما.. وسريعاً ما تنسى ويختفي الوجه كأي وجه لاح مرة لك في زجاج المترو بين الوجوه الأُخرى، وقد خرجت أنت إلى محطتك وسارت به العربات واختفت في أنفاقها!

أنا أعرف أنك رجل مهذب فاغفر لي. ما أنا إلا فتاة آداب أثارت استطلاعها نافذة فكتبت سطوراً للنافذة وللريح!

دع الستائر مزاحة وأنت تكتب وتشرب مثلما اعتدت، ولا تخشَ نظرة فضول مني بعد هذه الليلة كما وعدت!

القارئة الشاحبة

انطوت ليلة المهرجان كصفحة مترجمة لم ينقصها مما اتفقنا عليه أو خططنا له غير حضور زينغا. أبرقت مهنئة ومعتذرة:

كل عام وأنتم بخير. لم تزل أمي في مدارها الجنوبي منجذبة إلى الشمس! سأرفع نخبي الفياض عالياً تحية لكم وصلتني بطاقة عجلى من الخبيرة تحييك وتشكرك فيها على دعوتها إلى الحفل الشامل! لا أدري لم تحييك وأنت أقرب إليها مني وتشكرك على دعوة قدمتها التترية لها؟ كل شيء واضح في انتظار الرحلة! أيامي كأوراق الشجر تخضر وتصفر متلونة بالخمرة الجنوبية أفرحتني أيضاً معايدة الفتاة لم تبرح متشوقة إلى الرحلة المرجوة. عرج من فضلك على صاحبة الشقة والعجوز وقبلهما نيابة عني قبلة العيد.

وزر غرفتي وتلمس أصابع البيانو فقد تنبعث مقطوعة عزفتها قديماً! وصلتني أيضاً هديتك وحزمة السجائر هديتي لك بين يدي الخبيرة الأمينتين. إعذرني لم أحصل على المجلد النفيس إلا مؤخرا الريح مواتية والمراكب متأهبة. قل للمتكبرة أنا اليد التي أطالت دورة البرج إكراماً لتقبيلها إياك بعد كل رقصة! أطللت في حلمي على الحفل فرأيتك تتهيأ في اللحظة الملائمة للخروج. إلى أين؟ مزيداً من الكتابة...

تمت الليلة وأزيحت مصابيح الزينة وبالوناتها التي ذكرتني بحفلة المترو يوم اندفع متهوراً من دون توقف اعتذرت إلى دنيا وصاحبتها عن تأخري قليلاً نصف ساعة ليس أمراً ذا شان في ليلة عيد يحتفل بها إلى الصباح وكان تأخراً غير متوقع في مطعم البرج! ثم إننا تجولنا ساعة زائدة في الطرقات بعد العودة إلى شقتها وانصراف الضيوف وكانت الريح هادئة والطقس معتدلاً. ودخلنا شقتي مع تنفس الفجر كما كان مخططاً ومتفقاً عليه قبل المهرجان. كم كانت متألقة في ثوبها الاحتفالي بوجهها الناصع وقوامها الأفروديتي! أشترينا الثوب في حينه من المخزن نصحتنا الصفراء به وامتدحته المتكبرة! وكانت الشقة مضاءة مزدانة تتهلل ترحيباً بها!

لم تنسَ طالبة الآداب تعلقها بالعهود الرومانتيكية والشموع المصدورة.. وكتابة الرسائل الرخوة المعطرة بأنفاس الحدائق الخريفية الفائحة في المنتصف من الليل. أعطتني المناوبة بطاقتها الكبيرة المتخفية في غلاف موشح بالتهاويل من صنعها هي.. وأنا عائد من المطعم المجاور لم ترسلها بالبريد. ربما زيادة في التستر وخشية من أن تقع في يد أُخرى.. ولعلها حملتها متنكرة بقناع!.

لم أقرأ بطاقتها إلا ليلاً في الثانية عشرة تقريباً بعد العودة من السهرة تمشياً مع العرف الرومانتيكي المتشح بالظلال! كانت البطاقة من صنع يديها الشمعيتين أيضاً ورقة صفراء كأوراق الخريف مخرمة ومرفقة بحواشٍ وذيل طويل كطائرة ورقية. وقد كتبتها بالحبر الصيني ربما حداداً على انقضاء ليلة العيد!

جاري العزيز..

أنت غريب عن بلدك غربة الطيور وأنا غريبة عن زمني كما أظنك قائلاً عني.. أتذكر هنا مؤجلا قراءة بطاقتها قول امرؤ القيس في ما يزعم الرواة:

أجارتنا إن المزار قريب

أجارتنا إنا غريبان ها هنا

وإني مقيم ما أقام عسيب

وكل غريب للغريب نسيب

ونحن في مهرجان ينتظره الناس مرة كل لم تمر على انطوائه إلا ساعة فلا خرق للمألوف في أن تصلك معايدة من جارة التقيتها مرة ودعوتها إلى فنجان قهوة أهنئك وأصافحك. سألت أستاذة الآداب، أستاذتي الجليلة، عن الأعجف الطويل وهي مؤرخة ظللتها أخريات القرن التاسع عشر فأعلمتني أنها قرأته قديماً وهي طالبة ولم تعد تتذكر من كتبه غير رواية الشقة المزدوجة.. وقد أضاعتها قبل ثلاثين عاماً في رحلة لها إلى إيطاليا متتبعة خطوات الشاعر بايرون هي من أصحابك كما ترى وأرشدتني إلى مكتبة عتيقة قائلة لي: قد تعثرين عليها في أقبيتها.. وأنا ذاهبة غداً إلى هناك بعد آخر محاضرة.

فاتني أن أسألك يومها عن كتبه وأين قرأتها ولعل بعضها في مكتبتك الحافلة فإذا صدق حدسي أرجو أن تتركه عند المناوبة وسأعيده إليها من دون تأخير، شاكرة ممتنة وهو أبدع رد على بطاقتي الخجلى.

رأيتك عشية العيد خارجاً من المنزل.. يداك في جيبي معطفك الزيتوني وأنت تسير متجهاً إلى الشارع خطوتك ثابتة وعيناك حالمتان!

القارئة الشاحبة

قلت للخبيرة وأنا أتصفح المجلد المتأكل العتيق:

- لِمَ لم تبعث به زينغا على عنواني؟

- الكتاب كما ترى بالٍ وكان غلافه مهترئاً فأصلحته لك، لا يصح تقديم هدية مهشمة ينبغي ترميمها قبل إهدائها.

لم يكن المجلد إلا هوامش كتبها القارئ الليلكي على متن ألف ليلة وليلة مختصراً هذه الحكاية أو تلك، معيداً كتابة البعض الآخر... مؤكداً في مقدمته أن "الليالي" من تأليف سيدة عربية اسمها شهرزاد كان زوجها التاجر الغيور يحبسها في قصر عالٍ تحرسه الجواري والخصيان كلما شد الرحال مبحراً بسفنه، متاجراً بين الهند والصين، أما الحكايات فهي رؤى ليلكية كانت تهبط على السيدة وهي نائمة كل ليلة من لياليها الألف فتكتبها نهاراً! يقول في مقدمته: هو درة الدرر في الأدب الأرضي.. خرجت منه آداب الدنيا الأرضية التي تلته كلها فهو إذن خلاصة ما كُتب أو ما سوف يكتب منذ العصر السومري حتى العصر الجليدي القادم! وقد فسر العلاقة الرؤيوية بين السفر العربي والآداب التي سبقته قائلاً: لم تكن ألف ليلة وليلة نقلاً عن غيرها.. بل هي النظرة الشهرزادية معززة بالرؤيا الليلكية!.. وهنا يكشف القارئ الليلكي القناع لأول مرة في التاريخ الأدبي عن ضياع ست حكايات من الكتاب العربي الشهير ويعد برفع أنسجة

العناكب عن الكنز المفقود كما يصف الحكايات وتقديمه ضمن أطروحة أُخرى.

وكنت أقول لنفسي عوضاً عن أن أكتب تهنئة متأخرة رداً على بطاقة الآنسة الطالبة.. سأعيرها هذا الكتاب فتشغل نفسها به!.

لففته بجريدة من الجرائد العربية التي لدي ووضعته في ظرف كبير أيضاً إمعاناً في التخفي، وتركته عند المناوبة وبعد أسبوع أو أقل، لا أتذكر، أعادته المناوبة لي مع هذه الرسالة:

جاري العزيز..

فتحت نافذة لا أعرف كيف أخرج منها. أنا الآن في عالم المكتبة الآخر السفلي! انتقل من ردهة إلى أُخرى تحييك الآنسة الخبيرة وتنتظر زيارتك.

مررتُ قبل أيام على السيدة المناوبة، والأمل يحدوني أن أجد رواية أُخرى من روايات الأعجف الطويل فوجدت ألف ليلة وليلة في طبعته الملخصة الجديدة الأفضل أن أقول: النادرة فهي طبعة نافدة، لم يعد يحصل على نسخة منها إلا الراسخون في العلم... مثلك ومثل الآنسة الخبيرة أعجبني التلخيص إعجاباً لم ينله مني كتاب تلخيصي مماثل! وأدهشتني مقدمة القارئ الليلكي.. أي تحليل! وأي رؤية لم يسبقه إليهما أحد من المختصين! من هو؟ الغلاف لا يقول شيئاً عنه. إعذرني عن سؤالي من هو؟.. فليس من المأمول أو المتفق عليه أن تكتب رداً. سأكتفي بجواب الآنسة الخبيرة الغامض الملخص: هو أمير تتري..

جاري العزيز:

سمحت لنفسي بإعارة الكتاب لأستاذتي الجليلة لم يبق معها غير يومين فأثنت عليه ثناء لم أسمع منها مثله من قبل! أنا الآن من الجامعة إلى الأقبية! عجيبون هم كتابك هؤلاء! إنهم يستلبون لب القارئ استلاباً! أعدت قراءة الشقة المزدوجة.. أي خيال! وأي تحليق! من هو غوفمان مقارناً بالأعجف الطويل؟ بل من هو شميسو وإدغار بو؟ ومن هي الرواية القوطية برمتها؟ من المؤسف أنني لم أحظَ بنسخة من تآليفه الأُخرى. في فهارس الأقبية العديدة. ربما هي في قائمة خاصة لا يكشف عنها إلا لذوي الاختصاص. يقول الفارس ذو الخاتم المنقوش بحرفين في الرواية نفسها: الشتاء للعوم، والصيف للسباحة.. وكنت اتساءل: أليس العوم سباحة أيضاً؟ وفكرت وأطلت التفكير، فإذا بي اكتشف أنه يعني الرحيل والإبحار في محيطات الكتب! وها أنا أعوم مبحرة رافعة أشرعتي بين مرافئ الأقبية! الصباح للجامعة، والمساء للمكتبة. قبل ثلاثة أيام جمعتنا عربة مترو واحدة.. وقبلها في المخزن الكبير كنت خلفك بيننا أربعة من المواطنين في الصف نفسه. أوشكت أن اقترب منك وأشكرك، غير أنك أسرعت للقاء امرأة شابة وابتعدتما إلى صف آخر. أشهد أنها بديعة! الآسيوية رائعة هي الأُخرى! زر أقبيتك! إنها متشوقة. غداً وبعد غد أتذكر وعدك الذي طارت به الرياح؟ أنا مارة بالمقهى الجانبي.. فإذا صادفتك هناك سأدعوك إلى فنجان قهوة وقدح بونش القهوة لي والبونش لك.. أنا أمزح بالطبع. أنا أيضاً أستلطف بونش المقهى الجانبي! أحييك مرة أُخرى وأصافحك.

كنت أفكر بطريقة أزحزح بها الطالبة بعيداً عن الحدباء ورفوفها السفلية. لا ضرر، بالطبع، من ارتياد الأقبية، وقراءة المجلدات الجاثمة جثوم الوطاويط على جدران غار.. غير أنك لا تهبط السلالم إليها إلا عارجاً على الخبيرة، وبسماح منها! فما هو السر في ترحابها الزائد بطالبة غير مختصة بعد؟ لن تمنع الخبيرة باحثاً "متتبعاً" أو محاضراً يلجئه اختصاصه إلى مملكتها السردابية. وما الطالبة بواحدة منها. فما السر في إبقائها جائلة بين الكهوف؟ أتريد أن "تطبق" عليها هي أيضاً أفكاكها "الليلكية" وخيوطها المراوغة؟ لا أدري. أهو "مشروع" رحلة أخرى إلى "هناك"؟ أنا شخصياً لم أرتضِ الغيبة الليلكية المنتظرة إلا لهفة مني إلى رؤية عيني الحمار الأبيض الصغير! فأي مخلوق سيتم استحضاره، ويرتقب الطالبة في تلكم العوالم؟ قطة أو جرو مثلاً؟ مهما يكن القصد، لا بد من التدخل، وإعادة الطالبة إلى مكتبتها الأجنبية وشعرائها المصدورين. لن أشي بالخبيرة أو أفضحها. نحن صديقان بل سأنصح الفتاة نصحاً رقيقاً، وأنأى بها عن ظلمات الأقبية! وسرعان ما شرد فكري في اتجاه آخر. وخلا ذهني خلواً تاماً من الطالبة ورسائلها، وحملني المساء في عربته الرمادية كما قد يُقال في الأشعار.. في طريقي اليومي الاعتيادي إلى المقهى الجانبي. فوجدت الطالبة جالسة هناك، وأمامها قدح بونش! لم يجر في بالي لحظة أنها قد تكون في المقهى كنت أبحث بعيني، حاملاً البونش والقهوة، عن كرسي خالٍ.. فإذا بها تومئ لي

داعية إياي إلى مقعد محتجز صافحتني مصافحة حارة.. محتجزة يدي بين يديها قائلةً.

- مقدمة فذة.. وتلخيص ملهم!

وأضافت بعد أن جلسنا :

- كنت متوقعة منك إنجازاً تتناقل أنباءه الصحف.

- عن أي إنجاز تتكلمين؟

- التواضع سجية محمودة. غير أنني احتفل الآن بك وبكتابك الظافر، المكلل بأكاليل الغار! فاسمح لي أن نشرب نخبه.. ونخب إصداراتك القادمة.

- ومن أين لك العلم بلغتنا فتحتفي بترجمة أخيرة لي؟

- أنا أحتفل بالمقدمة التي دبجها يراعك.. مفسراً بها ألف ليلة تفسيراً مبتكراً.. وباختزالك حكاياته اختزالاً محكماً، أضاف إلى أعجوبتكم العربية هالة جديدة، وإلى العقول المعاصرة اكتشافاً قصرت عنه أجيال وأجيال!

- أنا؟

- أنت هو القارئ الليلكي!

- النسخة قديمة.. والمؤلف أمير.. كما أخبرتك الخبيرة.

- هو أنت. لا تضحك النسخة جديدة، لم تطبع إلا قبل عام، وقد نفدت، بالطبع، بعد صدورها بأيام، ولم تموه علي الآنسة الخبيرة إلا إرضاء لك. ولتسترك خلف اسم أدبي مستعار، احتجاباً منك عن اللقاءات الصحفية والإذاعية المنفرة.

وكنت أقول لنفسي: شبهت الأمور عليها كما شبهت عليّ من قبل. الأصابع الحدباوية وأمازيحها! رممت الكتاب البالي لي، وجددته نسخة طازجة بين يدي الطالبة المخدوعة. إنا لله. أي نصح يفيد معها الآن؟ مع هذا لا بد من أن أتحرك..

- في تصوري.. المكتبة الأجنبية أقرب وأنفع لك.

- أنا لم أخطُ، بعد، غير خطوتي الأولى على سلالم الأقبية.

- عندما كنت طالباً..

- عندما كنت.. كما هو واضح الآن بعد قراءتي مقدمتك.. لم تتوانَ لحظة عن الإسراع إلى مكتبة أو معرض كتاب لم تطأ أعتابهما ودهاليزهما خطواتك من قبل.

- المحاضرات هي الأهم.

- وهل الأقبية وأنت أدرى غير ينبوع تظمأ المحاضرات إلى قطرة تكفيها منه؟

- سأجيء ببونش آخر لنا.

وجئت بقدحين قائلاً لنفسي: إنها منظمة "أعني الطالبة" نظمتها الآنسة الخبيرة. ابتسمت الشاحبة قائلة، متوقفة بين الكلمة والأخرى:

- الأمير.. يحمل... كأساً... لي!

- ما أنا بأمير كما تعلمين.

- هو أنت، وأنت هو.

- من مرّرَ هذه الفكرة إليك؟

- أبحاثي والصحف التي هزها الكتاب.. والصورة التخطيطية

التي نشرتها إحداها كاشفة عن ضبابيتك: الليلكي في طريقه إلى الفندق الرمادي!

- والصحف أيضاً؟

- بل ثمة فكرة لم تبرح دائرة في رأسي، منذ أنهيت الفصل الأول من الشقة المزدوجة.. لم أجرؤ على البوح بها في حينها.

- وهي؟

- أنك أنت الفارس ذو الخاتم المنقوش بحرفين!

- تريدين أن تقولي أن خاتمي هذا هو خاتم الفارس نفسه، وقد انحدر إلي مجتازاً الأزمنة قرناً بعد قرن بفصه ونقشته؟

- لا أهمية هنا للخاتم.. ليكن هو أو مشابهاً له.

- فأين تكمن الأهمية في رأيك؟

- كل شيء في الرواية يشير إليك، ويتحدث عنك، أوصاف الفارس هي أوصافك أنت.. وتصرفاته كلها هي تصرفاتك.

- هذا يعني أنك تخاطبين، الآن، شبحاً!

- بل يعني أن الأعجف الطويل، حين كتب روايته في الزمن الغابر، إنما كان يتنبأ بظهور أمير أو فارس هو أنت.

- تلك هي الأقبية وظلالها المتحركة!

- بل هي أفكاري وتأملاتي.

- وهل وعدتك الرفوف ببساط سحري يطير بك؟

- ولماذا لا؟

لم أطل معها المقام في المقهى الجانبي دنيا تنتظر تلفوناً

مني.. افترقت عن الشاحبة عند المدخل إلى بيتها كما يفترض. وعدت قاطعاً الممر العريض بين الأشجار إلى بيتي وفي الحادية عشرة صباحاً وأنا غادٍ إلى المطعم المجاور، استوقفتني المناوبة قائلة لي، مازحة كالجادة، آخذة لفافة مني:

- أيها الفتى.. الرسائل تترى. أجب ولا تحرجني.

وتبسمت زافّةً لي رسالة أُخرى.

جاري العزيز..

بعد أن أوصلتني البارحة، أرجعتني أمي بمهمة دنيوية. فمضت بي خطواتي في الطريق الطويل، وأنا لا أدري، مهملة أقصر طريق إلى المخبز.. فمررت تحت نوافذك وأنا أتنهد. انتصف الليل والنافذتان منورتان نافذتك ونافذتي بين النوافذ المظلمة. غداً أنزه ذهني الشاحب المهجور بين صفحات الأعجف الطويل نزهة ثالثة. ما دام الفارس متنائياً عنا، لاهياً في أمكنته وأزمنته الأُخرى.. فلم يبقَ لي غير أن أستعيد صحبته في شقق العصور السالفة. كلت عيناي، وتعبت قوافلي.

بين كوتين لا تريدان أن تلتقيا

أشجاري عارية، وأعراس الربيع في الطرقات

إنها تكتب شعراً ركيكاً، سأحاول ترجمته كما هو

جعلوني ناطورة للنوافذ. أما نافذتي فلم أنطرها

الغطاء بارد... أين هما ذراعاك؟

تقول الخبيرة: بادري... وأنا خفرة

أغمض الليلك أجفانه عنا

حالماً بقباب آسيا الذهبية

شهرزادك يقظى، وأنت نائم... نحّ عني الحراس

نح عني الجواري الصفر

أطرق بابك بكلتا يدي

رجع البحارة.. فأين سفينتك؟

أمطر التجار حظاياهم ذهباً.. وامرأتك تنتظر قبلاتك

مالت النجوم غرباً، وتوارى القمير

أعتمت الحديقة، وابتلت ندى، وأنا بين الأشجار..

الظلال تحجبك عن الأعين، وطيوري لا تفزع...

أكوّر ملء يديك تفاحاً ورماناً

وأدحرج فاكهة الشرق والغرب

هرمت أوفيليا الشاحبة، وغررت بها المواشط

الأمير على سرير البائعة

ويداه تلتقطان الريش الطائر

ذهبت بنا العودة، وعاد بنا الذهاب

فأين هو الخان يا تاجري فنبيت فيه؟

سحقاً للذهب والفضة.. منديلي أطارته الرياح

أخطائي أنني لم أخطئ، وإجابتي بيضاء

كصيحة نورس..

أكتب على بياضي ناثراً أوزانك وقوافيك

طوح بي يمامة مطوقة إلى الطاق

وأعدني إلى وكر أصابعك

وضع البحر درهمه في جيبي، واضعته أنا في الساقية

أبرزت الآسيوية ساقها البلقيسية صاعدة السلم المرمري

إلى المطعم الرمادي

قدمي بيضاء.. ألم ترها؟

أكتافي تترجرج رقة

أنا وردة لم تتفتح بعد... نادني أجئك

أشر لي أطعك..

لن تسفح خمرتي القانية إلا قرباناً لك

ضمخ بها ثلوج الحدائق النائمة

أنا منذورة لك.. غداً وبعد غد.. أتذكر؟

ساعة انتصاف الليل تتراءى الشاحبة

بين الأشجار الثلجية.. قف عند النافذة وأومئ

أنا أهذي..

حالما فرغت من آخر كلمة سمعت التلفون يرن.. هي الحدباء تنبئني أنها منسلة اليوم انسلالاً مع إدلهام الأفق إلى مكتبة ما.. ليس بعيداً عن الفندق الرمادي، فإذا أمكنني الفرار بنفسي من صويحباتي وثرثرتهن، سأمر، في طريقي إلى المترو، بالمقهى الجانبي.. عسى أن ألقاك فيه في السابعة أو بعدها بقليل...

جاءت ملتفة بردائها الأسود المحكم، سخية بابتسامتها الملتصقة! بعد القهوة والبونش دعوتها إلى المطعم، فاشترطت

ألا أؤخرها فيفوتها اتصال منتظر من الطفلة الملكية. لن نبقى بعد الحادية عشرة مهما تقل وتلح. الليلة ترفع زينغا الستائر عن فصل آخر من فصولها التلفونية!.

انتهت المأدبة في الحادية عشرة تماماً. وتمت الملهاة كما أرادت لها الخبيرة أن تتم. بعد أن أخرجتها بقدرتها الإخراجية المعهودة! دخلت الشقة قبل الثانية عشرة، وأخرجت علب البيرة الفاوستية الباردة وطفقت أحتسي. وفي الثانية عشرة تماماً رن التلفون. فسمعت الحدباء تقول: الآن تفتح الستارة وتمثل لي زينغا فصلاً ممتعاً! أزحت الستارة قليلاً عن نافذة البهو فرأيت الطالبة جالسة على المصطبة ناظرة إلي. هززت يدي محيياً فهزت يدها رادة تحيتي. ناهضة متجهة إلى المدخل. ثم طرقت الباب فأدخلتها قائلاً:

- ابتعدنا كثيراً عن كيتس في الطريق إلى بايرون!

هذه المرة وجدت رسالتها على مكتبي. كتبتها، وأنا نائم قبل، إسراعها إلى الجامعة! لم أقرأها إلا بعد عودتي من المطعم المجاور:

جاري العزيز...

قبل أيام سمعت الآنسة الخبيرة تتحدث عرضاً عن حفل سيُقام قريباً في شقة من الشقق القائمة فوق مخزن عصفورة النار وعلمت منها أن الحفل يُقام احتفاء بك وبعمل روائي توشك أن تفرغ منه. لا ريب هي أوراقك المنعزلة التي سألتك البارحة عنها فقلت مازحاً أو جاداً لا أدري: هي رقصة من رقصات شهرزاد لن يحضر الحفل، كما عرفت، إلا الخاصة من أصحابك بعيداً

عن الصحافة الفضولية وأنا لا أريد أن أتخلف عن الخاصة ليلة التفافهم حولك فرحين، محتفلين هل لي بتذكرة إلى الحفل؟ لن يصعب عليك استلالها منهم وأنت كوكب الحفل الساطع!

القارئة الشاحبة

وقبل أن أجلس إلى مكتبي مترجماً الصفحة تلو الصفحة علا رنين التلفون: إنها الصفراء تحييني تحيتها الصباحية وتقول لي مزهوة:

- أنت الليلة مدعو إلى حفل في شقتي، لن أقول الآن لماذا:

قلت مكابراً: لا أريد هرجاً ومرجاً.

- لن يحضر إلا أصحابنا الخلص: الآنسة الخبيرة والبروفسور والآنسة الرومانتيكية تذكرتها في غرفة الآنسة الخبيرة والمتكبرة والبائعات.. وأنا وأنت بالطبع.

- والفتاة؟

- لن تصلح غير رفيقة رحلة إلى البرج القروي.

- لا يصح إهمالها. لا تخشي منها لن تفهم كلمة من كلماتك الآسيوية الملغزة. ثم إن أحداً لن يتحدث عن المشروع أو عن الخطط كما تعلمين الضباب يلفنا كما يلف الخليج الفنلندي... وانتحابنا لا يسبر لها غور. لا شيء سيُقال غير أحاجي الحدباء وألغاز الأعجف الطويل.

- هل أنت مصر على دعوتها؟

- وعلى دعوة حمار صغير أبيض.. تخفُّ به روح السهرة وتلطف.

- ثمة أقنعة لا عدد لها كما تعلم. الشقة ملأى والمخزن بين أيدينا.

سيبتهج البرفسور ابتهاجاً بتنكره خلف قناع حمار أبيض صغير.

- ابرقي إلى الخبيرة بدعوة الفتاة.

- اعتبرها مدعوة.

- وماذا عن الأقنعة الأُخرى؟

- للخبيرة قناع سقراط، وللطالبة الرومانتيكية قناع جورج ساند، وللمتكبرة قناع كليوباترا! ولك قناع الفارس ذي الخاتم المنقوش بحرفين!

- ولك أنت؟

- لي أنا.. قناع سي شي!

- ومن هي؟

- أجمل جارية في تاريخ الصين الامبراطوري... القرن الخامس قبل الميلاد.

- وللفتاة؟

- دعني أفكر قليلاً.

- فكري...

- للفتاة.. الرداء الأسود.

- هل أضاعته السائحة مرة أُخرى؟

- إنها تبعثر أثوابها في الطرقات مثلما تضع بعض الطيور الحمقى بيوضها على السكك كما تقول الأمثال.

- لا بد من قناع أيضاً.

- ليكن، إذن، قناع جوزفين بعد طلاقها من نابليون.

- والبائعات؟ بأي أقنعة سيظهرن؟

- بأقنعة جوارٍ من ألف ليلة.

- ألم تفكروا بشهرزاد.. مثلاً؟

- بلى.. فكرنا بها وبقناعها الزئبقي!

- فعلاً هي بألف قناع وقناع!

- سأمثل أنا دور الملكة شهرزاد بين الحين والآخر.

قبيل أن ترتفع يد الخبيرة بالنخب الأول طرق الساعي الباب ببرقية زينغا:

آسفة! لن تصل الطائرة إلا متأخرة.

لا تزعجوا أنفسكم. السائق ينتظرني في المطار. لن أضع قناعاً. أعذروني. ولن أمكث إلا ليلة، أمي متعكرة المزاج.

ودخلت هي نفسها بينما البائعات يرقصن رقصة الحمار الصغير يركب البروفسور. انكشف الستار عن مقصورة ملكية أشبه بالسقيفة أو العريش الصيني اتخذت سبيلها إليها. وتمددت على السرير الملكي متكئة بكوعها على الوسائد. وأمرت البائعات أن يتممن الرقصة وهبط من السقف مهد ملكي يحمل طفلاً نائماً. قربوه منها فأخذت تؤرجحه برفق هامسة لي وأنا أحدق إلى وجه الرضيع الغافي:

- طفلنا الاسكندر المقدوني. سيولد بعد أشهر هناك وسنبعث به

حين يبلغ الرابعة أو الخامسة من عمره إلى الخبيرة مثلما بعثوا بي من قبل إلى أمي!

وعندما انفتح المصعد عني وأنا هابط هبوط اورفيوس إلى المدينة والليل الشتوي المبكر.. رفعت المناوبة يدها بظرف قائلة:

- لم يصلني إلا قبل لحظات:

جاري العزيز...

أكتب إليك ورأسي لم يزل دائراً بخمرة البارحة العجيبة. أسرعت في فرصة الغداء إلى قاعة القراءة في كليتنا. وها أنا أكتب وقلمي يدور أيضاً، وتدور به أفكاري أوصلتنا السيارة إلى بيوتنا الواحدة بعد الأُخرى. كما أوصلت الأستاذ أيضاً. لم يبقَ في الشقة غير صاحبتها والضيفة وكليوبترا وأنت. لا أدري هل عادت السيارة فأوصلتكم إلى بيوتكم؟ عندما أطللت من نافذتي قبل أن أنام كانت نوافذك مظلمة. يبدو لي أنني أعرف الصبية الضيفة. أو السيدة! فهي تلوح صبية وسيدة في الآن نفسه!.

أو أنني أعرف شبيهة لها.. رأيتها مراراً معك أو قادمة إليك. ورأيت صورتها عندك. لم لم تضع قناعاً؟ ربما كان العريش الصيني والطفل هما القناع الذي اختارته! رقصات الجواري كانت فذة حقاً؟ أدهشتني رقصة القهرمانة الآسيوية ورقصة سقراط محاوراً الحمار الصغير! نجما السهرة أنت وهي أعني الضيفة كم وددت أن أراقص الفارس ذا الخاتم إلا أن جوزفين كانت متعلقة به قبل حضور الملكة. قناع قيصر كان أيضاً ملائماً لك عندما ارتمت كليوباترا بين أحضانك خارجة من بين

الأبسطة المطوية. كان قناع شهريار غائباً. لماذا لم ترقص شهرزاد رقصتها الجنائزية إلا بين يدي الفارس.. في ثوبها الأصفر؟ لماذا لم تعرها جوزفين رداءها الأسود؟ الرقصة الثلاثية سقراط والحمار وأفلاطون الذي كنتَهُ مهدت لي أقصر الطرق إلى أفلوطين الغامض العويصَ وعدتك مرة بقراءة الاسكندراني وها قد وجدت الطريق إليه! بعد إيداع رسالتي يداً أمينة سأمر على المقهى الجانبي. لا تصعد بي إلى المطعم من فضلك. ما برح رأسي مثقلاً بأبخرة البارحة. لماذا اخترت لي قناع أوفيليا ولك قناع فاوست عندما أدخلتني مكتبة الاسكندرية وأنزلت من بعدنا الستائر؟

القارئة الشاحبة.

طرقت دنيا الباب في الرابعة كما اتفقنا.. فانقطع النقر على الحائط إنها مجازة وغداً الأحد.. وفي السادسة أو بعدها بقليل سيقلنا التكسي إلى المسرح. إنهم يمثلون هناك عندما نبعث نحن الموتى.. وكنت أسمع نقراً على الحائط قبل مجيئها.. نقراً ملحاً معانداً انتهى فجأة مع طرقة يدها على الباب ما الذي يجري في الجانب الآخر من العمارة؟ هل يدقون مسمارا ام مشنقة؟ ولماذا صمت الدق حالما طرقت دنيا الباب؟ ربما مصادفة! سألت المناوبة عندما خرجنا عمن يقطن الشقة الملاصقة. سألتها عرضاً فأجابتني:

- إنها خالية.. كما أعلم.

بين الحشد المنتظر انفتاح باب القاعة لمحت الحدباء والأعجف. إنحنيا لي من بعيد وانسلا بين الناس. ولم تكن

رؤيتهما بين الممثلين مفاجئة لي. الأعجف هو الصياد والحدباء هي الراهبة. إنما فاجأني أن أظهر أنا على المسرح بدور الأستاذ روبك النحات! وكانت ايرين جارية حبشية بوجه زينغا الطفولي وعينيها الذهبيتين وشفتها السفلى الممطوطة.. هي ممثلة معروفة يذكر وجهها بوجه زينغا، رأيتها أول مرة قبل أربع أو خمس سنين فافتتنت بها أما مايا فهي صديقة مرحة عرفتها قديماً. هكذا بدا ممثلو المسرحية لي. ولم تتغير المناظر ولم يحرف الحوار.

وكنت أسمع النقر على الحائط في اليوم التالي أيضاً.. أسمعه ملحاً، مثابراً فلم أجد بداً من أن أرد. فدققت بيدي دقتين. انشق بعدهما الحائط عن الجارية الحبشية، عن ايرين، وعاد خلفها مثلما كان. وكنت أحتسي البيرة الفاوستية متصفحاً أوراقي هذه وأنا على الأريكة. حيتني الممثلة الحبشية بانحناءة من رأسها صامتة. وأخذت أوراقي مني وجلست إلى مكتبي فتحت علبة بيرة ووضعتها قربها. كانت تراجع كتابتي مصححة هنا، مضيفة مفردة هناك كاتبة العديد من الحواشي والتعقيبات على أوراق منفردة ينبغي، كما يبدو، أن أرجع إليها حين أعيد كتابة المخطوطة، كانت الحبشية مشبوبة الوجنتين، فائقة الحسن فاقتربت منها ألاطفها متغزلاً. ودعوتها إلى الجلوس معي على الأريكة. فاعتذرت بيديها صامتة، مشيرة إلى انشغالها بالمراجعة.

فتحت علبتي بيرة أخريين وحملت إحداهما إليها، وعدت إلى موضعي. حين انتبهت الممثلة إلى العلبة الموضوعة أمامها.. أعادتها إليّ مكتفية بالأولى. وكنت أراها منشغلة بالأوراق، جادة.. ضاحكة بين الحين والآخر ضحكة سرور مبعثها هذه المزحة أو تلك.. أو متنهدة.. أو باسمة.. ناظرة إليّ نظرة ارتياح!

وفي الخامسة ساعة خروجي إلى المقهى الجانبي رأيتها تقف مطبقة أوراقي... فوقفت أنا أيضاً.. واقترحت الجلوس إلى المائدة أو الذهاب معي إلى الفندق الرمادي الغائم فاعتذرت بيديها صامتة أيضاً ممثلة لي أنهم ينتظرونها في المسرح فقلت:

- متى تعودين؟

فأجابت بيديها أنها عائدة بعد انقضاء التمثيل. وطلبت مني أن أنقر على الحائط نفسه. فانفتح الحائط عن ظلمة الشقة الخالية انحنت لي انحناءة وداع وخرجت وانغلق الحائط عائداً مثلما كان.

حملت علبتها الفارغة وعلبتي إلى المطبخ. وارتديت معطفي وخرجتُ أنا أيضاً، وعدت ساعة إغلاق المسرح علني أحظى برؤيتها مصادفة في الطريق راجعة إلى الشقة الخالية! في الساعة الثانية عشرة، ساعة انتصاف الليل، سمعت ساعة الجيران تدق قبل ساعتي دقاتها الغريبة التي تبدو كأنما هي آتية من الجانب البعيد الآخر من المدينة. وبعد سكوت الساعتين سمعت النقر على الحائط. فنقرت بيدي عليه نقرتين فانفرج عنها مرتدية ثوبها التمثيلي ثوباً بين الأبيض والأصفر من الكشمير الخفيف اتجهت باسمة خجلى إلى المكتب، إلى المخطوطة، فقدتها من يدها بلطف إلى المائدة.

طيلة العشاء والليل لم تحدثني إلا بيديها وعيناها باسمتان، مبدية إعجابها بأوراقي ورضاها عنها، واعدة بالعودة إليها مرات أُخرى، لم تدخن إلا لفافة واحدة، ولم تشرب غير النبيذ الرائق الخفيف. وبعد أن صحونا متأخرين، وأعدت هي القهوة بخبرتها

الحبشية أردت حبسها في الشقة رافضاً النقر على الحائط فتوسلت إلي صامتة، مشيرة إلى شواغلها في البيت والمسرح، ولم أذعن إلا بعد إلحاح منها.

انفتح الحائط عن ايرين الحبشية مراراً كما وعدت وانتهى النقر بانتهائها من أوراقي ووعدها بالعودة إليها بعد اكتمالها بين يدي، وأبقت لي منظراً أفريقياً يذكرني بها وبإتمام المخطوطة! علقته على الجدار السحري القائم بيني وبين الشقة الخالية، أعجبت دنيا بالمنظر الأفريقي إعجاباً حاراً، واقترحت تعليقه في المطبخ حيث يريحها الجلوس إلى مائدته فأبيت أن أنقله من بقعته السرية قائلاً إنه يوحي لي وأنا أترجم! فضحكت قائلة ناقرة بيدها النقية على أوراقي المنعزلة.

- يوحي لك عندما تكتب.. وليس عندما تترجم!

وسألتني عما أكتب.. فأعدت كلماتي نفسها التي أجبت بها عن سؤال مماثل طرحته الشاحبة من قبل. ضحك وجهها الناصع، ورقصت مازحة، محاولة تقليد الرقص الشرقي مثلما شاهدته في الأفلام.. قائلة:

- تعني رقصة من هذه الرقصات التموجية!

فأخذتها بين يدي مقبلاً وجهها الناصع قائلاً:

- بقوامك هذا تشعلين أيديهم تصفيقاً.

- إصحبني غداً إلى بارك النورس ترَ مني ما يدهشك وأنا أرقص متزلجة في كسوتي الرياضية التي اخترتها بنفسك لي!

برقية من زينغا:

احترق فلوبير مرة براقصة شرقية، وخرج معضضاً منها. انظر

إلى ساعديك! ألم تعضضك راقصتك؟ الثلوج كرمال الصحراء المتقدة بوهج الشمس.. فيها ما يحرق الأيدي والشفاه أيضاً. أسمع خفقات قلب المقدوني من الآن.. قبل خروجه من الكهف المظلم الحار إلى الروضة الليلكية هل سمعت مرة زئير الأسود في رحلة افريقية؟ أنا سوداء وجميلة كخيام قيدار! رأتك الممثلة جالساً في الصف الأمامي فرنت إليك إرناءة طويلة حارة آنذاك، قبل أربعة أعوام كانت تمثل دور إليزابيت في ساحرات سالم. هي نفسها التي تمثل الآن دور ايرين في عندما نبعث نحن المنى كما تعلم! أتدري؟ هي أيضاً من أصل أفريقي.. نزح أجدادها قديماً إلى الشرق وانحدروا على ظهور الفيلة حتى وصلوا الهند! ألم ترها غجرية تقريباً! اشتقت إليك فبنيت من فوقك، ليلة بعد ليلة، خيمتي الحبشية، سأطير بك إلى المجرة السابعة بعد الألف بأجنحة حب لن تذيبها الشموس الايكاروسية!.

برقية أُخرى من زينغا :

قريباً ينتهي ارتماؤك بين أحضان السراب وتلقى الدابة الضائعة منتظرة وتحت خفها النبع الدافق. المتزلجة موجة سرابية هي الأُخرى في كسوتها المشعشعة بالتماعها السرابي. وكما حدثتك الحكاية التي نقلها الفيلم الغربي من الكنز الشرقي كان غوته لاهثاً وراء سراب هو أيضاً لن يرتوي الظمأ وتبرد اللهاة الجافة المحترقة إلا بقطرة من النبع اللؤلؤي والنبع كامن في زجاج المجاهل السرابية مثلما تكمن الحقيقة في الخمر كما يقول المثل القديم! تبحث عني في غيري كما تبحث عن الري في البونش. البحر يتفضض والبرج ينبض في السهل القروي. أنا الريح في سمائك الصافية فلا تتكدر أمزجتك مثل أمي! الخبيرة

كفيلة برعرعة الفاتحين. قل للترية ألا تغمض سمعها لحظة عن الصهيل! التحكم بأعنة الخيل هو لعبتها. زر الأقبية وتفقد المخزن. وأمرح مع البائعات. أقضِ لياليك في شقة الطابق الثالث وحي الدمية كلما مررت. أنت القبضة المحكمة الآن على أزمة العربة المجنحة؟ المجمع الأكاديمي والحمار الصغير في انتظار. قل للبرفسور إنني ممتنة! تنتظره في شيخوخته الشابة استاذية هناك، لن ترحل الخبيرة إلا بعد أجيال.. ستراها ربة جمال، نجمة صباح في السماء الليلكية! لن ينسى المجمع أو يهمل قناعاً واحداً من الأقنعة التي احتفلت بك، مزيداً من الكتابة.

دعانا البرفسور أنا والحدباء إلى محاضرة ليلية طويلة في الفلسفة الهندية ألقاها أستاذ شيخ... بعدها دخلنا مطعم الجامعة متأخرين. فلم أدخل شقتي، بعد انعطاف التكسي بالخبيرة إلى بيتها إلا في الواحدة تقريباً سمعت التلفون يرن رنيناً خافتاً تلاؤماً مع السكون المطبق. إنها زينغا:

- سمعتهم يتحدثون عن المحاضرة في الراديو... لم يبثوا منها إلا نتفاً ووعدوا بإذاعتها كاملة بعد غد، هل أعجبتك؟
- أسهب الشيخ في رحلته بين شوبنهاور والهنود. متى تعودين؟
- هل اشتقت إليّ!
- ليت وجهك قريب مني فانظر اليه!
- ألم تبهجك ليالي الأفريقية؟
- لن تطرق الحبشية جداراً إلا بعد إتمام الأطروحة.
- فاتممها، إذن، وتمتع برؤيتها!

- كم أنا راغب بالنظر إلى وجهك الآن!

- أتذكر لعبة الضوء والظل في تالن؟

- لعبة المرايا؟

- هي نفسها.. قرب المرآة من صورتي.

- دعي المزاح جانباً.

- لا تقلق لن يسمعنا أحد. قرب المرآة من الصورة.. وابتعد بالمرآة إلى المخدع. ضعها على السرير وأغلق من ورائك الباب بعد إطفاء الضوء. وأطفئ الأضواء كلها في الشقة وعد إلى التلفون. دع الخط مفتوحاً قبل أن نلعب لعبتنا الصغيرة.

وعدت إلى التلفون فسمعتها تقول:

- هل تم كل شيء كما قلت؟

- تماماً

- أوقد أي مصباح تريد.. وادخل المخدع.

فتحت الباب.. فإذا أنا في غرفتي الطلابية. كانت زينغا نائمة تحت الغطاء، وثوبها الأصفر على أحد الكراسي.. ثوب أول ليلة لي معها. وعلى المائدة المدورة قنينة جن فارغة. تمددت إلى جانبها متصوراً أنني لا أجد مكاناً آخر أنام فيه ما دمت في غرفتي القديمة.. تمددت في هدوء خوف أن أصحيها بحركة مني كنت مرهقاً فغفوت. وصحوت بعد ساعة وقد نبهتني قبلاتها وضحكتها وهي تقول:

- لا تطل انتظار امرأة تريدك.

قلت مقبلاً وجهها الطفولي الضاحك.

- نحن في غرفتي القديمة؟

- إنه حلم من أحلامك أو من أحلامي ألم يتفق مرة أن نحلم نحن الاثنين حلماً واحداً في اللحظة نفسها؟

- ألم تثقي بي بعد. الثقة التي يتطلبها الأمر؟

- طيب.. تصور اللقاء كما يحلو لك.. حلماً أو واقعاً.. أو بين بين!

- وفي الغرفة نفسها.

- فأجابت ضاحكةً، مازحةً كالجادة: ألم أقل إننا مجنحان؟ أتذكر أول ليلةِ عندما غفوت ثملة؟ رأفت بي وتركتني نائمة.. وصحوتُ قبلك فأيقظتك. ألديك ما يُشرب أيها الطالب؟

- القنينة فارغة.

- والثلاجة؟ هل أفرغتها هي أيضاً؟

- لا ثلاجة في الغرفة كما ترين!

- لم يغير الحلم إلا المخدع.

- ولماذا من فضلك؟

- تسلية لك وتذكيراً بلطفك معي وترفقك بي!

- ذهبنا معاً إلى المطبخ وفتحت لها الثلاجة طالباً منها أن تنتقي. فلم تختر إلا البيرة الفاوستية الباردة وعدنا بالعلب إلى الغرفة الطلابية تمشياً مع الحلم وإمعاناً في اللعبة. كانت الكتب مكدسة على مكتبي الطلابي وعلى الرف. وسرت إلى البهو فرأيتها مصفوفة بين الكتب الأُخرى. والصورة في إطارها، وحين عدت وتمعنت في الغرفة القديمة بدا لي النتوء بارزاً في

السقف.. كان الوطواط معي إذن، هناك وأنا طالب، مع أنني لم أره أيام ذاك ولم أرَ النتوء ظاهراً للعيان! وكنت في بيجامتي القديمة الطلابية والمنزل المقابل.. حيث تبدو مضاءة في خفوت، نافذة جارة عرفتها قديماً. كانت الأشجار في اخضرارها الربيعي المختلط بخضرة الصيف.. ففتحت الكوة للريح الربيعية الرخية الدافئة غير أن النوافذ الأُخرى، في البهو والمطبخ، ظلت متجلدة تتساقط خلفها الثلوج!

- من الأجمل منا.. أنا أم ظلي؟

فأجبتها متلمساً يدها الحارة.

- صرت عاجزاً عن التمييز بين الظل والفكرة.

- ألم أزرك منبثقة من المرآة؟ أين هي؟

- في موضعها على جدار الممر.

وأضفت محدقاً إلى عينيها الذهبيتين الملتمعتين برغبة بلها الندى.. وإلى وجهها الطفولي المصطبغ بالحمرة المشبوبة:

- تعنين أنك الآن ظل صورة؟

- ألم تجد الصورة في البهو؟

- إنها في إطارها.

- في إطارها عندما تكون أنت هناك.

- فلماذا لم تختفِ كما اختفت من قبل؟

- جيء بها إلى هنا تر الإطار خالياً.

- لماذا؟

- نحن هنا في مدار غير مدارها. إنها لعبة الضوء والظل. الضوء

لها والظل لنا.. لم تأخذ المرآة منها إلا ظلاً.. غير أنها تختفي هنا باختفاء زمانها.

- وهذه البيرة.. ألم أحضرها من المطبخ؟

- أنا أيضاً كنت معك في المطبخ. لم تشمل اللعبة غير الصورة. أما هذه الغرفة فقد استحضرتها تسلية لك كما ذكرت.

- فإذا أنت ظل، فمن التي اعتلت ريقي متأوهة قبل لحظات؟

فأجابت ضاحكة ممازحة:

- الحبشية.. إنها ظلي في الشمس.

- تقصدين اسمرارها؟

- كنت راغباً قديماً بالممثلة.. بالغجرية.. أتذكر؟ فحسدتها قبل أن يتقرر ويتعين التقائي بك. فجئت بها إليك.. بأهابها، بكل ذرة، بكل نواة، منها.. بصدرها الذي استهواك.. متقمصة إياها كما يقول السحرة الصغار.. متلبسة بجلدها الناعم الذي أغواك والذي ستهنأ به مراراً!

- وهل أحست هي.. الممثلة.. بشيء؟

- وتموجها؟ وآهاتها؟

- وهل تتذكر؟

- إنها تتذكر كل شيء من دورها.. إنها منا.. أتتك راضية، وذهبت مرضية، هي رغبتها. لن نرمي أحداً على أحد بغير رضاه. ألم تترك منظرها الحبشي هدية حب تذكرك بأجوائها الحارة وفراديسها الليلية بعد ديكور المسرح وكواليسه؟ أضف إلى هذا أنها من أبرع الممثلات!

- لماذا ظلت صامتة لا تتكلم؟

- إلا تريد أن ألاطفك أحياناً؟

- ما دامت منا.. ففيم غيابها عن حفلاتنا؟

- ثمة مخرج عجوز.. متقاعد الآن.. يحن إلى المسرح ويتذكره.

فيقيم الحفلات الخاصة بالممثلين. إن لهم وجوهاً معروفة لا نريد استعراضها بين غيرهم.

- فإذا ذهبت إلى المسرح.. وسألت عن الغجرية؟

- لن تزورك هذه المرة إلا من باب الشقة.. الأفضل أن تؤجل الدعوة حتى تنتهي من الأطروحة، وننتهي هي من التنقيح.

وأضافت مرحة، ناظرة إلى أشياء الغرفة:

- ستعود الظلال إلى صورها حالما تشعل الأضواء بعد إطفائها.

- لم لا تبقين؟

- ستصحو أمي وتفتقدني.

قلت مازحاً:

- ألم تقولي إنك ظل؟

- أنا؟ وبذراعي المطوقتين هاتين؟

وتبعتها إلى الممر قائلاً:

- تعالي غداً.

- كل شيء في حينه وموضعه.

وقبلتني مضيفة:

- أطفئ الأضواء وعد إلى غرفتك من فضلك.

- ومتى أشعل الضوء؟

- ما بك؟ بعد دخولي البهو بثوانٍ!

- لا تضربي حماري الصغير يا دنيا.

- أنا لم أضربه. بل حثثته على السير.

- سأقول لجدتي فتضربك.

- إنها جدتي أيضاً ولن تضربني.

- سأضربك أنا.

- لن أذهب معك إلى المرعى، إذن، ولن أقودك إلى عش البومة المهجور دع هذا الحمار الكسول يدلك، إذا أمكنه على عشها.

- الغولة؟

- البومة. أنا التي طردتها من عشها طيلة الليل وهي تجأر، وعيونها تلمع كنيران الساحر الزنجي الطويل التي يوقدها في الخرابة.

- لماذا طردتها؟

- أمي مريضة وهي توقظها بالصياح من نومها.. حملت البارحة عصا طويلة ودخلت البستان المظلم، بعد أن قرأت آية الكرسي. وهدتني إليها صيحتها واتقاد الجمر في عينيها، وبسملت وضربتها.. فطارت من وكرها كما أطارت النوم من عيون أمي.

- وأين هي الآن؟

- لماذا تسأل عنها؟

- أريد ان أراها؟؟

- ألا تريد أن ترى عشها؟

- نراها هي ثم نرى عشها.

- ستوقد عينيها المتأججتين وتسحرك.

- وهل سحرتك أنت؟

- إنها أنثى وتبيض فلا تسحر الصبايا، بل تسحر الصبيان:

- سآخذ خاتم جدتي أو مسبحتها.

- جدتنا لن تعطي مسبحتها أحداً. أما خاتمها.. فقد سمعتها تقول إنها لن تنزعه عن بنصرها إلا هدية تبعث بها مع الدرويش إلى الأميرة دنيا ذات اليدين النقيتين كطل الصباح... والوجه الناصع كفرحة العيد!

- وأين تسكن الأميرة دنيا؟

- في مخيم آخر.. وبعيد جداً.

- ألن يحملنا الحمار الصغير إليه؟

- الحمار الأبيض لا يعرف إلا طريق المرعى.

- وأنت.. أتعرفين؟

- هل تريد رؤية الأميرة؟

- وأريد رؤية البومة أيضاً.

- من يشاهد الأميرة لن يرى البومة.. ومن يشاهد البومة لن يرى الأميرة. للأميرة ضفائر ذهبية طويلة.. ترمي بها عليك فلن تقدر على الخروج من بين طياتها والتفافها حولك. وللبومة عينيها.. تسحرك بنارها وتأخذك إلى جنة البوم.

- وما هي جنة البوم؟

- لا أعرف. جدتي هي التي تعرف.

- ألن تجيئي معي إليهما؟

- لماذا أذهب إلى دنيا وأنا دنيا؟ ولن أذهب إلى البوم وقد طردتها بعيداً. لماذا لا تأتي معي إلى العش؟

- سأحمل عصا ومقصاً وأقود الحمار بنفسي!

- لن تخيف البوم عصاك. ولن يقص ضفائر الأميرة مقصك.

ولا يفيدك حمار صغير وكسول. قد يضل طريقه وأنت نائم فتاكله الضباع. فاسمع نصحي وتعال معي إلى العش.. فقد نرى بيوضاً!.

المساء غائم وبارد ما مقامي، كما يقول المتنبي، في الشقة، وقد فرغت من الترجمة قبل ساعتين واكتفيت من البيرة؟ دنيا وصاحبتها ذاهبتان بالأطفال إلى مسرح الدمى. الطالبة تنوء بأعباء الامتحانات تتلفن لي فأردها إلى الواجب مؤجلاً الموعد إلى العطلة. الفتاة لطيفة باتت هنا ليلتين متتاليتين، قبل يومين. لا بد من التغيير وتجديد الحوار والأوجه! لست ممثلا فأكرر الدور ليلة بعد ليلة. سأخرج إلى الشارع وأتمشى قبل أن أحدد اتجاهي. سأرتدي معطفي وقبعتي الجديدين، وأضع يدي في قفازين مبطنين بالفرو. وألف على عنقي منديلًا دافئاً. متوافقاً مع لون المعطف.. وأهبط إلى المدينة هبوط بايرون بعد إصداره اتشيلد هارولد. كان فتى متعقلاً قبل أن يورط نفسه بالزواج من الآنسة أنابيلا! ألم يقل مرة: أنا استطيع أن أؤكد أنني لم أغوِ امرأة في حياتي! واستطيع أنا أن أؤكد أن من أغوته هي زليخا

وأخواتها. العاقل من لا يتزوج! والأعقل منه لا يتزوج ولا يفرخ! انسلخ النهار وأبيض عظمه، وانحدر الليل انحدار امرأة أخذت زينتها إلى الشارع كما قلت أنا مرة! الذئب هسه، كما أظن هو الذي كان مات 1962 يبغض الصباح ويعشق الأمسيات. رومانتيكي مجلد بجلد هندوسي! الشوارع تعج، والمترو يعج ليل نهار بآلاف الصبايا والنساء. هل يجدن العدد الكافي من الرجال لإغوائه؟ أنا شخصياً لم أتقدم من امرأة قبل أن تتقدم هي مني أو تدعوني بنظرة طويلة أو ابتسامة عريضة! دنيا تتزلج و تتموج غداً أيضاً، أضم المرأة منهن بين ذراعي وكأنني أضم سراباً: لن تبدأ المسرحية إلا بعد ساعتين سأرشو البوابة فتدلني على الطريق.. لن أتحدث عن الحبشية بكلمة. سأقول للممثلة إنني صحفي وسأصر على خمس دقائق تمهيدية بعد إرخاء الستار الأخير. سأوقف التكسي عند أقرب مكمن من المسرح وأقودها إليه. الجدار للحبشية والباب للغجرية.. الشقة تتلألأ انتظاراً.

كانت خطة محكمة! لم تمل قدماي شبراً عما تحدد وتقرر اتفقت مع الممثلة ودخلت القاعة لأتفرج على المسرحية ينبغي أن تراني في الصف الأمامي لم أدفع للبوابة ثمناً للتذكرة وحماسها الصحفي وللباقة التي تركتها عندها إلا ربع ما قدرت! أسرعت في الفرصة الأخيرة آخذاً معطفي من المشجب قبل أن يقف المتفرجون صفوفاً تركته بين يدي البوابة حاملاً الباقة في كيسها ودخلت القاعة. انتهى التمثيل وصفق الناس وظهر الممثلون. فتقدمت بالباقة إلى الممثلة وخرجت الجمهور سيصفق طويلاً مرتدياً معطفي إلى التكسي الذي ينتظرني للنقود قماقم

وجنيات كما أقول! يقول الأستاذ روبك مخاطباً ايرين: ما كنت نموذجاً لأعمالي، بل كنت ينبوع فني الملهم! أو هو قول قريب من هذا.. فما الذي سأقوله للممثلة؟ لن أقول لها بالطبع: أنت اليد التي نقحت مخطوطتي! ولن أنقر على الحائط مازحاً، مذكراً.

أقبلت ايرين تتهادى في فروها الأشهب منعطفة إلى الزقاق الخلفي حيث يكمن التكسي أدخلتها السيارة وبيدها باقة ازهاري الليلكية! واندفع الفيل الحبشي قاطعاً الطرقات إلى المكتب السكني الهادئ حيث يتم التعارف مع قدح شمبانيا.. قبل طرح الأسئلة في اليوم التالي! ممثلة حقاً! دخلت الشقة وكأنها لم ترها من قبل! إلا أنها لم تنسَ فتنقر على الحائط نقرتين قائلة إنه مغطى بورق يريح العين ويسرها! برقية من زينغا:

لا اعتراض على برنامج السهرة الغجرية تم كما ينبغي له أن يتم، غير أنك أطلت السهر وكأننا لم نسهر معاً قبل ليالٍ! مخطوطة المسرحية هي الجوهر هي الفحوى والباقي ما يطلبه الممثلون. أتممها من فضلك، فإن لم تعجل لن أسمح بدخول الهودج من الباب أيضاً. اليزابيت أو ايرين، كما هو اسمها الآن، آتية غداً إلى المنعطف الخلفي نفسه. فلا تذهب قبل أن تخضر أوراق جديدة من الفصل الربيعي الأخير. أبقيت قبل أن أطفئ الضوء في البهو في مجلد بايرون دون جوان قصاصة. اقرأها إذا أحببت تقرر أن تبدأ الرحلة بعد اكتمال المخطوطة وتنقيحها.. فلا تتمهل!.

القصاصة: عندما تبعتك إلى المنزل الجماعي، وصعد بنا

المصعد، وأخذت تسألني أول مرة تحدثت فيها إليّ.. كنت آمل أن ترافقني وتطيل الحديث في الممر الطويل بين الغرف. غير أنك دخلت غرفتك. ظللت في الشقة الجانبية منتظرة طرقتك على بابها كنت أقرأ وانتظر طوال ساعتين تقريباً. في هذه الأثناء كانت في غرفتك فتاة من محل الخياطة المجاور. لا تنكر! أنت لم تذكرها في أول المخطوطة متناسياً شأنها وكانت علبة سجائري فارغة هي فرصة استفزه بها فقطعت الممر إلى باب غرفتك لأقرعه واسألك لفافة تبغ. كانت العاملة تتحدث عن مبلغ صغير من المال أقرضتها إياه من قبل. فاستهنت به رافضاً استعادته. كان واضحاً أنك زاهد بها أو أنها ستخرج بعد قليل. لم أطرق الباب مؤخرة رؤية الظفر على وجهك وعدت إلى الشقة.

بعد ساعة، في السابعة تقريباً، خرجت أنا ثانية إليك فوجدتك في مطبخ الممر.. نظرت إليك مبتسمة وعدت أدراجي إلى غرفتي فتبعتني. كان باب الشقة الجانبية موارباً فدفعته أنت ودخلت الفسحة المعتمة كان المصباح تالفاً ووقفت متحيراً: أي البابين تدق؟ في الشقة غرفتان أخيراً اخترت باب غرفتي فطرقته.. ودعوتني.

خرجت معك تاركة باب غرفتي مفتوحاً. وفي المنتصف من الممر إلى غرفتك أردت أن اعود فأقفل الباب. فلم تدعني أعود منفردة خائفاً عليّ من أن يسرقني قطاع طرق المنازل الجماعية كما زعمت فأمسكت بذراعي عائداً معي إلى الغرفة.. ولم تترك ذراعي قبل أن تدخلني غرفتك. ولحظة دخولنا الغرفة، وقبل أن ينطق أحدنا بحرف، أخرجت قنينة جن ووضعتها على المائدة المدورة. ثم جئت بالوجبة التي أعددتها في المطبخ.

وبعدئذٍ أخذنا نتحدث.

لم أتدلل ولم أتغنج، بل قلت صادقة إنني مسرورة بدعوتك إياي إلى غرفتك، طالبة منك إبقائي معك. ومنحتك شفتي حالما أردتهما دونما تمنع مفتعل كما تفعل الفتيات عادة في أول لقاء. ونضوت ثوبي بيدي غير منتظرة توسلاً أو إلحاحاً منك. صحيح أنني كنت نعسى وثملة.. إلا أنني كنت أتحرك بإرادة غير نعسى أو ثملة!

الغليون يتنفس باعثاً إليك أرق شذى يمكن أن يتفتح عنه قداح الحدائق الليلكية الليلة: أنا زهرة عباد عينيك فأقطفني! أنا أرجوحتك فأهززني ممتلئة بك! أنا خيمتك فانصبني في مهب رياحك الليلكية.. زعزعزني أتساقط ثمراً بين يديك! عما قريب تتزوبع بين يديك رقصتي الأخيرة مرتفعة بنا. ليلكية إلى المجرة السابعة بعد الألف. زر المخزن والمكتبة. مزيداً من الكتابة، أفريقيا في شقتك!.

أقول لنفسي وأنا أترجم مزيداً من البيرة الفاوستية!.

متذكراً كلمات غوته الأخيرة على مضجع احتضاره. مزيداً من النور! الطقس معتدل والكوة مفتوحة سأنتظر الممثلة في المكمن الزقاقي بعد الحادية عشرة من الليل. آخر أيام بايرون بدلة حمراء وحمى وهذيان في ميسولونجي.. آخر أيامي على الكرة الأرضية الصغرى ترجمة! البيرة تفتت السأم! والسأم أثقل من الصخر! الصحيح أنها تخدر! قبل أعوام كانت أستاذتي تقول: العشيقة الجيدة خير من الزوجة الرديئة.. فعلاً البيرة الجيدة أفضل من البيرة الرديئة! يقول غوته: التدخين يشتت أفكاري وكان الشيخ محقاً! كنت لا أدخن فأقبض على الفكرة

الطائرة.. على الصورة المعاندة.. وصرت أدخن من أجل أن أدخن فلا أطارد غير الدخان ترى امرأة جميلة فيخيل لك أنها الغاية العظمى.. إنها أول وآخر امرأة تريدها.. وتلتقي غيرها فتعوف الأولى ظاناً في الثانية فكرتك الجمالية القصوى! وترى الثالثة فإذا هي هيلين الاسبارطية ابنة زوس وليدا تخطو على رصيف المقهى! أما البيرة الجيدة فتظل هي البيرة الجيدة مهما تتباين المخازن وتختلف العلب والأقداح. العشيقة خير من الزوجة مهما يقل المتزوجون!

الزوجة غذاء تضوى به الصحة والجيب كما يقول المتنبي. ما أنا والبيض والفراخ وقوقأة الدجاجة!.

تقول الفتاة وقد عثرت عليَّ في المقهى الجانبي اليوم: أشتريت أجمل كسوة سباحة!

ومن المخزن إلى المسبح!

- كلا، إنها للرحلة، هل ترغب برؤيتها؟

- لا يجوز ظهورك بها في المقهى.

- كنت أريد إخراجها من الكيس.

- أفضل رؤيتها عليك ونحن نسبح في البحيرة الليلكية.

- وأين تقع هذه البحيرة؟

- إنها صغيرة. لا اسم لها. نحن ندعوها هكذا لكثرة الليلك على ضفافها. ماؤها أزرق هادئ مثل عينيك، ودافئ مثل جلدك الناعم!

- ما هو برنامجك الليلة؟

- نتعشى معاً في المطعم.. وقد تلحق بنا الخبيرة وإحدى البائعات.
- سأحتمل الآنسة الكئيبة من أجلك.
- إنها كوكب صباح السماء الليلكية!
- هي؟
- هكذا وصفتها زينغا.
- زينغا تسخر.
- لم أسمعها مرة ساخرة منها.
- وبعد المطعم؟
- لن نتأخر في المطعم، أحدهم يقيم حفلاً ليلكياً خاصاً بالعزاب.. توديعاً لعزوبيته المرحة.. كالحفل الذي أقامه أصحاب بايرون له قبل زواجه بيوم من الفضيلة الشاحبة.
- ما أولعك باللون الليلكي.
- هل أنت قادمة إلى هنا غداً؟
- يسرني لقاؤك في أي مكان كما تعلم.
- سأتلفن للبائعات فيحضرن كسوة أجمل من هذه لك.
- أنت لم ترها بعد!
- وهل رأيت الثانية حتى تتحزبي للأولى؟
- أنا لا أتحزب إلا للرحلة والبيرة!

البائعة أجمل من الفتاة، غير أن الممثلة أجمل من البائعة! الحدباء تنظر إلى ساعتها. إنها تترقب حضور أحد. إنها تنتظر الغولة ها هي تعلق على رقصة فرقة المطعم.. مقارنة بين وجه

إحدى راقصاتها ووجه ايزادورا دونكان، ذاكرة هامشياً.. اعتصار رودان العجينة ملء قبضتيه عند رؤيتها، مكوراً منها ما يشبه نهدي ازادورا الصبية آنذاك رودان النحات يذكرني بنحات آخر تنبعث عذراؤه من بين الموتى. إنها تذكرني بالموعد مع ايرين وقد لحت لها مائلاً إلى البائعة إنها تخطط! طمأنتها صامتاً ناظراً إلى ساعتي. عندئذٍ أوصت بشمبانيا مقرونة بتحية مني إلى مائدة في الجانب الآخر من المطعم. وسريعاً ما ردت الغولة بزجاجة شمبانيا مطوقة بورقة.

حملتها النادلة إلينا. انتزعت الخبيرة الرسالة وقدمتها لي قبل أن تقرأها.

نسائم حب الشعراء "حافظ مثلاً" تقودهم إلى الصحارى. أما أنا، ديوتيما المطاعم المرمرية، فقد قادتني نفحات حبي إلى أوراق فصلك الربيعي الأخير الجديدة المزهرة! تمتع، الليلة، يا فارساً ذا خاتم، بشميم الليلك الأفريقي.. الفكرة والظل معاً بين ذراعيك.. أنا الزبد والريح أنت!.

لم أعد أفهم: الغولة هي الممثلة؟ أم الممثلة هي الغولة؟ النادلة تطري تسريحة البائعة، والبائعة تمتدح المخزن.. فأسألها هل سرحوا لك شعرك في المخزن؟ فتقول ضاحكة: وهل المخزن صالون حلاقة؟ الغولة تتقدم طالبة الرقص، والفتاة تنظر اليها كما نظر، من قبلها، الطرواديون إلى الحصان الخشبي! الحدباء تقرأ كف الفتاة اكتشاف متأخر متنبئة لها بكسوة سباحة سابعة. فتقول الفتاة لي جادة تماماً: يتحتم عليك، إذن، أن تصحبني، كل صبيحة من أيام الأسبوع، إلى البحيرة الليلكية!

البائعة ترفع سبابتها منبهة إياها: عدا الصبائح المعلومة من الشهر القمري! متعهدو القطن يدخلون المطعم بحواجبهم البيض الكثيفة. بائعة الفرو تشيح بعينيها عنهم مستصغرة شأنهم: تعوزهم عكاكيز! بائعة الزهور تحمل باقة ليلك لي: مهداة من السيدة إلى مراقصها.. سأضعها بين يدي الممثلة حالما تجلس إلى جانبي في التكسي. أنا افرغ محفظتي فتمتلئ كالآبار! إنهم يدفعون.

قصاصة من الشاحبة: أنتظر نهاية الامتحانات كما ينتظر الصائمون هلال رمضان.. تحييني الصفراء تحية الصباح، في التلفون، ممازحة:

أضحكتنا نفرتيتي، اليوم، باثة أنباء السهرة كلها. كان نصف النشرة خاصاً بغادة الليلك. أنا أعني السيدة الكهلة التي أجهدتك رقصاً في المطعم.. الفرنسية كانت تتلقى باقات الكاميليا.. أما هي فقد أهدت فارسها حدائق من الليلك. مر عليّ في المخزن، وأنت في جولتك الغروبية. سأطعمك تفاحة طازجة! حال بيني وبين سهرة البارحة عيد طلاق آخر. لن يحول بيننا، الليلة، حتى حفل تتويج خُيَّل لي، البارحة، وأنا في بيت المطلقة، أنني أسمع فرقة المطعم وهي تعزف التانغو الليلكي.. لا تضحك.. سأحمل إليها، الليلة، بنفسي الشمبانيا مقلدة برسالة حب منك!.

إخوان الصفا يسمعون موسيقى الأفلاك! الليلة تجري الخيول وتقرع الطبول! الصورة تنظر اليّ وتبتسم وأنا أكتب. إنها راضية عني! أهو الرضا حول عينيها إليَّ أم أن، هناك، دافعاً آخر؟ ما لها تفتح شفتيها كالهامسة وترخي شفتها الممطوطة؟ ما

الذي تريد أن تقوله؟ لن يعجزها النطق والضحك ثمة خيط لا أتبينه في وضوح، أخيطُ مزاح أم سخرية؟ ولماذا تسخر والعربة المجنحة تجري ملء أعنتها؟ إنها تتذكر الليلة الأولى حرفاً حرفا.؟

ما الذي يرسم هذه الابتسامة الدافنشية على فمها؟ ثمة خيط حزن أيضاً! ما الذي يجري؟ بل هي تكاد تضحك! الطقس بارد جداً. طقس فودكا. وأنا أتجرع البيرة الباردة الطيبة في الشقة الدافئة! إنها تخرج من الإطار. تقبلني وتعود إلى البقعة المؤطرة. وكأنني لم أحتضنها، ولم أحتضن غيرها.. السراب! الصفراء آتية، الليلة، بنفرتيتي إلى المطعم: المائدة لأربعة وستلحق بنا كليوبترا بعد توديع انطونيو المحزن في المطار.. وتوديعي أنا.. متى يحتفل به؟ إلى متى أبقى متنقلاً بين المكتبة والمخزن، مخضراً كما يقول الشاعر الهندي الأمي كبير؟ أنا ومحفظتي اخضرار لا ينفد! معمدان بالندى الليلكي! سأمزح مع الصفراء قائلاً: غداً أحجز مائدة بثمانية مقاعد! الليلة تأتي نفرتيتي بتسريحة أُخرى كما أظن.

أقترب من الصورة هامساً:

- أتسخرين؟؟

- لا تسخر جارية من مولاها.

- قبل لحظة كدت تضحكين ضحكاً.

- فرحاً بخضرة الشجر!

- الصحائف الأخيرة التي كتبتها من الأطروحة؟

- أنا قلتها شعراً. كانت عنان الجارية شاعرة.

- وقرأت الأغاني أيضاً؟

- أتممته بعد ترجمتك صفحات لي منه.

- وأين قرأت، وصبرت على مجلداته كلها؟

- هنا حيث تكتب. كنت أقرأ طوال الليل، وأنت نائم.

- قبل الرحلة إلى تالن؟

- وبعد الرحلة إلى خيمة الجدة.

- ولم لم تركبي معي الأتان؟

ضحكت قائلة:

- أنا أركب عربات المجرة السابعة بعد الألف.

- لماذا السابعة بعد الألف؟

- لا عدد للمجرات. ولم تذكر في المخطوطة التي اكتشفها البروفيسور تحديداً.. بل تورية وتذكيراً بالحكايات الست المفقودة من ألف ليلة وليلة.

- وهل وجدتم هذه القصص الست الضائعة من الليالي؟

- أنا وجدتها!

- وأين وجدتها من فضلك؟

- في أقبية المكتبة.. ضمن مخطوطة بالية لم تطبع بعد. وحملتها إلى هنا. لم يكن من المقرر أن أعترف بهذا إلا الآن.

- هل يمكنني قراءتها قبل الرحلة؟

- قصصتها عليك وأنت نائم. وقد أعدت أنت كتابتها منثورة ضمن أطروحتك.. ومن السهل على القارئ المتأني العثور عليها، واستلالها من الأطروحة، وإضافتها إلى ألف ليلة

وليلة. أما القارئ الذي يملك وقتاً أقل.. فبإمكانه اعتبار كل فصلين فصلاً واحداً، فيحصل على الحكايات الست المفقودة، عبر ستة فصول مطولة نوعاً ما. هل استرحت الآن؟ وقد جعلت منا ظلالها المتحركة في غرفنا وطرقاتنا!

- سأفتح لك علبة بيرة باردة.

- عد إلى الكتابة، ولا تمزح.

ترتمي الملكات على موائدي ارتماء الفراشات كما يقول البروفيسور. يحلو لي تكرار كلماته. الصفراء تدعو والمحفظة تدفع! أدخل يدي جيبي وأخرجها منه ممتلئة بالنقود! ربما هي الغولة تجري الذهب، بين يدي، جريان البيرة في أقداحي.. وتكدس المال تكديس الصفحات المترجمة تقول الصفراء ضاحكة بينهن: صحيح أنني الجارية المحظوظة، إلا أنني لم أعد أنفرد بك إلا ليلة في الأسبوع! كلا يا فارساً ذا خاتم! إجعلها ليلتين، وسأعطيك تفاحتين في المخزن وتضيف مازحة، مترعة قدحي: لماذا لا تكتفي كليوبترا بالبرج، ونفرتيتي بمطعم البحيرة، وسميراميس بالسهم الذهب؟ فأسألها: من هي سميراميس؟ فتقول معابثة: ومن ينسى بائعة الأوشحة؟ وتأتلق عيناها بنيران المخيمات الليلية، السهوبية، وتضيف جادة كالمازحة: أفرشتي، الليلة، ريش نعام، وأغطيتي فراء! وتمر بائعة الزهور فلا يخترن إلا الليلك! وتبعث الغولة بالشمبانيا مطوقة برسائلها الليلكية. وينحدر الرصيف بنا إلى شقة الطابق الثالث، فينحنين للمانيكان انحناءة الجواري للملكة! وتضم زينغا شفتيها وتفتحهما بقبلة لي. ونواصل السير إلى الساحة،

فيطفن بالفارس المجنح، ويدرن حوله دورتين في شبه رقصة رعوية، ويعدن بي إلى الشقة، وعيناي تلتقطان برق الدروع الصفر يتلامع به زجاج الواجهات والنوافذ، وأنا أكاد أسمع وقع الحوافر يصدى به الشارع المقفر إلا منا.

دعتني جارتي إلى عيد ميلادها قبل الموعد بيومين. فطرقت بابها حاملاً باقة ورد وقنينتي خمر. كان حفلاً دافئاً مقتصراً على أفراد الأسرة و الخلص من أصحابها. لم أكن أنا واحداً منهم، إنما دُعيت باعتباري أقرب الجيران. غير أنهم استقبلوني استقبال واحد من الخلص. فبدا لي أنني كنت متباعداً عنهم طوال عامين تباعداً لا يقدم عليه إلا الجفاة المعقدون! وما أنا منهم! ما الذي يجعلني، أحياناً، أشيح بوجهي عن جاري، وأنا مار به في الشارع، فإذا حياني لا أرد تحيته إلا رداً موجزاً، قاطعاً، وكأنني قائل له: لا تقترب.. وإذا حييته مرغماً فبإشارة طائرة؟ ربما هي ملامحه التي تذكرني بوجه أستاذ علم الجمال. كنت على خلاف دائم معه. ولماذا أتعكز بعيداً؟ أنا شخصياً لا ارتاح إلا لمصافحة أيدي النسوة الموحية! كنت، مثلاً، أتحدث مع جارتي عن الطقس ونحن في المصعد! لم أمكث عندهم غير نصف ساعة. واعتذرت بموعد لا يمكن تأجيله. هي دنيا وقريبتها الطالبة. انتهت الامتحانات، ودنيا تريد مني أن أرفه عن الطالبة بسهرة في أحد مطاعمي.. أما هي فذاهبة بطفلتها إلى مسرح الدمى. وجدت الطالبة واقفة تتحدث مع المناوبة.. بفمها الأحمر ووجنتيها المشبوبتين تتوثب موجة صدرها توثباً تحت معطفها الأحمر، ويبدو قوامها الأفروديتي ملتفاً بلذائذه المسورة. لم تكن تعوزها الرفقة والمتغزلون كما هو واضح لي. يتحلق

الطلاب، عادة، حول هذا الجمال الجامعي بعد كل جرس! خيرتها بين المطاعم الساهرة مُعرضاً عن ذكر أسمائها، مبقياً لها الفرصة كاملة للاختيار. فاختارت الرمادي الغائم.

- لماذا هذا؟

- لم أدخله من قبل.

المائدة لأربعة كما تقول الصفراء، غير أن الكرسيين الآخرين ظلا محجوزين طوال ساعة. يقترب الناس منهما وترفض النادلة. وسألتها: لمن هما؟ فلم تجبني إلا بابتسامة وإيماءة، فهمت منهما أنها تحتفظ بهما لمن قد تعن له فكرة الحضور من زملائي الليليين! جاء من فاتني أن يحتفل، هو أيضاً، بانتهاء الامتحانات: جاء الأعجف الطويل داعياً الحدباء إلى قديح شمبانيا بلوري خفيف، تكاد تطير به فورة الرغوة الذهبية، كما قلت أنت، مرة، يا فارساً ذا خاتم! وكان يعرف الطالبة الممشوقة الممتلئة.. التقينا في حفل طلابي بهيج أقامه الطلبة لي، في مطعم الجامعة، بعد محاضرة قيل عنها، إنها ثورية في حينها وكنت أقول لنفسي: قد تخفق الفراشة أو يتوكأ الشيخ! إنها جولتهما الأخيرة كما يلوح لي ولم ترَ عيناي غير شيوخ القطن يمرحون حول المائدة المجاورة! أين هي الغولة؟ لم يبقَ إلا أن تبعث بالشمبانيا والليلك مزغردة ازدهاء بالعرس البايروني القرمزي! كان رداء الطالبة أحمر قانياً بلون معطفها، الملتف التفافاً على قوامها، الذي يقدم كل جزء منه روعته منفردة للأعين المأخوذة كما قال شتاينبيك. زفت الحدباء الطالبة الجورية زفافاً إليّ حالما صدحت موسيقى الرقصة الكارمينية،

بعد استراحة الفرقة العازفة القصيرة. وكانت الطالبة تتموج تموجاً بين ذراعي. أخيراً جاءت النادلة بالشمبانيا المطوقة: الغجر الليلكيون موسيقى بيانو في شرفات الملكة الغجر الدنيويون إيقاع طبل في مخيم! أطير إلى ثغرك على أجنحة الغجر الوردية كما يقول غوته وكنت أقول لنفسي: لماذا لم تكلل العروس بإكليلها الليلكي؟ ألا أنها لم تنظم بعد؟ أم هي أضحية اعتنموها من المخيم الآخر، يرمى معطفها الأحمر غداً إلى الشارع، فيضيع في زحمة المعاطف العابرة؟ جاءت الشمبانيا الثانية مطوقة باقتراح: انتهى الكدح. انتهى الكد الامتحاني. تدعوكم ديوتيما المطاعم المرمرية إلى قدح رومانسي أحمر في جناحها الشخصي.. ليس بعيداً.. في الطابق السابع من هذا الفندق الرمادي.. التكسي هو المصعد! انحنى رئيس البوابين ببدلته الحمراء فاتحاً لنا باب المصعد بنفسه إلى الطابق السابع، إلى الجناح المرمري. الحوائط مغطاة بمناظر من أوبرا كارمين والنبيذ المعتق، في قربه الغرناطية، يفوح برائحة العناقيد التي لم تقطف إلا البارحة كما يبدو. الحدباء ترقص كالنائمة على الحبال، والكمنجة تئن، بين يدي الأعجف، أنين الميلانخوليا في الحانات الدائخة بأنفاس المخمورين. وعلى الأريكة، في الركن المعتم إلا من ضوء شمعة ناحلة، تمنحني الطالبة فمها الأحمر، غامرة وجهي بشعرها المشوش المحلول. أصابعي تحل أزرار قميصها ممسكة برمانتيها، فتفح هامسة: إنهم يروننا وتضيف متقدة مرتعشة: ليس هنا.. فأين؟.. في شقتك.. لم أفق إلا في العاشرة.. قبل ساعة الغداء في المطعم المجاور بساعة. ولم تبرح الطالبة نائمة. أي قوة غريبة تدفع بي لأن أوقظها الآن..

فنحتسي أقداح الصباح والقهوة، وأمضي بها إلى المطعم في الحادية عشرة.. ساعة اقتراب دنيا من المطعم أو دخولها إياه؟ لماذا لا أتركها راقدة فتصحو من نومها متى يحين لها أن تصحو؟ لماذا هذه الرغبة الملحة بالجلوس بينها وبين دنيا إلى مائدة واحدة؟ سأقول لدنيا إننا انصرفنا من الرمادي الغائم متأخرين، وكانت قريبتها مرهقة تماماً، فلم أشأ إدخالها المنزل الطلابي مترنحة، ولم أرد إزعاجكم برنين الجرس.. ففرشت لها على أريكة البهو! ما الذي ستفعله دنيا غير أن تضحك؟ إلا أن الطالبة جميلة، وسيلتمع الشك في أعين الأخريات! لماذا لا تتعقل يا بايرون؟ شعرها لم يزل مشوشاً، وفمها أحمر. الغطاء يعلو وينخفض على صدرها كما يتحرك القارب الراسي إلى الشاطئ بحركة الأمواج، وبيجامتي التي ارتدتها هي، البارحة، ملقاة على المقعد الواطئ، الذي تقتعده الزائرة ساعة اختلائها للزينة أمام المرآة. إنها مسافرة إلى أهلها في الحادية عشرة من الليل! حقيبتها في المنزل الطلابي، ويمكنها الرجوع بها إلى الشقة في أي ساعة بعد المطعم.. وتمضية الوقت هنا حتى ساعة الذهاب إلى المحطة. أهدتها الغولة معطف فرو من المخزن، وثوباً رائعاً. أنا لم أسأل: من أسرع فعاد بالهدايا من المخزن وهو مقفل. إن للمخزن أبواباً أُخرى. الطالبة تتحرك. تنعطف ناحيتي بقوامها الدنيوي الحار.. ينبغي أن انعطف، أنا أيضاً، ناحيتها.

برقية من الطالبة: وصلتني الحوالة البريدية.. والتذكرة. أنا عائدة في طائرة الغد. لم أمضِ مع أهلي غير يومين. أي مللٍ هنا في بلدتنا الريفية قصاصة من الشاحبة: تكاد العطلة أن تنقضي

وتلفوني صامت.. وتلفونك لا يرد.. فأين أنت؟ لا أجرؤ أن أطرق بابك. وفي الأقبية ينصحونني بالمبادرة. أو يقولون معتذرين عنك: النهار للترجمة والليل للأطروحة! لماذا لا ترفع السماعة؟ أينبغي أن أرتدي الزي الأصفر، وأتعلم الرقص الآسيوي؟.

وعبر النافذة، في وضح النهار، يتسكع الرداء الأسود جيئة وذهاباً، في الممشى، بين الأشجار البيضاء، كما تتسكع الأرملة المرحة في انتظار عشاقها. السراب في القنينة والمرأة معاً. أين أسهر الليلة، ومع من؟ أنا حر. غير أن الغولة حرة هي أيضاً في تفضيلها أي مطعم أسهر فيه! يقول الذئب همسه: القبح والجمال، الظلمة والنور، الإثم والقداسة.. نقائض سريعاً ما تندمج إحداها بالثانية.. ولم يكن أرقى ما قيل فنياً وفكرياً وهو نادر جداً! لا تعبيراً عن هذه الثنائية.. غير أنني اعترض متذكراً دوستوييفسكي المهووس بالمزج بين الضدين أيضاً، فإذا كانت البيرة هي الظلمة مثلاً، والماء هو النور.. فما الذي ينتج عن مزجهما غير إضاعة المتعة والمال؟ غير عكازة لا تنفع أحداً؟ أنا أعرف جيداً مقاصد الذئب الهرم الإصلاحية التي هبطت عليه لحظة توبة مريبة. إنه يدعو إلى غربلة عقيدة الخطأ والصواب، فتصبح الغاية القصوى هي بلوغ الاستقامة والطاعة، وعندئذٍ ندرك، كما يزعم، أن التسعة والتسعين صالحاً أدنى درجة، في عين الخالق، من خاطئ واحد لحظة توبته! الذئب والحملان! لماذا ترتفع بالذئب توبته المتأخرة فيعلو فوق الخراف الوادعة؟ التلفون يدق.. لن أرد. عبثاً كنت أبحث في عيني دنيا عن طيف للطالبة. قلت لها، البارحة، ممازحاً: لماذا لا نحتفل بذكرى

عيد طلاقك السنوية؟ فضحكت قائلة: عندئذٍ ستعم الفضيحة المصنع والجيران! كم ستبدو رائعة في الرداء الأسود! قلما تظهر الألوان الأُخرى رونق الأوجه الناصعة مثلما يظهرها اللون الأسود! أعجب ما في السيرة الأدبية كلها أن جمالياً فذاً مثل دوستوييفسكي لم يذق الطعم الجمالي إلا مرة: سوسلوفا الصغرى المتقلبة. ما الذي كان سيفعله نيتشه في ما إذا أتيح له أن يلتقي بها مثلما التقى بالروسية الأخرى. أعني سالومي! كانت ابولينارا عدمية إذا قيست بلو المستقلة بنفسها رغم غرامياتها مع الظلالي البارد ريلكه، وانضمامها إلى الكهنوت الفرويدي! الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً.. سأفتح علبة بيرة أُخرى.. بيرة المانية!

خطاب غفل في صندوق البريد المثبت جنب باب الشقة:

لماذا ذكرتني؟ لماذا ناديتني، وأنا لم أعد إلا طيفاً؟ أنت لا تهوى مصافحة أيدي النسوة إلا حين تكون حارة. ويداي الآن باردتان. كم تاقتا طويلاً، عندما كنت حية، إلى يديك العليمتين باعتصار يدي امرأة! مر بي بعضهم.. لم يكونوا غير ظلال فاترة، وأوجه يملؤها النمش! في زمننا كنت ستضحك ساخراً من كاتب روائي يرتمي على إصبع قدمي البارز وحده من الغطاء، ارتماء كلب جائع على عظمة.. أو من فيلسوف فائق يجر عربتي بدلاً من فرسها! كذب الهندوسي المشبوه! ما من سبيل إلى المعانقة والاندماج. أنا هواء بارد وأنت ذراع دافئة!.

من المرسلة؟ بولينا أم لو؟ أم هما الاثنتان معاً؟

الرياح الهابة تذر الثلج في وجهي، دنيا تتأخر عن

صاحباتها منتظرة اقترابي منها لماذا يبدو لي أن لها في روب عملها، قوام الطالبة في روبي المنزلي؟ إن لهما التموج ذاته! ما لي أحن إلى الطالبة بعد ليلة مع دنيا؟ ماذا كان سيقول الشيخ سعدي الشيرازي، المتيم بحمرة الخدود، في احمرار وجنتيها واتقادهما بالصقيع، وهي تنتظرني على رصيف المترو؟

- ضع يديك في قفازيهما.

- أنت بلا معطف أو قبعة.

- أنا عذراء الثلوج.

قصاصة من الغولة: لا أحد غيرنا، الليلة، في مطعم البرج. الموائد كلها محجوزة لنا. الطالبة مدعوة أيضاً، ستجد البرج حديقة ليلكية! إننا نحتفل بعيد ميلاد كليوبترا هي التي اقترحت البرج، فأثنى الآخرون على اختيارها.

ننتظر برقية تهنئة من زينغا إلى المطعم ساعة التئام الشمل فيه. بعد البرج أنت حر في انتقاء المجموعة التي تروقك دعوتها إلى جناحي! وإلى شقة الطابق الثالث. لن يرفرف على الحمائم المختارة غير جناح الفارس ذي الخاتم كما تعلم! للبروفسور الكمنجة وللخبيرة ألعابها السحرية. أنا لي التحديقة إلى وجه الفارس محتفية بأعراسه احتفاء السومريين بأعراس دموزي!.

المناوبة تقول لي جادة مرتجفة إعجاباً:

- جاءت السيدة حاملة الرسالة بنفسها إلينا من عربتها التي لم تر الشوارع طرازها بعد! لم تشأ إرسالها مع السائق زيادة في إجلالها إياك!

وكنت أقول لنفسي: الصفراء والطالبة معاً في الجناح أو في

الشقة. فمن هو الثنائي الآخر؟ سيتم اختياره في حيته. ما الذي سأقوله لدنيا وأنا ذاهب لأتغدى معها في المطعم المجاور؟ هل أدعوها إلى البرج؟ الحمائم تتجمع في طريقي لاهية متواثبة. القطط تموء جائعة والفئران تتكاثر. الريح تحد أظافرها. للدببة فراؤها وللعصافير ريشها.

يقول البروفسور التقيته مصادفة أيضاً في المترو:

- حاول ألا تفوتك، الليلة، محاضرة الأستاذ الياباني هو كوسي عن الحبل السري بين الطقوس اليابانية الترفيهية والديانة البابلية.. بين فتاة جيشا وكاهنة عشتارية. أليس طريفاً؟ القداسة المقنعة بالخطيئة. سقراط بقناع حمار مثلاً. لن يسألك أحد عن تذكرة دخول إلى القاعة، إنهم يعرفونك.

- ألم يجدوا غير الليل الباخوسي وقتاً لمحاضراتهم؟ ألم يكفهم النهار الأبولوني منبراً ومراحاً؟ سأكون ممتناً لك إذا زودتني بتلخيص عن المحاضرة أو بنصها كاملاً.

- وهل يكتفي مثلك بقراءة المسرحية من دون تمثيلها؟

- وأين أجد الوقت؟ بعد الخامسة من الشقة أو المكتبة إلى المخزن. لا بد من جولة بين البائعات المرحات طرداً لجدية الترجمة والأقبية. ومن المخزن إلى المقهى الجانبي للترويح عن النفس التائهة في الطرقات بقدح بونش. ومن المقهى إلى المطعم. أين هو الوقت يا فارساً ذا عمامة؟

- الفتيات يطرن إلى الفندق الرمادي في التاسعة، وأنا ضامن وصولك إلى المائدة قبل الآسيوية نفسها. وساعتذر أنا في التلفون عن مرورك الغروبي المحزن. المحاضرة تبدأ في

السادسة، وأمامنا الآن ساعة سنسلخ، كما يقول الكتبة، نصفها في المقهى، ومن المقهى إلى المحاضرة كما تقول أنت.

- هل تحضر الآنسة الخبيرة القاعة؟
- في الصف الأول.
- وديوتيما المطاعم المرمرية؟
- في المقصورة.. تحيط بها حاشيتها.
- كيف هو انطباعها عن سهرة البرج الأخيرة؟
- أحزنها قليلاً أنك لم تختر الفتاة تويجاً سابعاً لزهرة الجناح السداسية التي التفت من حولك بعد الدورة الثالثة.
- وهل كانت الفتاة حاضرة؟
- لم يزحزحها أحد عن التصاقها بك في المطعم.
- فاتتني ملاحظتها.
- لا تأسف. في المرة القادمة سنجعل منها تويجاً ثامناً.
- ما رأيك بساعة في المطعم.. بعد المحاضرة؟
- سأقسمها على اثنين.
- النصف الباحث مع الخبيرة، والنصف الضائع مع ديموتيما!
- لا تفوتك ملاحظة!
- فكيف فاتتني ملاحظة الفتاة؟
- إنها الفراغ الذي تدور فيه الألكترونات.

منذ يومين وأنا أؤجل الذهاب بدنيا للتفرج على دائرة

الطباشير القفقاسية.. سأمنح بائعة التذاكر الحلوة رشوة صغيرة فتقطع لي تذكرتين أماميتين قبل هبوطنا إلى المترو. سأحتسي بونشاً آخر بدلاً عن القهوة التي ينصح بها البروفسور قبل المحاضرة عادة. لا بد من إجراء تغيير أفاجئ به الصفراء الليلة. ستشع عيناها الآسيويتان ظفراً! لن يدخل الليلة شقتها غيرنا نحن الاثنين، للمرة الثانية تبتسم لي هذه المرأة المتأودة وهي تتجه للمرايا. لا وقت. الليلة للمحاضرة والصفراء، وغداً للمسرح ودنيا ها هي إلى المرآة آتية إلى المقهى. البروفسور ينظر إلى ساعته متوسلاً إليّ بصمت ألا تقعدني امرأة عابرة عن المحاضرة الأعماقية، ما الذي يغريني بها؟ هل هو التغيير والتنويع؟ أليست الوحدة هي جوهر التنوع كما يقولون؟.

أضحكني المحاضر الياباني وهو يجري المقارنة، بعد إيغاله الطويل في تلمس الجذور المتشعبة بين الطقسين البابلي والياباني، بين الاثنين معاً وطقوسنا الصفراوية في شقة الطابق الثالث المعبد الأصفر كما يدعوها. فما البائعة، في تصوره، إلا فتاة جيشا أُخرى، أو هي ربة بيت بابلية منذورة تتسلل خفية عن الأعين إلى المعبد، حيث تهب نذرها على المضجع العشتاري المقدس. وأما العربة البنفسجية فلم تهبط بعشتار الأبدية إلا بحثاً عن تموزها ذي الخاتم المنقوش بحرفين... وهنا حملت إحدى البائعات إليّ من المقصورة قبلة الغولة مرسومة على منديل ورقي بفمها النضاح حمرة!

انحدر الموكب بنا بعدئذٍ إلى المطعم الرمادي، حيث تنتظرنا مائدتان تحت الثريات الذهبية: مائدة دبوتيما والحاشية.. ومائدتنا وطوال ساعة ظل البرفسور متنقلاً بين النصفين.

وكنت أقول لنفسي: النسيان رحيل المعرفة كما تقول ديوتيما معلمة سقراط في مأدبة أفلاطون. الشبيهة بمأدبتنا هذه. وأي فرق! وما دمت متذكراً الوعد الذي قطعته على نفسي، كما يقول الكتبة، فلا بد من أن أهمس به الآن، قبل أن يرحل، في أذن واهبة التفاح وقلت هامساً:

- لا أحد، الليلة، في الشقة غيرنا نحن الاثنين.

- ابتهجت الصفراء، قائلة بصوت عالٍ:

- هل سمعتن؟ الشقة، هذه الليلة، لاثنين.

وقبلتني قبلتها الطويلة الحارة. لم يكن الاقتراح مرضياً. ها هي الحدباء تشرح النظرية الديوتيمية قارئةً أفكاري:

- مثلما التنوع هو السبيل إلى الجوهر الفرد، مثلما الكثرة هي الطريق المجرب إلى الفرد الجوهري، ينبغي التعدد في الحب، والتدرج به صعوداً على سلمه الطويل إلى الكوة الليلكية الزاهرة مثل كوكب الصباح، اعتباراً من الدرجة الجسدية من السلم، إلى الدرجة الروحية أعني العملية، فإلى الدرجة المعرفية أي العلمية، وصولاً إلى الجمال الليلكي المطلق أعني الجميل في ذاته حيث تتألق العينان الذهبيتان. عينا زينغا!

ابتسمت الصفراء آسفة قائلة في استسلام:

- الفكرة الجمالية المطلقة غائبة حاضرة. اخترن انتن الدرجتين الأوليين، والمعرفية هي أنا. فإذا اختلفت الآراء أقمن الاقتراع! قلت ضاحكاً متهرباً!

- لا بد من تغيير السلم برمته لليلة واحدة.

ضحكت الحدباء ضحكتها المتكتمة:

- كلما طال تمثيل العمل المسرحي ثبتت جودته.

إنها تعني تغييراً آخر غير أن الحيلة الآسيوية كنز لا يفنى كما يُقال. أمسكت الصفراء بيدي رافعة بيدها الأُخرى نخباً:

- في صحة القارئة الشاحبة.

كانت الشاحبة لائذة بكنف الخبيرة، حائرة النظرة بين وجهي الغافل عنها والصفراء المتصدرة. لم أعد ألاحظ من الوجوه العديدة المحيطة بي إلا وجهاً أو وجهين.. عدا الصفراء التي تذكرني بها، طيلة السهرة، يدها الغضة الحارة! وكنت أسمعها تحث الشاحبة قائلة:

- مري غداً عليّ في المخزن بعد خروجك من الجامعة. عندي لك أنجع عقار آسيوي يعيد إلى خديك لونهما الجلناري إذا كان لهما ويطرد الصداع عن رأسك إلى غير ما رجعة. ستقرأين بعده ثلاثة كتب من رفوف الأقبية بدلاً من كتاب واحد في اليوم!

وأضافت جادة تماماً:

- أنا أعرف هذا الصداع الرومانتيكي.. لا ينفع معه غير العقار الذي استخرجته أمي نفسها من زهرة لسان المهر الجامح، لا تمسكي رأسك بيديك، ستبعثرين خصلاتك الشقر. خذي هذه الحية. ستفيدك مؤقتاً، بعد السهرة سأوصلك بنفسي اتفقنا؟ ابتسمي الآن ابتسامك الآسرة!

آثرنا المريضة و الممرضة بالمركبة، واتجهنا نحن ناحية الساحة حيث ينتصب الفارس المجنح ممتلئ الرأس بأفكاره

التحليقية الغابرة! انحنت الأعناق أمام المانيكان المترفعة، ورتلت الغولة تحيتها ترتيلاً:

- انتصف الليل مزدحماً بكواكبه... وبعيداً، فوق رؤوس الجبال العالية، مكتئبةً قليلاً بتأملاتها وأشواقها.. تبزغ النجمة المدهشة.. ساطعةً، غريبةً عن البشر الفانين.. رائعة غير مبالية بنا!

والتفتت إليّ هامسة:

- كما يقول هلدرلين!

وجدت الصفراء بين المناوبتين تحتسي الشاي لاهية معهما بلعبة الأحمق الورقية. وكانت اللعبة في منتصفها كما حلا لها أن تقدر!

- اصعدي، إذن، بعد أن تتم.

- هو ما سأفعله تماماً.

وحين فتحت لها الباب كانت تتحدث إلى جارتي العائدة من السينما كما عرفت من المحاورة الدائرة امرأة لا تُجارى كما يقال في الكتب. غلبت المناوبتين كما هو واضح من نظرتها الظافرة، وها هي الجارة مغلوبة على أمرها كما يُقال، مأسورة بحديثها الممتع لا تريد أن تخطو إلى بابها.. تبتسم لي معجبة بها، حامدة ترويضي جموحها الآسيوي! بعد انصراف الجارة أخيراً سمعتها تتذمر آخذة معطفي:

- لماذا لم تدعها إلى الدخول؟

- ولماذا لم تدعيها أنت؟

- سأدعوها.

وهمت بفتح الباب فأوقفتها ضاحكاً:

- ما بك؟

- ألم ترَ اهتمامها بك ورغبتها بالدخول.

- لم تتوقف المرأة إلا شغفاً بحديثك.

- كانت ستنام معك هذه الليلة.

- هل جننت؟

- دعني أدعها وسترى.

- كلا، حتى إذا دعوتها.. ستعتذر عن المجيء في هذه الساعة المتأخرة.

وإذا جاءت إكراماً لك فلن تلبث غير خمس دقائق وتخرج.

- وهل سأطرق بابها من أجل خمس دقائق؟

- فما الذي تأملينه منها؟

- هي التي كانت تأمل دعوة منك.

- ربما للإصغاء قليلاً إليك.

- بل للإصغاء إليك وارتشاف كأسين. وتقبيلك إياها وتمتعك بطراوتها. أنا ذاهبة إليها فلا تمنعني أتدري؟ إن احتضان المرأة رجل امرأة أُخرى لحظة احتضان الأُخرى إياه رغبةٌ لم تزل تدغدغ امرأة مثل جارتك المفتونة وتثيرها.

- لا تتعبي نفسك سينتظر بعلها عودتها.

- بعلها مسافر منذ أسبوع.. ألم يدر غيابه في ذهنك؟

- ما دمت مصرة.. سأدعوها مرة.

- بل الليلة!

- إلى قدح ترتشفه معنا.

- سأهيء المائدة أولاً.

- سأهيئها أنا. إذهبي قبل أن تنام المرأة.

- ها قد أغريتك بها!

وجاءت الجارة كالمعتذرة:

- ليس هو وقت زيارة بالطبع.. غير أن دعوة مثل هذه لا تُرد.. ومن جار لم يسمع تحيته أحد من الجيران غيري.. وغير المناوبتين.

وأضافت جالسة إلى المائدة:

- تقول جارتنا الأُخرى: نحن لم نأخذ على جارنا الشاب إلا عزلته عنا وانغلاقه. فأقول: أنت مخطئة. إن له نفساً منفتحة كأبواب النهار!

على المائدة قنينة نبيذ كبرى كدن! بعد نخبين أو ثلاثة من يتذكر؟ أوقفت الصفراء إلى جانبها قنينة من قناني الأشربة القوية: إنها ليلة باردة! وأضافت مستبشرة، وضيئة الملامح:

- أتدري؟ جارتنا مجازة غداً مثلي.

- وأنت مجازة أيضاً؟

- ألم تسمع كليوباترا وهي توصي نفرتيتي باستدعاء أختها غداً إلى المخزن لتحل محلي؟ أختها تتمتع بإجازة أسبوع.

فتساءلت الجارة، وقد أراحتها نظرتي الراغبة إلى اسمرار

شفتها السفلى الممتلئة، مبتسمة لا أدري لم.. لنظرتي أم للأسماء الملكية تتساقط على المائدة تساقط التفاح من أشجار حديقة أهل زينغا:

- ما أكثر الملكات في مخزنكم!
- نحن لا نوظف إلا ملكة.. أو أميرة في الأقل.
- فما اسمك أنت من فضلك؟

قلت أنا متبرعاً:

- اسمها سي شي.
- ومن هي سي شي؟
- أجمل ملكة حكمت القارة الصينية!

ضحكت الصفراء متذكرة أن هذه الملكة لم تكن إلا جارية! كانت الكوة منغلقة بإحكام وكنت أدخن. فأفرجت عنها، ها أنا واقف عند النافذة والجارة تقول:

- وأنا صريحة مثلك يا سي شي. منذ أول يوم وأنا أود التعرف بجارنا الشاب، أعدنا إليه مرة طاولة ومقعدين بعد ليلة عيد. فلمحت هذه الرفوف المحملة بالكتب وأحسست أنني في مكتبة فيلسوف! وكلما رجعت إليه أو سألته علبة ثقاب أو عدداً زائداً من الصحون للضيوف وددت أن أخطو الخطوة التالية فأدخل البهو وأرى المجلدات.. أنه يرتدي معاطف رائعة ويتجول منفرداً في الممشى بين أشجار الحديقة. كنت مرة جالسة على المصطبة، وكنت أعرف أنه عائد بعد قليل من المطعم المجاور، وأنه سيتمشى بين الأشجار الخريفية.. فأخذت أسير متمهلة في الممشى نفسه، إلا أنه لم يلحق بي.

انعطف إلى المدخل مهملاً جولته.. ومرة كنت خارجة من السينما وكان هو خارجاً أيضاً.. سائراً خلفي، فأبطأت منتظرة رفقة منه، في الطريق الليلي الهادئ إلى المنزل ونحن جاران غير أنه جاوزني بخطاه غير ناسٍ أن يحييني تحية لطيفة. هو عند الآخرين جاري.. أو جاري الأجنبي، أحياناً يضيق ذرعاً بصحبة الفتيات فلا يتنزه في البولفار أو يدخل السينما إلا منفرداً. المناوبتان تحبانه حباً جماً، والسيدات الجميلات يرتحن إلى صحبته. هذه الخمرة قوية جداً. إنما هي ليلة باردة كما قلت. ما أبدع هذه الصورة المعلقة؟ أتعرفين صاحبة الصورة؟ أجل.. رأيتها مراراً آتيةً إليه أو خارجة معه. ها هو جاري يعود... بعد أن دخن لفافته قرب النافذة. ولماذا هناك؟ يمكنك أن تدخن هنا.

- هل رأيت سي شي مرة في المخزن؟

- بلى.. رأيتها.

- إنها أعمق الخبراء خبرة بجودة الفرو والصوف!

- هذا واضح.

- الأفضل أن تشربي نبيذاً.. هذه الأشربة القوية مؤثرة جداً. أنا وسي شي نحتملها. دعي هذه الكأس جانباً. سأشربها أنا. وعودي أنت إلى قدح نبيذك. إنه أخف كثيراً.. لن يمس النفس إلا مس نسمة اجتازت معاصر الكرم منذ لحظة. إنه روح السهرة، بسيخيا السهرة كما ينبغي أن أقول. أنا مبتهج جداً بزيارتك!

وهنا قالت الصفراء مازحة:

- البسيخيا لك أنت. إنها فراشة النفس المجنحة في مملكة الظلال. فدعها طائفة من حولك. ودع لنا هذه الأشربة القوية.. ولا تقربها ما دمت مفتتناً أو مولعاً بطيف نشوة!

- يبدو لي أن هذه الخمرة الحادة لا تروق لجارتي. إنها لم تعتدها مثلما اعتدناها نحن. فلماذا ترهق نفسها بها؟

- فعلاً أنا لم أرد إلا تذوقها، النبيذ أجمل بي!

- ألا يذكرك بنزهة في بستان؟

- وبنزهة بين رباعيات الخيام.

- لدي نسخة فاخرة مصورة.. تضم أروع ترجمة وأقدمها للرباعيات إنها نسخة زائدة. لا تتحرجي. إنها لك. سأضعها الآن بين يديك.

- أهي زائدة حقاً؟

- كما قلت لك.

كان القدح البلوري مترعاً بخمرة الخيام العنبية قرب رباعياته المصورة وهي تتصفحها برفق. ناظرة إلي نظرةً من هذه النظرات التي تنقل النديم إلى الجنة الخيامية المزهرة بكواكب الغيد المتمايلات نشوة. ورأيتها تدير طرفها. أيضاً بين الصورة المزهرة ووجه الصفراء الرائعة المتورد وبين الصور الإيضاحية التي تزين الكتاب بألوانها ووجوهها. فقلت دونما حرج:

- انظري أيضاً إلى وجهك في المرآة. إنه جميل جداً كوجه هذه المرأة الشابة.. وكوجه هذه الصورة التي ترينها على الحائط.

وسكتُ مصغياً إلى اصطفاق الرياح. كانت الزوبعة الثلجية

تقهقه عبر النافذة قهقهة لم أسمع مثلها من قبل، والتلفون يدق وأنا لا أرد.. والمرأتان تنظران إليّ. أخيراً قالت الصفراء.

- ألا تريد أن تجيب؟

- أجيبي عني يا ملكة الصين!

أسرعت إلى التلفون ترفع سماعته وتقول:

- إنها السيدة ديوتيما.

سمعت الغولة تضحك عالياً قائلة لي:

- طار الفندق الرمادي.

- أعيديه إلى مجثمهِ.

- لا يمكنني أن أعيد إلا جناحي الشخصي.

- اتصلي بزينغا.

- اتصلت بها. إنها تضحك وتقول: لن يعيده إلى الأرض إلا الفارس ذو الخاتم بإشارة صغيرة من يده. المركبة تنتظرك عند المدخل إلى البيت فدع الثنائي للحظة وتعال.. قبل أن يتجاوز الفندق المدى. ويدور بنا حول الشمس!

عدت إلى المرأتين ضاحكاً:

- هل لكما بالتفرج على فندق طائر؟

قالت الجارة وقد اعتبرتها مزحة سكر:

- كل شيء جائز في هذه الزوبعة.

- فتعالا، إذن، معي.

- أنتما تريدان أن تتنزها سويعة تحت أجنحة العاصفة. وأنا أخشى أن تطير بي.. وقد خف وزني بحلول روح السهرة

المجنحة فيه. أما أنتما فمحصنتان بالأشربة القوية. ساقرأ بضع رباعيات ريثما تعودان.

فمازحتها الصفراء وهي ترتدي معطفها:

- وقد يخرج الشاعر من إحدى صوره فيحاورك!

فعلاً كان الفندق طائراً عالياً فوق أرضيته الخالية.. لا نرى منه إلا أضواء بعض نوافذه المعتكرة بين اللجج الثلجية المتلاطمة كما يقول المتنبي! قالت الصفراء بعد أن ضحكت وطاب مزاجها:

- أعده إلى مكانه كما أرادت الملكة.

- ما أروعه منظراً!

- لا تبقه طائراً طويلاً.. ربما أغمي على بعضهم.

- ستقول الصحافة غداً ما تقول.

- هل ترى أحداً غيرنا هنا؟

- لا أحد. وهذا ما يدهشني. لم ينم النزلاء جميعاً بعد. ولا بد من أنهم قد تلفنوا مستنجدين كما تلفنت السيدة.

- لن يصدقوهم. سيقولون إنها تلفونات سكارى. ثم من يرى شيئاً واضحاً في هذه الزوبعة؟ كل شيء مختلط ببعضه والرؤية متضببة تماماً. أشر بيدك وانزله قبل أن تبتعد بمزاحها بعداً لا يحمد!

- لماذا رفعته عالياً في رأيك؟

- إضحاكاً لنا و تصعيداً لزفة العروس.

- ما زلت جادة بخصوص الجارة؟

- إنها تنتظر، أرجع البناية ودعنا نعد.

أشرت بيدي ملوحاً فهبط الفندق إلى مربعه الفارغ في هدوء تام. ولم يكن يسمع غير قهقهة الرياح وإعوائها.. وتصفيق الصفراء بيديها العاريتين من قفازهما تحية للفندق الهابط كما يصفق الجمهور المنتظر في المطار بعد تحليق الطائرة طويلاً فوق المدينة، وقد خيل له أنها قد لا تحط، وهبوطها على الأرض.

فتحت الجارة الباب قائلة:

- أتعلمان؟ اخذتني سنة من النوم بعد خروجكما.. ودخل الخيام كما دخلتما الآن. وعلق عباءته على المشجب. ها هنا. وصببت له فلم يكمل قدحه. قال إنه مرتوٍ تماماً بعد سهرة في مطعم الصفصافة. ونصحني بخمرته وشوائه. كان جالساً هنا حيث كنت تجلس.

وسألتني مسرورة بحلمها:

- هل تعرف أين يقع هذا المطعم؟ أنا لم أدخله من قبل.

فأجابتها الصفراء وهي تملأ الكؤوس:

- إنه في المركز.. عبر الشارع العتيق.

قلت قارعاً كأسي بكأسيهما:

- وأنا أدعوكما غداً إليه.

قالت الصفراء جادة تماماً:

- إنه هادئ. وأنا لا أحبذ المطاعم الهادئة. وإن غداً لناظره بعيد:

لماذا التأجيل؟ كل شيء في الثلاجة والمطبخ. وفي الشقة امرأتان لا واحدة. ونحن ساهرون حتى مطلع الليلة القادمة!

قصاصة من دنيا:

اتصلت بك نهاراً. كانت سماعة التلفون مرفوعة، واضح أنك كنت مرهقاً بعد السهر والترجمة، وأردت أن تغفو ساعة قبل حلول المساء فرفعت السماعة. نحن نعد عشاء طيباً. ستحضر صاحبتي وزوجها.. قبل الثامنة. لا تنسَ نحن ننتظرك. ولا تتأخر بعد الثامنة.. كما آمل المناوبة تحييك وتدعوني إلى قدح شاي. اقرأ قصاصتي مرة ثانية كيلا تنسى!.

حملت قنينتي نبيذ وزجاجة جن أيضاً من يدري؟ قد نحتاجها وقبيل أن أقطع الممشى المنسبط بين أشجار البولفار رأيت دنيا مقبلة.

- هل حضرا؟

- إنهما في الطريق إلينا.

- فإلي أين أنت؟

فابتسمت مجيبة:

- لا إلى أين، واضح أنك لم تنسَ. أحضرت نفسكَ والقنينة!

- وهل أنت قادمة من أجل نبيذ؟

- كنت أخشى أن تتأخر.

فجأة ظهر الشيخ بعكازه مجتازاً الممشى إنه هو. حاجباه أبيضان وعكازه أبيض، بيد أنه لم يتوقف ولم يقترب منا. أي

قوة تمسك بي وتمنعني من اللحاق به؟ ربما هو شيخ آخر من شيوخ القطن مثلاً...

- ما الذي تنتظر؟

ألم يكن من العرف أن يحيينا تحية قصيرة فاتبعه وأسأله؟

كم من أسئلة صعبة لدي. وعليه ان يجيب عنها! مر مرور الغرباء وعيناه إلى الحمائم البيض، وقد فر بعضها إلى الجانب الآخر من البولفار. ربما لم يكن إلا رؤيا!.

- هلم بنا إلى البيت.

- ما أخفها طيوراً!

- لا تصاد ولا تحبس. إنها ترتع آمنة بين أرجل السائرين.

- ومن يصيد بياضاً تكاد ترتد اليدان عن ملامسته!

- في أمكنة أُخرى تُقدّم وجبة طيبة.

طار الرمادي الغائم، وغداً تطير المكتبة ويرفرف المخزن، ماذا سأقول للضيف وماذا سأسمع منه؟ حمداً لله أن زوجته مهذارة! سيطول حديثها عن المصنع ولوازمه. وعن فلانة المتمايلة غنجاً بين أجنحة المصنع كالغانية بين موائد الملهى. فإذا طاب لها أن تدير الدفة فإلى المعرض الصناعي. لماذا كان ثوب زينغا الأول أصفر ولم تكن سكرتيرة في المخزن آنذاك؟ ساقا دنيا رائعتان حقاً! لماذا لا أتزوجها إنها تنتظر الصيف موسماً لزواجنا وتفريخنا. أوقفتها جارتها لاغية وهي مصغية في انتباه! ها هما الضيفان آتيان.

قبل أن تنزع معطفها وهي تهذر.. إنها تنظر إلى ربطة عنقي

كما ينظر عشاق فن النهضة إلى لوحات فان كوخ. مرة شكتني إلى دنيا قائلة: لماذا لا يرتدي كما يرتدي الناس؟ حتى في المطعم المجاور يبدو وكأنه ذاهب إلى المسرح! هنا: الأيقونة الهادئة.. وهناك الصورة التي تغمز وتضحك. الريح غير مؤاتية لي وأنا أرمي بزوارقي الورقية إلى الماء الراكد. الزوج مصغٍ إلى زوجته بأجفان لا تطرف. وأنا منتبه إليها بأذان لا تسمع. الطالبة تتلفن ماذا تريد؟ دنيا كالغيرى تتقرب بوجهها من وجهي مبيحة للأعين شغفها بي!.

أخيراً طرقت الحدباء باب الشقة! طرقت مرغمة في ما أظن الأعجف الطويل عن يمينها والغولة عن شمالها.. والصفراء تقرع الطبل مزغردة، هل تسمع الجارة طبلها؟ وقد انتصف الليل منذ ساعتين. قلت صائحاً:

- كل شيء إلا هذا.

قالوا ضاحكين مترنمين.

- إنها المتجردة.. زوجة النعمان ونزوة النابغة.

- إنها كلوتيلد دي فو.. معشوقة كونت.

إنها سارة برنار.

ارفع النقاب عن وجهها يا فارساً ذا خاتم وقدها إلى حيث ينبغي أن تُقاد.

قلت ضاحكاً مترنماً أيضاً.

- إنها عصا الأعرج ومكنسة الطاهية.

إنها عرناس ذرة محترق.

وأضفت وقد التفوا من حولي دافعين الخبيرة بأكتافهم نحوي، وهي تضحك ضحكتها المختنقة حالة عرى معطفها الأسود بتهور:

- انتظروا.. انتظروا.

- وماذا تنتظر يا فارساً ذا خاتم؟ إنها جلوتها. لا بدَّ من اجتيازها الطقس العشتاري. إنها منذورة. فاخلُ بها كما خلوت بالأخريات من قبلها. ألق نظرة من النافذة تر الطريق حافلاً بالخيول والطبول!

- لقد ضل الفرسان الصفر سبيلهم هذه المرة.

- كيف؟

- المقود بيدي الآن، والحكمة الزرادشتية تتسول كسرة من فمي بشفاهها المتدلية كالثريات كما يقول مايكوفسكي!

أبطرتكم الشمبانيا وألهاكم رنين الأقداح: أعيدوا العروس إلى المركبة الديوتيمية.. وانطلقوا بها إلى عريسها.

- من هو العريس إن لم يكن أنت؟

- إنه الفارس المجنح!

هنا انبرت العروس محتجة:

- لن أتقدم خطوة إلى الوراء ما لم تتقدم الملكة بعلامة!

فأشرت ملهماً إلى الصورة.. فتقدمت الملكة أسرعَ من لمحة البصر كما يقول العقاد.. متحررة من إطارها في ثوبها الأصفر وقبعتها الخضراء وانحنت لي كما تنحني السيدة اليابانية

المؤدبة.. فانحنى الموكب كله لها. وصاحت بهم قبل أن تعود إلى إطارها في مثل غمضة عين.

- يا همجاً تعتعتهم البيرة الفنلندية الكاسدة.. يا جرذاناً اقتادها طبل إلى جبل.. أجمع المجمع الليلكي قبل ثوان على تتويج زوجي الفارس ذي الخاتم ملكاً على المجرة السابعة بعد الألف.. فاسمعوا وأطيعوا.

تحركت المركبة بنا. ومن خلفنا الخيول، إلى الساحة، مارة بالمخزن. فتوقف الركب وانحنت الجباه على الرصيف تحية للمانيكان. بعدئذٍ امتلأت الساحة بالخيل والجند، وأحاطت البائعات بالعروس وتقدمن بها إلى القاعدة الحجرية حيث يقف الفارس المجنح. فترجل التمثال طائعاً وأخذ بيد عروسه، وابتعدا سيراً على الأقدام في اتجاه المكتبة حيث الأرضية الرطبة الباردة هي المضجع، والمؤلفون هم الشهود كما قالت ديوتيما مضيفة هذه المفردات التنبؤية: ستشهد الأقبية الليلة، زفافاً يتوارى حسداً منه زواج فيجارو.. ويتنحى جانباً عنه عرسُ الملكة باسيفاي حين وهبت نفسها ثور نبتون! الليلة تضاء الردهات السفلية بتاج كاثرين الثانية، وتصفق الكتب بأغلفتها تصفيفة البومة على رأس أبي الهول كما رأتها عينا ريلكة!.

صحوت مبكراً جداً. لم أصحُ مرة من قبل في مثل هذه الساعة المبكرة. الفجر لم ينبلج بعد،الثلوج تغمر كل شيء عبر النافذة. الشقة دافئة تماماً وأنا اتأمل الحديقة المتجلدة تحت أضوائها الباهتة المضببة! بين الأشجار البيضاء القائمة على جانبي الممشى الأبيض يتسكع الرداء الأسود في نزهته المبكرة.

خطوت إلى المطبخ أهيئ قهوة لي. وحين نظرت من نافذة المطبخ رأيته متوقفاً مشرئباً في اتجاه النافذة، فضحكت ساخراً وأومأت بيدي إيماءة دعوة. فأسرع خفيفاً إلى مدخل المنزل. ثم سمعت بابي يطرق طرقاً متعجلاً ففتحته داعياً الرداء إلى الدخول. وانحنيت فاسحاً الطريق له إلى البهو. فاقتعد جانباً من الأريكة الطويلة لن أقدم القهوة له ولن أفتح علبة بيرة. ما الذي جاء به فارغاً إليّ بعد أن أفهمته تلك الليلة ألا يزورني خالياً من امرأة؟ وسمعت التلفون يرن. إنهما العاهرتان الطيبتان، وإنهما آتيتان بعد ساعة سيمتلئ الرداء الأسود بالواحدة منهما بعد الأُخرى هو الذي ايقظهما من النوم ودفع بهما دفعاً إلى التلفون ولم افاجأ بصناديق البيرة الفاوستية وازدحام الثلاجة والرفوف بالأشربة الأُخرى والأطعمة. إنه زفاف الثوب الأسود الصباحي. وبعد ساعة جاءت الفتاتان كما وعدتا.. ملتفتين بالفرو الفاخر. ضاحكتين متوردتين، يفوح الطيب منهما مالئاً أرجاء الشقة. وكان الرداء منطرحاً على الأريكة، منتظراً أن ترتديه إحداهما إلا أنهما لم يأبها له كثيراً. جربتاه مرة وألقتا به مهملاً على الأريكة مفضلتين التجول بين المطبخ والبهو دونما ورقة تين! ثم إنني تذكرته فلم أجده، وسألتهما عنه فقالتا ضاحكتين:

- وما أدرانا أين هو الآن؟ ربما فر من النافذة أو عل إحدانا ألقت به إلى الطريق احتفاء بتساقط الثلوج المتعاظم. إنها تتهاطل منذ البارحة تهاطلاً لا مثيل له إلا في قصص الجنيات. إنما قل لنا من فضلك.. من هي الزميلة الفاضلة التي

تركت لديك رداء زفافها الأسود؟ هل هي واحدة من فتيات المقهى فنعتذر لها عن إضاعته؟

قصاصة من الصفراء:

أين أنت؟ منذ يومين وتلفونك لا يرد! انتظرني اليوم في المقهى الجانبي.. سأحكم إغلاق ذراعي من حولك فلا تهرب، ولا تتسلل من بينهما لحظة واحدة. التفاح طازج تماماً!.

يقول شيخ المشجب: لا تضع قفازيك الثمينين في جيبي معطفك حين تسلمه إلى عمال المشاجب.

فأقول: لماذا؟

فيقول: من يدري؟ قد يسرقان.

فأقول: من هو الذي يجرؤ فيسرقهما وأنت الحارس؟

فيقول: أنا أعني المشاجب الأخرى.

فأقول: من أين تدخل اليد من الجيب إن لم يكن الجيب في اليد؟

فيقول ضاحكاً: جيوبهم لا تدخل أيدينا، وأيدينا لا تدخل جيوبهم.

فمنحته منحة لم يرَ أكثر امتلاء منها من قبل وقلت:

- والآن.. هل دخل جيبي في يدك أم لا؟

فضحك الشيخ فرحاً وقال:

- الآن أصبح رأسي أقل امتلاء يعني من الهموم.

- إن لم يصبح رأسك أكثر امتلاء أعدها لي.

- وبم تريد أن املأه؟

- بأحلام البونش؟

فضحك الشيخ الطيب قائلاً:

- أنا سعيد بسعادتك اليوم.

- الصفراء قادمة:

فقال الشيخ متسائلاً:

- الذهب؟

- كلا. انتهى الأصيل وبدأ الصهيل.

- لم أعد أفهم شيئاً.

غير أنه فهم بعد أن أودعته معطفها واتجهت إلى المقهى وقبل أن تجلس على الكراسي المحجوز أنباتني قائلة:

- اختفت المانيكان!

- سرقت أم طارت؟

فضحكت مقبلة وجهي بشفتيها الحارتين!

- لم تسرق ولم تطر خرجت في وضح النهار من المخزن مع الزبائن الخارجين، ولم تعد إلى الواجهة. الناس في الشارع ظنوها بائعة رتبت شيئاً في الواجهة وعادت إلى المخزن. والذين في المخزن ظنوها زبونة مثلهم حين خرجت ملتفة بفروها الجديد. المركز التجاري اعتبر اختفاءها مكيدة دبرتها الشركة المنافسة! سرقة رفيعة المستوى. أين هو خاتمك؟

- هو ذا.

أضفت ساخراً.

- فإذا سرق فهي سرقة هينة لا يؤبه لها.

- متى غادرت شقتك؟

- في الخامسة أو قبلها بدقيقة. أعطيت الترجمة همتي كلها اليوم.

- اختفت الصورة، إذن، وأنت في المصعد تقريباً.

قلت ممازحاً:

- هل كنت مختبئة في شقتي؟

- اختفت المانيكان في الخامسة تماماً. كنت منتبهة إلى تحركها وخروجها. لن تجد الصورة عندما تعود، لم يبق إلا إطارها.

- ألن تأتي معي الليلة؟

- لا أدري بعد. دعنا نصعد إلى المطعم قبل أن تيأس النادلة.؟

وقلت ونحن، نرتشف أول رشفة كونياك من قنينة المائدة المحجوزة.

- حدثيني عن زينغا.

وكنت قلقاً عليها.

- لا تخشَ عليها شيئاً، إنها الآن هناك ولا ندري متى تعود. ربما بعد ساعة أو بعد أيام. كثيراً ما ارتحلت إلى ذويها ورجعت من هناك.. لم يطل غيابها أكثر من أيام معدودة.. غير أن الرحلة مختلفة هذه المرة كما أظن. ما بك؟ لا تقلق ولا تحزن هل تحبها؟

- لا أدري.

- واضح أنك تحبها.

- بم تختلف هذه الرحلة عن غيرها؟

- لا أعرف تماماً أين هو السبب. ربما هو اختلاف بين أفراد الفئة العليا.. فهي ذاهبة للتهدئة وإبداء النصح والمشورة. وقد يتطلب الأمر منها التفوة بكلمة واحدة وأخيرة. بكلمة من كلماتها هي تكفي لإقناعهم كلهم. أنا لا أقول إلا تخميناً وتصوراً. أما الواقع فلا أعرفه.. إن لها أسرارها كما تعلم!

وصمتت ناظرة إليّ برقّة.. طفلة!

- وأما عن عودتها.. فهي عائدة كن مطمئنا.

- لِمَ لم تختف الصورة باختفائها.. قبل هذه الأشهر الأخيرة؟

- وما أدراك؟ ربما كنت نائماً أو مسافراً.. أو في هذا المطعم مثلاً.

- وهل ستنبئني قبل عودتها بإشارة؟

- من يدري؟

- تعالي معي الليلة، سأكون حزيناً وأنا أرى إطارها فارغاً.

- إياك أن ترفعه عن الحائط.

- لم أرفعه من قبل.

- أما عودة الصورة إلى الإطار فلا تعني حتماً ظهور زينغا في الشقة. إنها تعني عودتها إلى الأرض.

- لا بد من أن تجيئي معي.

- دعنا ننام الليلة في شقتي. أنا أيضاً لا أحب أن أرى إطارها خالياً من صورتها. أسمع، دعنا نوصي النادلة من الآن فتلف لنا قنينة. فقد ننسى ونخرج بأيدٍ خاوية. مخزن الفندق يغلق

في الحادية عشرة. ولا نصف قنينة في بيتي. ونحن الليلة أحوج الناس إلى الأنس.

قلت: ملاطفاً يدها الغضة الحارة:

- هل تعرفين شيئاً عن العكاز الأبيض؟

- لا أعرف. صدقني. ربما كنت عارفة قبل اختفائها هذا، أما الآن فلا أتذكر. لا أعرف. لماذا لم تسألها هي؟

- لم يخطر السؤال ببالي.

- ألم تسألها أسئلة تهمك الإجابة عنها؟

- لم أطرح إلا أسئلة غير مهمة تقريباً.

- ربما كان الأفضل هو ما فعلت.

- من يدري؟

- كنا نتوقع إقامة الحفل الليلكي مع اشتداد الزوابع الثلجية.

- حفل الرحلة المرتقبة؟

- أجل.. رحلتكما معاً.

- وأين من المتوقع إقامته؟

- لم تقل زينغا كلاماً واضحاً عن البقعة المحددة. ربما في ضاحية ما قرب برج قروي ما.. لم يكن كلامها واضحاً ربما في ساحة من ساحات المدينة كل شيء يتقرر في حينه وموضعه تلك هي كلماتها. ولعلها لم تكن آخذة قرارها الأخير بعد.. في ما يخص المكان.

فضحكت قائلاً:

- أما في ما يخص زمان الرحلة الممتلئ.

فضحكت هي الأخرى متذكرة:

- ألم تزل تتلاعب بتلك الدعابة؟

فقلت مكملاً:

- فقد أصبح مقرراً أن تبدأ الرحلة مع اشتداد الزوابع الثلجية.

- ها أنت تعرف كل شيء.

- أو لا أعرف أي شيء.

والتفتت هي ناحية النادلة الواقفة عن قرب:

- من فضلك.. قبل أن ننسى.

نحن لم نصعد إلى المطعم إلا متأخرين.. فلم نهبط منه إلا متأخرين أيضاً ارتدينا معطفينا. بمعونة الشيخ، واجتزنا النفق المضاء بمصابيحه الجانبية البيضاء إلى الشارع الليلي المقرور ماشيين الهوينا، مارين بالمخزن المقفرة واجهته من المانيكان المترفعة، أحببنا أن نطيل الجولة حتى الساحة الدائرية حيث يقف الفارس المجنح قبل أن نعود فنرتقي السلم إلى شقتها. أخذ الثلج يهمي والرياح تشتد هبوباً وصياحاً، وتكاثر انهمار الثلج متطايراً في الرياح ونحن نقترب من الساحة فجأة لاح فوق الساحة إعصار أو عمود ثلج يرتفع وينخفض من دون أن يلامس الأرض.. تاركاً عليها ألواناً قزحية تتلاشى مع ارتفاعه وتبدو واضحة مع انخفاضه كأن العمود الثلجي دائراً حول نفسه، متراقصاً.. آخذاً لون الليالك الندية. قلت وأنا اقترب من الساحة الدائرية متجهاً إليه، مأخوذاً بروعته وبداعته:

- انظري.. انظري.

- لا تخطُ خطوة داخل الساحة.

وأمسكت بذراعي مبتهجة، وقد اتسعت عيناها التتريتان البراقتان، متابعة بهما، العمود الثلجي الراقص.. إلى أن اختفى تماماً في أعالي الزوبعة الثلجية. فهتفت متحيراً:

- أهي زينغا؟

- من يدري! ربما هو رسول منها لا غير!

هكذا تم اللقاء القدري وبدأت قصتي أنا مع هذه الحكاية .. حملت إليّ المرأة هذه الأوراق قائلة إنها تلقتها بالبريد من جارها، بعد انتقاله من شقته. لم يكتب الفتى عنواناً ولم يقل أي شيء في رسالته التوضيحية غير التحية وهذه الكلمات. اسمحي لي يا جارتي الطيبة أن أبعث بأوراقي هذه إليك. لقد أتممت كتابتها وانتهيت منها، وأكملت يد أخرى مراجعتها وتشذيبها قبل انتقالي من الشقة وأنا لا أريد أن أعود اليها بعد تنقيحها هي فأغيّر وأبدل ما كتب قد كتب كما تقول الأمثال أو الكتب القديمة ! لم أعد أتذكر أين قرأت هذه العبارة! وصدقيني يا سيدتي إن بقاء هذه الأوراق قريبة مني يسبب لي، إضافة إلى رغبتي بتجميل أسلوبها مزيداً من الأسى والحزن الشخصيين، ما لا أحتمله فقد أنهض من النوم أو عن المكتب فجأة وأمزق هذه الأوراق.. لا لشيء إلا لأنها السبب في إثارة أساي وحزني.. وأنا لا أود أن أمزق أوراقي هذه وأرميها، إنها جزء من حياتي كما يُقال في الكتب. وأنا لست كاتباً أديباً ، فما أنا غير مترجم! وصدقيني أيضاً إن هذه الأوراق لا تنطوي على شيء، مهما صغر، قد يسبب إحراجاً لك أو يمكن أن تخجلي منه، هي أوراق شخصية لا تعني أحداً سواي احتفظي بها يا سيدتي عندك، ودعيها نائمة في سلام، فإذا ضقت بها ذرعاً في يوم من الأيام أودعيها يداً أمينة.. وستأخذ طريقها المقدّر ساعة يُراد لها أن تأخذه ! وتذكري جاراً لن ينسى دفء يدك الصديقة!.


ISBN 2-84306-117-x
9 782843 061172